مقدمة Introduction

تثير العلاقة بين القرآن والعلم أولا وقبل كل شيء الدهشة خصوصا عندما نكتشف أن هذه العلاقة إنما هى علاقة اتساق واتفاق وانسجام وليست علاقة تعارض وتنافر وتناقض .

Relation of Harmony and not of discord

وربما كان التعارض Confrontation بين كتاب دينى وبين حقائق العلم الوضعى شيئا متوقعا محتمل الحدوث فى نظر كثير من الناس فى العصر الحديث . إن الأغلبية العظمى من علماء اليوم ، باستثناء عدد قليل منهم ، بطبيعة الحال ، مرتبطون ويلزمون أنفسهم بالنظريات المادية Ma-terialist Theories وليس لديهم إلا المعارضة فى المسائل الدينية التى يعتبرون أنها تقوم على أساس من الخرافات والأساطير . وبالإضافة إلى ذلك ، نجد أننا فى الغرب عندما نناقش مسألة «العلم والدين» ندرس ونناقش هذه المسألة باعتبار أنها «مسألة العلم والدين اليهودى والدين المسيحى» ولايتطرق الناس فى الغرب إلى بحث مسألة «العلم والدين الإسلامى» على الإطلاق حتى الآن . وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى الأحكام المسبقة غير الصحيحة عن الإسلام فى أذهان أهل الغرب وهى من الكثرة بحيث يصعب على أهل الغرب أن يكون لديهم فكرة صحيحة عن «الإسلام» كما هو فى حقيقة الأمر .

ولإجراء أى مقارنة بين الوحى القرآنى وحقائق العلم الوضعى يبدو أنه من الضرورى أن نعطى لمحة عن معالم هذا الدين الإسلامى الذى لاتعرف حقائقه فى الغرب إلا على نحو ضئيل جدا .

إن الأحكام الخاطئة على الإسلام خطأ تام وجسيم إنما هى نتيجة للجهل أحيانا ولمحاولات التشويه المتعمد المقصود أحيانا أخرى .ولكن أخطر محاولات التشويه المتعمد لحقائق الإسلام فى الغرب إنما هى تلك المحاولات المتعلقة بالحقائق الأساسية فى الإسلام Facts لأنه يمكن التماس العذر للأخطاء فى الآراء ، ولكن يستحيل التماس العذر لمن يشوه الحقائق عن عمد وقصد وسوء نية .

ومن المثير للقلق وللعجب وللاشمئزاز أن نقرأ تشويها متعمدا لكثير من حقائق الإسلام فى مؤلفات شهيرة لمؤلفين من ذوى المؤهلات العلمية العليا فى الغرب. وفيما يلى مثال لذلك نجده فى الجزء السادس من دائرة المعارف العالمية Encyclopedia Universalis تحت عنوان «الأناجيل» حيث يعقد مؤلف هذا الجزء من دائرة المعارف هذه مقارنة بين الأناجيل وبين القرآن فيقول : «إن

مؤلفى الأناجيل لايفعلون كما فعل مؤلف القرآن عندما زعم[1] أن القرآن هو سيرة ذاتية أملاها الله إلى النبى» .

وحقيقة الأمر هى أنه لاتوجد صلة البتة بين نصوص القرآن وبين ما يسميه كاتب هذه الانسيكولوبيديا بالسيرة الذاتية . ليس القرآن الكريم مجرد سيرة ذاتية مثلما نجد أن الأناجيل تحاول إعطاء «سيرة ذاتية» للمسيح . القرآن فى حقيقة أمره من أوله إلى آخره كما تدل على ذلك نصوصه الفعلية إنما هو «رسالة من الله إلى كل البشر» تلقاها محمد نبى الإسلام وحيا من الله وأبلغها كما هى إلى البشر . ولو كان كاتب هذا الجزء من دائرة المعارف قد اطلع على أى ترجمة لنصوص القرآن بالغا ما بلغ سوء ترجمتها لاتضح له هذا الفارق الكبير بين الأناجيل كمجرد سيرة ذاتية وبين نصوص القرآن . إن الخطأ فى وجهة النظر هذه يشبه الخطأ فى اعتبار أن الأناجيل إنما هى سيرة ذاتية لمؤلفيها . والمسئول عن هذا الخطأ فى هذا الجزء من دائرة المعارف[2] المشار إليها ليس رجلا من عامة الناس ، ولكنه أستاذ بجامعة اليسوعيين اللاهوتية بمدينة ليون ، ولا يليق به إطلاق مثل هذه الأحكام الخاطئة عن القرآن . إن كتابة وطبع ونشر أكاذيب من هذا النوع فى مراجع يفترض أنها مراجع محتومة يسهم فى إعطاء صورة زائفة خاطئة عن القرآن والإسلام . ولقد سبق لى أن تحدثت فى مقدمة هذا الكتاب عن ذلك التغيير العظيم نحو الأفضل ، وهو التغيير الذى حدث فى السنوات الأخيرة منذ صدور وثيقة سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين وعنوانها : «توجهات لإقامة حوار[3] بين المسيحيين والمسلمين»

"Orientations For A Dialogue Between Christians And Muslims"

وهى وثيقة شديدة الدلالة على الموقف الجديد الذى أصبح الفاتيكان يتبناه تجاه الإسلام والمسلمين . وفى الطبعة الثالثة من الدراسة التى تضمنتها تلك الوثيقة نجد «المطالبة بمراجعة موقف المسيحية إزاء الإسلام وممارسة النقد لأحكامنا المسبقة عليه» . وتقول هذه الوثيقة بالحرف الواحد :

---

(١) يحاول كاتب هذا النص المقتبس من دائرة المعارف المشار إليها أن يقول إن مؤلفى الأناجيل قد كتبوها باعتبار أنهم بشر ، والكلام الموجود فى الأناجيل كلام بشر أما محمد فهو لا ينسب الكلام فى القرآن الكريم إلى نفسه ولكنه يزعم أنه كلام الله . (المترجم) .

(٢) من المؤسف حقا إن كثيرا من دوائر المعارف المشهورة فى الغرب تغص بكثير من الافتراء والمغالطات الفجة عن الإسلام والقرآن ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام . فى دائرة معارف لاروس المشهورة مثلا نقرأ أن النبى ﷺ فى زعمهم كان كاردينالا مسيحيا يطمح أن يعتلى كرسى البابوية ولما فشل فى ذلك هرب إلى شبه الجزيرة العربية حيث أصبح لص نياق ودعا إلى دين جديد من اختراعه أسماه دين الإسلام وزعم أن الوحى الإلهى ينزل عليه ليكيد للمسيحية التى لفظته وحرمته من كرسى البابوية . إنهم بمثل هذه الأباطيل يحاولون أن ينفروا شعوب أوربا المسيحية من الإسلام على أساس أن عامة الشعب يتعذر عليهم كشف هذه الأكاذيب والمغالطات . (المترجم) .

(٣) فى ظلمات القرون الوسطى وحتى مطلع عصر النهضة كان رجال الدين فى أوربا يستطيعون حجب حقائق الإسلام وتشويه صورته من خلال أحكام خاطئة يصدرونها عن الإسلام وعن القرآن وعن نبى الإسلام ﷺ . وفى الحلقات الأخيرة بعد منتصف القرن العشرين تقدمت وسائل الاتصال بين الناس فى كل أنحاء العالم ويستطيع الناس بسهولة نسبية الاطلاع على حقائق الإسلام ، وهو الشأن الذى دعا الفاتيكان إلى تغيير تكتيكاته فى مقاومة الإسلام .(المترجم) .

« وعلينا أن نهتم أولا بأن نغير تدريجيا من عقلية إخواننا المسيحيين[١] ، فذلك يهم قبل كل شيء» . وتقول ذات الوثيقة أيضا : «ويجب التخلى عن الصورة البالية التى أورثها لنا الماضى مملوءة بالأكاذيب والمفتريات الشائهة والأحكام المسبقة الخاطئة عن الإسلام» وتقول هذه الوثيقة أيضا بالحرف الواحد : «ويجب الاعتراف بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى فى حق المسلمين وهى المظالم التى يستحق الغرب وتستحق أنظمة التعليم المسيحى كل لوم من جراء[٢] ممارستها» .

وهكذا قامت هذه الوثيقة الهامة التى صدرت عن الفاتيكان فى مائة وخمسين صفحة تقريبا ببسط ودحض نظرة المسيحية الكلاسيكية إلى الإسلام مطالبة أن ينظر المسيحيون إلى الإسلام كما هو فى حقائقه وليس كما صوره وتصوره المسيحيون من خلال الأحكام المسبقة عنه .

وتحت عنوان هام هو :«يجب التحرر من أكثر أحكامنا المسبقة جسامة فى الخطأ » قام المشرفون على تحرير هذه الوثيقة فى الفاتيكان بتوجيه الدعوة إلى المسيحيين قائلين لهم فى هذه الدعوة : «يجب علينا أن نطهر وبعمق عقولنا خصوصا عندما نفكر فى بعض الأحكام المسبقة التى شاعت خطأ عن الإسلام بين المسيحيين التى كنا نصدرها فى كثير من الأحيان بكل استخفاف عن الإسلام . ويبدو لنا أنه من المهم الآن أن نكف عن إصدار وتقبل مثل هذه الآراء المتسرعة غير الصحيحة بل المتعمدة التى كانت تحاول تشويه صورة الإسلام فى عقول الناس ، وهى النظرات والآراء التى يرفضها المسلم ، أى مسلم ، بداهة باعتبار أنها لا تمت بأى صلة إلى حقائق الإسلام» .

إن واحدة من تلك المغالطات المتعمدة التى تحاول تشويه صورة الإسلام هى موقف المسيحيين من كلمة « الله» التى يستخدمها المسلمون فى تسميتهم للإله المعبود بحق ، ولقد حاول المسيحيون فى الغرب الإيهام بأى كلمة «الله» تعنى إله المسلمين الذى يعبدونه وهو غير جدير بالعبادة ولذلك لا يعتبرونه مساويا أو مقابلا أو مرادفا للكلمة الفرنسية Dieu مثلا . إن هذه النظرة

---

(١) ماذا يظن أولئك الناس ؟ وكيف يفكرون ؟ وما هى حقيقة تصورهم لما يسمونه «عقول النَاس» هل عقول الناس مجرد كمية من العجينة يشكلونها ويصوغونها كيفما يريدون؟ سبق لهم أن شوهوا عن عمد وقصد صورة الإسلام ومبادئه وصورة نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم وحقيقة القرآن الكريم عندما كانت وسائل الاتصال بطيئة التوصيل ، وعندما تقدمت وسائل الاتصال بين الناس وأصبحت أكاذيبهم عن الإسلام مفضوحة سهلة الاكتشاف . هاهم أولاء يحاولون تغيير التاكتيك ويحاولون تغيير عقلية أتباعهم المسيحيين إزاء الإسلام . ماذا يريدون بالحوار ؟ هل يريدون الاعتراف المتبادل بصحة الدينين كليهما ولا مفر من صحة دين واحد ؟! (المترجم) .

(٢) يضيف المؤلف بنفسه ملاحظة هامشية على صفحة ١١٢ من الترجمة الإنجليزية يقول فيها: : «كان كل شكل ونمط من أشكال وأنماط التطاول والإساءة بالأكاذيب إلى الإسلام يلقى كل ترحيب حماسى حار من الكنيسة حتى وإن صدر عن بعض المفكرين المشهورين المعروف عنهم معاداة الكنيسة والمجاهرة برفض تعاليمها . وأوضح مثال لذلك هو ترحيب البابا بينوا الرابع عشر Be-noitXIV الذى كان أكثر الشخصيات المسيحية شهرة فى القرن الثامن عشر وحماسة عندما أهداه فولتير مسرحيته التراجيدية البذيئة التى قام فولتير بتأليفها بعنوان :«محمد:مثال للتعصب» Mohamet ou le Fanatisme. = Mohammed or Fanaticism» وهى مسرحية فجة بعيدة كل البعد عن الحقائق المتعلقة بنبى الإسلام وتصلح هى ذاتها أن تكون مثالا للتعصب: Fanaticism ومن الغريب ، ومما يدل على فرط الحماس لقبول هذه المسرحية فى الغرب أنها قد تم تسجيلها فى قائمة المسرحيات التى قام مسرح الكوميدى فرانسيز الشهير بتقديمها على خشبته ومن الغريب حقا أن الترجمة الحرفية لعنوان مسرحية فولتير Mohamet ou le Fanatisme يعنى : «محمد أو التعصب» وهو يعنى إما تصديق رسالة محمد أو الوقوع فى براثن التعصب وهى مصادفة عجيبة حقا . (المترجم) .

إلى كلمة «الله Allah » غير صحيحة بالمرة إذ إن كلمة « الله Allah » تساوى كلمة Dieu الفرنسية ، وهى عند المسلمين لا تعنى إلهاً آخر سوى « الله Allah » رب موسى ورب المسيح ورب الناس جميعا[١] .

ومن الصواب أن نجد وثيقة الفاتيكان المشار إليها تقول فى هذا الصدد بالحرف الواحد ما نصه كما يلى :

« نرى باطلاً أن نتمسك مع بعض الغربيين أن الله Allah ليس إلهاً God بالإنجليزية وبالفرنسية Dieu فى الحقيقة.» لقد أدانت بالفعل نصوص وثيقة مجمع الفاتيكان الثانى المشار إليها مثل هذا الزعم الخاطئ .

وإذا أردنا أن نصور إيمان المسلمين بالله Allah فنحن لن نجد أفضل من أن نقتبس نصًا من «لومن جينتيوم Lumen Gentium » يقول: «إن المسلمين الذين يؤمنون بإبراهيم يعبدون معنا إلها واحدا هو الرحيم ، وهذا الإله الواحد هو ديان كل الناس يوم القيامة .»

" The Muslims profess the faith if Abraham and worship with us the sole merciful God who is the future judge of men on the Day of Reckoning ."

ومن هنا يمكن لنا أن نفهم احتجاج المسلمين على العادة شديدة الشيوع وهى استخدام اللغات الأوروبية لكلمة « الله Allah» كما هى بمجرد تحويل حروفها العربية إلى مقابلها من حروف لاتينية بدلا من ترجمتها إلى كلمة Dieu فى اللغة الفرنسية أو كلمة God[٢] فى اللغة الإنجليزية ، ولقد امتدح مثقفون مسلمة الترجمة الفرنسية لمعانى القرآن الكريم التى قام بها الدكتور ماسون لأنها استخدمت كلمة Dieu كمقابل equavalent لكلمة «الله» ويشير نص وثيقة الفاتيكان أيضا إلى أن «كلمة» «الله» هى الكلمة العربية الوحيدة عند المسيحيين المتحدثين بالعربية للدلالة على الله الواحد » .

إن المسلمين والمسيحيين يعبدون إلها[٣] واحدا .

---

(١) فى الطبعات القديمة من ترجمة التوراة إلى اللغة الإنجليزية مثلا كانت كلمة «إلوهيم» العبرية تتم ترجمتها بكلمة «الله Allah» والطبعات الحديثة من ترجمة التوراة تعمد المترجمون أن يتجنبوا استخدام كلمة Allah حتى لا يرسخ فى أذهان الناس أن «الله Allah» وهى التسمية الموجودة لدى المسلمين للإله المعبود بحق إنما هى تسمية صحيحة لإله جدير بالعبادة . حاولوا تشويه اسم «الله» فى أذهان أتباعهم باعتبار أن «الله Allah» إله زائف للمسلمين فقط . (المترجم) .

(٢) المسلمون لا يحتجون ولا يعترضون على مجرد استخدام كلمة الله Allah بنفس نطقها العربى ولكن يحتجون ويعترضون على المفهوم The Concept الذى يحدده ويصر عليه المتحدثون باللغات الأوربية عندما يعتبرون أن كلمة«الله Allah» إنما هى اسم إله زائف يعبده المسلمون ولايعبدون المسيح. (المترجم) .

(٣) فى هذه المقولة بعض التسطيح المتعمد والتجاوز المقصود مما يحدث لبسا وغموضا فى الأذهان ، وليس معنى الوحدانية هو تطابق الديانات التى تنادى بالتوحيد فى كل الوجوه فاليهودية تنادى بعبادة إله واحد . والمسيحية تنادى بعبادة إله واحد . الإسلام ينادى بعبادة إله واحد . وتوجد فروق هامة فى تصور هذا الإله الواحد مما يجعل هنالك تمايزا وتباينا لا يمكن إغفاله بين أديان التوحيد الثلاثة . (المترجم) .

هذا ، وتتناول وثيقة الفاتيكان المشار إليها بالنقد كثيرا من الأحكام الأخرى الخاطئة التى شاعت فى الغرب المسيحى عن الإسلام .

«الجبر فى الاسلام Islamic Fatalism» على سبيل المثال فرية كانت شائعة فى الغرب المسيحى عن الإسلام ، قامت الوثيقة بإعادة النظر فيه واستعانت بذكر آيات قرآنية موجودة فى نصوص القرآن تعارض فكرة أن الإنسان مجبر ومكره فى كل تصرفاته ، وتفيد مسئولية الإنسان النابعة من حرية اختياره لأفعاله مما يسوغ ويبرر محاسبة الإنسان عن أعماله ومعتقداته ، وتبرز الوثيقة أيضا أن الإسلام لا يجبر أحدا بالقوة على اعتناق الإسلام ، إذ توجد به نصوص صريحة تنافى هذه الفكرة التى شاعت عنه خطأ فى الغرب المسيحى مثل قول الله فى القرآن : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [**البقرة** : ٢٥٦] . وأيضا قول الله تعالى فى القرآن :﴿ **وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [**سورة الحج** : ٧٨] والوثيقة المشار إليها أيضا تعارض الفكرة التى شاعت خطأ فى الغرب المسيحى عن الإسلام كدين يبعث الخوف فى نفوس الناس ، وتؤكد الوثيقة أن الإسلام هو دين الحب و حب الإنسان لجاره الإنسان على أساس من المشاركة فى الإيمان بالله .

The document opposes the widely- spread notion of "Islam, religion of fear" to " Islam, religion of love" - love of one's neighbour based on faith in God .

إن الوثيقة المشار إليها تدحض فكرة أخرى نشرها اليهود والمسيحيون عن «التعصب فى الإسلام لدى المسلمين Islamic Fanaticism» ، وتقتبس الوثيقة المشار إليها آيات من القرآن لتقول لنا بالحرف الواحد ما نصه : «لم يكن المسلمون فى حقيقة الأمر أكثر تعصبا من المدنية المسيحية عندما كانت للمدنية المسيحية سيطرة سياسية فى إقليم ما من الأقاليم الموجودة فى العالم . إن مفهوم الجهاد فى الإسلام شبيه بالحرب المقدسة فى المسيحية، مما يعنى بذل الجهد لنشر الإسلام والذود والدفاع عنه مثلما يطالب المسيحيون ببذل الجهد لنشر المسيحية والذود والدفاع عنها . وليس الجهاد فى الإسلام شبيها بما يعرف فى الديانة اليهودية مثلا باعتبار أنه «الخوريم» Kherem حيث إن الإسلام لا يهدف أبداً إلى إبادة الناس المخالفين فى الدين ومحوهم تماما من على وجه الأرض ، بل على العكس من ذلك لا يجبر الإسلام أى فرد من الأفراد على اعتناق الإسلام ، يهدف الإسلام فحسب إلى أن تمتد حقوق الإنسان وحقوق الله إلى كل مكان يمكن أن تمتد إليه هذه الحقوق ليتسنى للإنسان أن يختار ما يشاء من دين . وتقول الوثيقة المشار إليها فى هذا الصدد بالحرف الواحد :«ولقد كانت أعمال العنف فى حروب الجهاد فى الماضى تخضع عموما لقوانين الحرب . وفى عصر الحروب الصليبية مثلا لم يكن المسلمون هم الذين ارتكبوا أكبر المذابح» .

وتنقد الوثيقة المشار إليها أيضا الزعم الخاطئ الشائع الذى يقول : «إن الإسلام دين

جامد a hide -bound religion يُبْقى أتباعه مرتبطين بروابط العصر الوسيط الذى ظهر فيه الإسلام ويجعلهم غير قادرين على التوافق والتلاؤم مع المنجزات التكنولوجية في العصر الحديث» وتُجرى الوثيقة مقارنة بين مظاهر التخلف الموجودة فى بعض البلاد المسيحية ومظاهر التخلف الموجودة فى بعض البلاد الإسلامية . وتخلص الوثيقة المشار إليها إلى أن تقول بالحرف الواحد : «إننا نجد فى الفكر الإسلامى مبدأ إمكانية تطوّر المجتمع المدنى» .

وأنا متأكد أن دفاع الفاتيكان هذا فى الوثيقة المشار إليها سيدهش كثيرا من الناس فى عصرنا سواء كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين ، إنه إعلان يتميز بالإخلاص للحقائق والاستجابة لدواعى التفتح العقلى على النقيض تماما من المواقف العقلية المتعصبة التى كانت متوارثة طوال العصور الماضية . ومما يؤسف له أن عددا قليلا جدا من الناس فى الغرب المسيحى هم الذين يستطيعون ويتاح لهم الاطلاع على تفاصيل هذه المواقف الجديدة التى أعلنت عنها السلطات العليا فى الكنيسة الكاثوليكية .

وعندما يعرف أى إنسان هذه الحقائق التى أعلنت عنها وثيقة الفاتيكان المشار إليها لا يكون هنالك مجال للدهشة والتعجب من الأحداث والتصرفات التى أعقبت هذه المصالحة : فلقد كانت هنالك أولا تلك الزيارة الرسمية التى قام بها رئيس سكرتارية الفاتيكان المختص بشئون غير المسيحيين لجلالة الملك فيصل بن سعود ملك المملكة العربية السعودية[1] . ولقد أعقب هذه المبادرة الفاتيكانية زيارة رسمية سعودية للفاتيكان عندما استقبل البابا بولس السادس وفدا رفيع المستوى من كبار علماء الدين السعوديين عام ١٩٧٤م استقبالا رسميا . وفى هذه الزيارة برزت دلالات روحية عظيمة خلال احتفال لتكريم وفد علماء المملكة العربية السعودية فى الفاتيكان ترأسه من الجانب المسيحى الأسقف الشنجر Elchinger فى قاعة الاحتفالات الكبرى بكاتدرائية ستراسبورج حيث دعا الأسقف الشنجر أعضاء وفد علماء السعودية لأداء فريضة الصلاة وفقا للشريعة الإسلامية فى بهو الكاتدرائية نفسها ، وقد استجابوا لدعوته وقاموا بأداء الصلاة أمام المذبح متجهين نحو القبلة بمكة المكرمة .

وإذا كان ممثلو العالم المسيحى وممثلو العالم الإسلامى على أعلى المستويات الرسمية الذين يشتركون فى ديانات تعتمد توحيد الله يتبادلون الاحترام فيما يتعلق بشأن مواضع الاختلاف فى الرأى فيما بينهم ، فقد أفضى بهم ذلك إلى فتح أبواب للحوار . وإذا كان ذلك كذلك فمن الطبيعى جدا أن نقارن بين محتويات التنزيل فى نصوص الكتب المقدسة لدى كل طرف ، والغرض الذى نهدف إليه من هذه المقارنة هو فحص واختبار مدى صحة هذه النصوص فى ضوء الحقائق العلمية Scientific data ليتضح لنا مدى المصداقية فى كل منها .

(١) رحمه الله .

authenticity of the texts وهذا الفحص يلزم إجراؤه بالنسبة إلى القرآن كما أجريناه بالنسبة للنصوص اليهودية والمسيحية فى التوراة والأناجيل .

إن العلاقة بين الأديان وبين العلم لم تجر على نفس الوتيرة من الاتساق فى كل مكان وكل زمان . ومما لا جدال فيه أنه ليست هنالك إدانة للعلم فى أى كتاب مقدس من الكتب المقدسة المعروفة فى أديان التوحيد الثلاثة ، ولكن، من الناحية العلمية ومن ناحية الواقع الفعلى يلزم أن نعترف أن كثيرا من العلماء المشتغلين بالعلوم الطبيعية الوضعية قد لاقوا كثيرا من المصاعب من جانب السلطات الدينية[١] لبعض الأديان ، نجد أن العالم المسيحى وعبر قرون كثيرة متوالية بادرت سلطات الكنيسة إلى معارضة تطور العلوم الطبيعية الوضعية . لقد مارست سلطات الكنيسة ضد بعض العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير بعض العلوم الطبيعية الإجراءات الظالمة الخاطئة التى نعرفها ، وهى الإجراءات التى دفعت بعض أولئك العلماء إلى الهرب من أوطانهم واحتمال متاعب النفى إلى بلاد غير بلادهم لكى يتجنبوا مصيرا فظيعا يصل فى فظاعته إلى حد مواجهة الموت حرقا أو التخلى عن حقائق العلم التى اكتشفوها كحقائق صحيحة ثابتة بالاستناد إلى التجربة العلمية والملاحظة والاستقراء ، كان من الصعب عليهم التخلى عنها وطلب الصفح والمغفرة من الكنيسة .

وفى هذا الشأن نتذكر على الفور قضية جاليليو[٢] الذى حوكم لأنه استأنف مكتشفات كوبرنيكوس الخاصة بدوران الأرض .

ولقد أدين جاليليو استنادا إلى نصوص التوراة التى كانت الكنيسة تعتمد عليها خطأ .

أما فى الإسلام ، فلقد كان الموقف إزاء العلوم الطبيعية مختلفا . وليس هنالك ما هو أوضح فى هذا الصدد من الحديث النبوى الذى يقول : «**اطلبوا العلم ولو فى الصين**[٣]» .

وتوجد أحاديث نبوية أخرى مؤداها أن «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**[٤]» وعلى كل مسلمة ، ولكن الاعتبار الرئيسى فى هذا الصدد نستطيع أن نجده بوضوح فى القرآن كما سنرى بالتفصيل فى هذا الكتاب ، إن القرآن يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، والقرآن أيضا يحتوى على ملاحظات وأحكام تتصل ببعض الظاهرات الطبيعية مع ذِكْر بعض التفاصيل العلمية التى

---

(١) معارضة الكنيسة للآراء العلمية لدى كوبرنيكوس وجاليليو وغيرهما معروفة وثابتة . ولم يوجد فى تاريخ الإسلام مواقف مماثلة . (المترجم) .

(٢) كانت الكنيسة تتعصب لمقولة أن الأرض ثابتة لا تتحرك وأن الشمس هى التى تتحرك . واكتشف كوبرنيكوس أن العكس صحيح وأثبت ذلك فى كتاب أحرقته سلطات الكنيسة . وتابع جاليليو أبحاث كوبرنيكوس فى هذا الصدد وأثبت أن الأرض هى التى تتحرك حول الشمس وحول محورها ، وحاكمت سلطات الكنيسة جاليليو ، كانوا يضعونه فى طنبور فيه مسامير ويديرونه وكان جاليليو وهو داخل الطنبور يقول ما يريدون وإذا خرج منه كان يقول : ومع ذلك – فهى تدور . (المترجم) .

(٣) جاء فى التمييز : يروى عن أنس به مرفوعا ، وهو ضعيف ، بل قال ابن حبان لا أصل له ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٤) انظر التمييز رقم ٨١٤ حيث قال : ورد من طرق كثيرة إلخ .

تتفق تماما وباطراد مع حقائق العلم الحديث . وليس هنالك ما يماثل ذلك فى التوراة أو فى الأناجيل .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد بأنه لم يكن هنالك فى أى عصر من تاريخ الإسلام بعض المسلمين ذوى السلطة الذين اتخذوا موقفا عدائيا إزاء العلم[1] فمن الثابت أنه قد أسيء فى بعض العصور فَهْمُ واجب التعلم وتعليم الآخرين وفى العالم الإسلامى كما فى العوالم الأخرى حاول بعض الناس إيقاف التطور العلمى . ولكن علينا أن نتذكر أنه فى عصر عظمة الإسلام أو فيما بين القرن الثامن الميلادى والقرن الثانى عشر الميلادى ، وعلى حين كانت القيود مفروضة على التطور العلمى فى البلدان المسيحية ، أنجزت مراكز العلم الإسلامية كَمًّا كبيرا من الأبحاث العلمية وتوصلت إلى كثير من الحقائق والمكتشفات العلمية الهامة فى ذلك الوقت ، كان الباحث فى مجال من مجالات العلوم الطبيعية فى العالم الإسلامى يجد كثيرا من الظروف التى تساعده على إنجاز أبحاثه وإعلان نتائجها ، كما كانت توجد كثير من الإمكانات التى تساعده فى إنجاز أبحاثه . فى قرطبة مثلا كانت مكتبة الخليفة تحوى أربعمائة ألف مجلد ، وكان عالم مثل ابن رشد مثلا يرتادها . وفى قرطبة كانت تتم دراسة علوم اليونان والهند وبلاد الفرس . ولهذا السبب كان كثير من العلماء يسافرون من مختلف بلدان أوربا للدراسة فى قرطبة مثلما يحدث فى عصرنا عندما يسافر المشتغلون بالدراسات العلمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتحسين وإكمال دراساتهم . وكم هى كثيرة تلك المخطوطات القديمة التى وصلت إلينا بواسطة العلماء العرب لتنقل أعلى مستويات العلم والثقافة إلى كافة البلدان التى فتحها العرب ! وكم نكون نحن فى الغرب مدينين للثقافة العربية فى الرياضيات (فالجبر علم عربى) وكذلك علم الفلك والفيزياء وخاصة (البصريات) والچيولوچيا وعلوم النبات والطب (ابن سينا) وغير ذلك كثير .

لقد اتخذت الدراسات العلمية عند العرب لأول مرة فى التاريخ صفة «الجامعة العلمية العالمية» فى العصر الوسيط فى العالم الإسلامى . وفى ذلك العصر كان الناس أكثر خضوعا لتأثير الدين مما هم فى عصرنا الحاضر . ولكن ذلك لم يكن يمنعهم من أن يكونوا مؤمنين بالله وعلماء أيضا كان العلم يبدو كأخ توأم للدين ، ولقد كان ينبغى للعلم أن يظل كذلك على الدوام أخا توأما للدين .

ولقد كانت البلاد المسيحية فى ذلك الوقت من القرون الوسطى تعيش فى ركود علمى وتزمت

---

(١) هناك فرق كبير بين معارضة حقائق العلوم الطبيعية الوضعية ومعارضة بعض الآراء الدينية عندما تبدو للآخرين كآراء غير صحيحة لتعارضها مع المعلوم من الدين بالضرورة فى نظر بعض السلطات الإسلامية . وإذا كانت الكنيسة فى الغرب قد عارضت بعض علماء العلوم الطبيعية الوضعية فيما يتعلق ببعض حقائق هذه العلوم الطبيعية الوضعية نجد أن مثل هذا الموقف لم يعرف إطلاقا فى تاريخ الإسلام ، وكل ما يعرف فى هذا الصدد هو معارضة السلطات بعض الآراء «الدينية» التى فيها شطح ومخالفة للمعلوم من الدين بالضرورة . والفرق بين هذين الموقفين من المعارضة فرق شاسع دون ريب. (المترجم) .

مطلق . كان البحث العلمى متوقفا ، بسبب أولئك الذين كانوا يدعون أنهم «خُدَّام التوراة والإنجيل» وبعد عصر النهضة ، كان من الطبيعى كرد فعل لذلك ، أن يأخذ العلماء بثأرهم من منافسيهم بالأمس وهم رجال الدين المسيحى ، ولا يزال هذا الثأر بين العلماء ورجال الدين المسيحى مستمرا حتى اليوم لدرجة أن التحدث عن الإيمان بالله من جانب أحد العلماء فى الغرب يعتبر رغبة فى المخالفة والتفرد بين غالبية العلماء الذين يؤمنون بحقائق العلم ولا يؤمنون بالله . ولهذا الموقف تأثير سيئ على عقول الشباب الذين يتلقون التعليم الجامعى فى فروع العلم الطبيعى حتى ولو كانوا من المسلمين .

وكيف لا يكون تأثير التنافر والتعارض بين الإيمان والعلم تأثيرا سيئا عندما يفرز لنا بعض النماذج السيئة التى تتمثل فى محاولة أحد العلماء البارزين فى علوم الطب إلى حد تمكنه من الحصول على جائزة نوبل فى الطب صرف الناس عن الإيمان بالله إذ قام بتأليف وطبع ونشر كتاب موجه للجمهور الواسع من القراء وراح ينادى فى كتابه ذاك أن المادة الحية قد استطاعت أن تخلق نفسها بنفسها ، وأنه بدءا من هذه المادة الحية الأولية تشكلت الكائنات الحية الأخرى لتنتهى إلى ظهور الإنسان ككائن حى تكاملت أعضاؤه ووظائف هذه الأعضاء فى ظروف خارجية ملائمة لذلك التطور الحيوى .

أفلا يجب أن تتوجه منجزات المعارف العلمية المعاصرة فى مجالات الحياة وجهة أخرى هى الوجهه الصحيحة ؟ أليست تلك الظروف الملائمة لتطور تلك المادة الحية لتتخذ صورة الإنسان عظيمة التعقيد والتنظيم غير عشوائية الإعداد والتجهيز لتتيح للإنسان أن يولد ، وتدب فيه الحياة ويتم المحافظة على استمرارية الحياة فيه حتى يبلغ أجله ؟ وكلما ازدادت معارفنا العلمية بتلك الظروف الملائمة لوجود الكائنات الحية زاد إعجابنا وازدادت دهشتنا من هذه القدرة الخلاقة المبدعة الحكيمة التى أوجدت هذه الظروف الملائمة لوجود الكائنات الحية ونموها وبقائها طوال العمر المحدد لبقائها ، ومثل هذه المعرفة تتنافى وتتناقض مع الصدفة تمام التنافى والتناقض . وكلما تقدمنا فى امتلاك حقائق العلم وخاصة فيما يتعلق بكل ما هو متناه فى الصغر ازدادت الحجج القائلة بوجود الله الخالق بلاغة وحجية وإقناعا .

ولكن الإنسان بدلا من أن يمتلئ بالتواضع أمام هذه الوقائع ينتفخ كبرا وعنادا عندما يعتقد أنه يستطيع أن يسخر من فكرة وجود الله كما يسخر بكل ما يشكل أمامه عقبة فى سبيل ميوله ورغباته وشهواته . وذلك هو المجتمع المادى الذى بلغ أقصى آماد اتساعه فى الغرب المسيحى المعاصر (ربما كرد فعل للقهر والكبت الذى كانت تمارسه سلطات الكنيسة ضد العلماء فى العصور الوسطى) .

ماذا عساها إذن ، والحال هى هذه ، أن تكون القوى الروحية التى يمكن الاستعانة بها لمجابهة تلويث كثير من حال العلوم الوضعية فى الغرب المسيحى للفكر السائد فى عالم اليوم ؟

إنَّ عَجْزَ المسيحية وعَجْزَ اليهودية عن الصمود لهذه الموجة المادية الإلحادية الموجودة فى الغرب المسيحى ظاهر باد للعيان دون أى خفاء . إننا نرى ونشهد على توالى عقود الزمان تناقصا خطيرا فى قدرة الدين المسيحى على مقاومة تيار المادية والإلحاد الذى يسود الغرب المسيحى فى الوقت الحاضر مهددا بانحراف الجميع ! إن المادى الملحد فى الغرب المسيحى لا يرى فى المسيحية الكلاسيكية إلا نظاما تبناه «البشر» منذ حوالى ألفى عام لإرساء معالم سلطة دينية لأقلية قليلة من البشر ، هم رجال الدين المسيحى ؛ لكى يتسلطوا على غالبية الناس من المسيحيين ، إن الإنسان المادى الملحد فى الغرب المسيحى لن يجد فى الكتب المقدسة المسيحية لغة تتشابه مع لغته ولو إلى حد طفيف ! إن هذه الكتب المقدسة فى عالم المسيحية تتضمن كثيرا من الأخطاء التى تتنافر مع حقائق العلم الحديث التى لا ريب فيها ، وتتضمن كثيرا من الأمور التى يتناقض بعضها مع بعضها الآخر وتتسم بانعدام المعقولية بحيث لا يجد مناصا من أن يرفض القبول بنصوص يريد منه رجال الدين المسيحى أن يقبلها كلها على علاتها باعتبار أنها كلٌ مقدس لا تنفصم محتوياته ، وحيث إنه لا يستطيع أن يقبل بعضه فهو يرفضه كله .

وإذا تكلم أحد مع هذا الإنسان المادى الملحد فى الغرب عن الإسلام يبتسم فى غرور وصلف ولا يماثلها شىء مثلما يماثلها جهله التام بحقائق الإسلام . إنه مثل معظم المثقفين فى الغرب لا يعرف عن الإسلام إلا كمية كبيرة من الأحكام الخاطئة التى شاعت لتشويه الإسلام منذ العصور الوسطى عن جهل بالإسلام وتعمد لتشويه حقائقه .

ومن هنا ربما نلتمس لهذا الإنسان المادى الملحد فى الغرب بعض الأعذار[1] إنه أولا وقبل كل شىء ، باستثناء هذا الموقف المعروف على نطاق ضيق الذى أعلنته أعلى سلطات الفاتيكان ، إنما هو ضحية ما يمكن أن نسميه : «التشهير الأزلى للإسلام Secular slander» الذى مارسته الكنيسة فى الغرب ضد الإسلام طوال قرون العصور الوسطى .

إن أى إنسان غربى أتيحت له فرصة معرفة حقائق الإسلام ليعجب عندما يعرف إلى أى حد شَوَّه رجال الدين المسيحى حقائق الإسلام وعقيدته وشريعته وتاريخه وأهدافه . وعلينا أن نضع فى اعتبارنا ثانيا أن الوثائق والمراجع العلمية الموجودة فى الغرب عن الإسلام لا تزال تغص وتمتلئ بالأحكام الخاطئة عن الإسلام المتوارثة عن العصور الوسطى دون أى تغيير فى دوائر المعارف المشهورة فى الغرب حتى الآن مما يجعل مهمة الباحث الذى يعتمد عليها مهمة شاقة عسيرة لو

(١) عندما نحاول استكشاف وجه الحق فى هذه المسألة نجد أن الإنسان ، كل إنسان بصفته الفردية مسئول أولا وقبل كل شىء أن يهتم وأن يدرس بعناية «الدين» الذى يلزم أن يدين به من منطلق أن الحياة الدنيا فانية ، وأن الحياة الآخرة هى الباقية لو كان لدى الإنسان إيمان بالبعث يوم القيامة والحساب . ومن المعروف للكافة بوجه عام أنه يوجد فى العالم دين اسمه «دين الإسلام Islam» ، ويوجد فى العالم بلاد معروفة للكافة باعتبار أنها بلاد «العالم الإسلامى Islamic world» ومن الضرورى للإنسان أن يسأل : ما هو الإسلام؟ ومن الواجب المحاولة الجادة لمعرفة حقائقه من المصادر الأصلية للإسلام وليس من أفواه أصحاب أديان أخرى ، ولقد تقدمت وسائل المواصلات والاتصال مما يجعل هذا الغرض ممكنا لكل من يرغب . (المترجم).

كان يرغب فى الوصول إلى الحقائق بالرجوع إلى مراجع لا تعطيه عن الإسلام سوى الأكاذيب أو بعض الحقائق الممزوجة بكثير من الأكاذيب.

والواقع أن معرفة ما أنزله الله على نبى الإسلام ﷺ إنما هو أمر أساسى لمعرفة حقائق الإسلام . ولكننا نجد فى الواقع الفعلى أن هنالك نصوصا قرآنية لها ارتباط بحقائق العلم وقد تمت ترجمتها إلى لغات أخرى غير اللغة العربية على نحو سيئ وبالغ السوء أحيانا مما يعطى لبعض العلماء الفرصة لانتقادها مع وجود مسوغ ظاهرى وغير حقيقى لمثل هذه الحالات من الانتقاد ، إذ إن مرجع هذه الحالات من الانتقاد هو سوء الترجمة وليس وجود خطأ فى نص قرآنى يتصل بحقيقة علمية . إن النصوص القرآنية المتصلة ببعض حقائق العلم لا تستحق أن يوجَّه إليها أى انتقاد على وجه الإطلاق. وهذه الملاحظة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار فى هذا المجال . إن سوء الترجمة لبعض النصوص القرآنية والخطأ فى التعليق عليها (ولقد اجتمع هذان السببان فى حالات كثيرة) لم تكن تثير دهشة أو انتباه أحد فى الماضى منذ قرن أو قرنين ليقوم بتمحيصها، ولكنهما اليوم يصدمان رجل العلم . وأمام جملة سيئة الترجمة تتصل بحقيقة علمية توجد فرصة لرجل العلم أن يوجه انتقاده إلى النص القرآنى دون أن يكون محقا فى هذا الانتقاد . ولسوف نعطى فى الفصل الخاص بالتناسل الإنسانى فى هذا الكتاب أمثلة واضحة لهذا النوع من الخطأ .

لماذا توجد أخطاء فى ترجمة بعض نصوص القرآن المتعلقة ببعض حقائق العلم؟ السبب فى ذلك – فيما نرى – هو أن بعض المترجمين فى العصر الحديث يعتمدون فى الترجمة لنصوص القرآن فى أحيان كثيرة ، ودون قدرة على تمحيص كاف على تفسيرات مفسرين من العصور القديمة ، ولقد كان لهؤلاء المفسرين القدامى بعض العذر فى إعطاء تفسيرات ومعانى غير دقيقة لبعض الألفاظ أو التعبيرات أو الجمل . وربما كان اللفظ المستخدم متعدد المعانى ، ولم يكن باستطاعتهم تحديد المعنى المقصود بحزم وحسم . وهنالك معان لألفاظ فى القرآن الكريم لم ينكشف معناها الصحيح إلا فى العصر الحديث عندما تقدمت لدينا المعارف العلمية السليمة فى بعض موضوعات العلوم الحديثة . ويمكن لنا أن نقول بمعنى آخر : إنه من الضرورى أن تراجع الترجمات والتعليقات لبعض نصوص القرآن المتعلقة بحقائق العلوم الطبيعية الحديثة ، وهى النصوص التى لم يكن المفسرون القدماء يستطيعون الإلمام بمعانيها على نحو صحيح ودقيق وحقيقى . إن مشكلة سوء الترجمة هذه غير معروفة فيما يتعلق بشأن نصوص التوراة والأناجيل ، ولكنها بوجه خاص موجودة فى ترجمة بعض نصوص القرآن الكريم المتصلة ببعض حقائق العلم الحديث أى أن القرآن الكريم ينفرد بأن ترجمة[1] بعض نصوصه تعوزها الدقة .

(١) مرجع ذلك إلى أن التوراة والأناجيل قد كتبت باللغة اليونانية فى أغلب الحالات أى أنها كتبت بإحدب اللغات الأوربية أو اللاتينية . أما نصوص القرآن الكريم فقد كتبت باللغة العربية وعند ترجمتها إلى إحدى اللغات الأوربية يجوز وقوع أخطاء عن قصد أو بغير قصد فى الترجمة . (المترجم) .

وهذه الاعتبارات العلمية التى يختص بها القرآن أثارت دهشتى فى البداية . إننى لم أكن أتوقع على الإطلاق أن أكتشف هذا العدد الكبير من الحقائق العلمية فى موضوعات شديدة التنوع فى القرآن ، وأكتشف أنها مطابقة تماما لحقائق العلوم الحديثة فى تخصصات شتى ، والمدهش حقا أننا نجد ذلك التطابق بين الحقائق المذكورة فى القرآن وحقائق العلوم الحديثة موجودة فى نصوص كتاب سماوى أُنزِلَتْ نصوصه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان . ولم يكن عندى فى البداية أى إيمان بالإسلام . ولقد شرعت فى دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة . وإذا كان هنالك أى تأثير مسبق فهو بالطبع تأثير التعاليم المعادية للإسلام التى كنت قد تلقيتها فى شبابى ، إذ كانت غالبية علماء المسيحية لا تتحدث عن المسلمين باعتبار أنهم المسلمون ولكن باعتبار أنهم «المحمديون[1]» لترسيخ الاعتقاد الخاطئ فى الغرب بأن الإسلام دين افتراه أعرابى اسمه محمد ، وهو بناء على ذلك دين خاطئ عديم القيمة عند الله . ولقد كان من الممكن أن أظل متمسكا بهذا التحريف الضخم المتعمد الخاطئ المفتعل عن الإسلام ، وهو تحريف على درجة كبيرة من الانتشار بين المسيحيين فى الغرب لدرجة أننى أدهش عندما أصادف قليلا من المتحدثين المستنيرين خارج نطاق علماء الدين المسيحى المحترفين ينصفون الإسلام ولا يوافقون على تسمية المسلمين باسم المحمديين ، بل يصفونهم باسمهم الحقيقى باعتبار أنهم «المسلمون» . وأنا أعترف هنا بكل صراحة أننى كنت جاهلا بحقائق الإسلام قبل أن أشرع فى البحث عن حقائق الإسلام فى مصادرها الأصلية لأجد صورته الحقيقية ، وهى صورة مختلفة تماما عما أشاعه عنه رجال الدين المسيحى فى الغرب .

وسأظل مدينا بعرفان الشكر والامتنان إلى أكبر حد يمكن تصوره لجلالة الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية الأسبق رحمه الله ، ولا يسعنى إلا الاجتهاد فى إحياء ذكراه بكل احترام عميق . وسيظل محفورا فى ذاكرتى على الدوام أنه كان لى الشرف العظيم فى أن أستمع إلى جلالته شخصيا وهو يتحدث عن الإسلام حديث الحقيقة عن الإسلام . ولقد ذكرت فى حضرة جلالته بعض مشاكل تفسير القرآن فى ارتباطها مع العلم الحديث . وأنا أعتبر بكل فخر واعتزاز أننى قد تلقيت من جلالته شخصيا ومن بعض علماء الإسلام المقربين إلى جلالته معلومات صحيحة قيمة لا يسعنى سوى الإشادة بأن هذه المعلومات تمثل امتيازا خاصا تمكنت شخصيا من الحصول عليه .

وعندما استطعت تحديد البون الشاسع الذى يفصل بين حقائق الإسلام وبين الصورة التى

---

(١) تكمن فى تسمية المسلمين باسم آخر هو «المحمديون» مغالطة من أكبر مغالطات رجال الدين المسيحى بشأن الإسلام والمسلمين إذ يوهمون أتباعهم بأن المسلمين يعبدون «محمدا» بدلا من أن يعبدوا المسيح ، وعبادة «المسيح» فى نظر أولئك المسيحيين هى الحق والصواب أما عبادة المحمديين لمحمد فهى كفر وضلال ، ومن الواضح أن المسلمين لايعبدون «محمدا» ولكن «محمدا» هو رسول الله ﷺ فى حقيقة الأمر . (المترجم) .

اختلقناها للإسلام فى الغرب المسيحى شعرت بالحاجة الملحة إلى تعلُّم اللغة العربية التى لم أكن أعرفها أو أتكلمها ؛ وذلك لكى أستطيع التقدم فى دراسة حقائق هذا الدين الإسلامى الذى أساء الناس فى الغرب المسيحى فهمه إلى حد كبير . ولقد كان هدفى الأول والأهم فى هذا الصدد هو قراءة القرآن ودراسة نصه الأصلى باللغة العربية جملة فى إثر جملة وآية بعد آية لتحليل معناها مع الاستعانة بكتب تفسير القرآن اللازمة لمثل هذه الدراسة التحليلية النقدية . وتناولت من هذا المنطلق القرآن بالدراسة النقدية موجها اهتمامى على نحو خاص إلى الوصف الذى يصف به القرآن كثيرا من الظاهرات الطبيعية natural phenomena فى القرآن . ولقد أذهلتنى دقة وسلامة بعض التفاصيل العلمية الخاصة بهذه الظاهرات الطبيعية كما وردت فى القرآن، وهى تفاصيل يستحيل أن يتم إدراكها وملاحظتها إلا فى النص الأصلى المكتوب باللغة العربية للقرآن ، ولقد أذهلنى على نحو خاص مطابقة هذه التفاصيل القرآنية لبعض الظواهر الطبيعية للحقائق والمفاهيم التى توصل إليها العلم حديثا عن نفس هذه الظواهر الطبيعية ، وهى حقائق ومفاهيم علمية توصلنا إليها فى العصر الحديث فحسب ، لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر نبى الإسلام محمد ﷺ أن يلم بها أو أن تكون لديه عنها أى فكرة على الإطلاق .

ولقد قرأت فى هذا الصدد أيضا مؤلفات كثيرة كتبها بعض الباحثين المسلمين عن الجوانب والاعتبارات العلمية فى نصوص القرآن الكريم . ولقد أمدتنى هذه المؤلفات ببعض عناصر التقويم الهامة فى مجال دراسة الاعتبارات العلمية فى نصوص القرآن ، وهو الشأن الذى لم أجد له أى دراسة فى مؤلفات العلماء فى الغرب على الإطلاق .

وأول ما يثير الانتباه والدهشة عند دراسة الحقائق العلمية فى نصوص القرآن هو كثرة هذه الموضوعات العلمية فى نصوص القرآن ، وهى موضوعات تتعلق بكيفية خلق الله للعالم Creation وتتعلق بعلم الفلك Astronomy وتفسير بعض المسائل المتعلقة بالأرض The Earth التى يعيش عليها سائر مخلوقات الله على الأرض من حيوانات Animals ونباتات Vegetables بالإضافة إلى المسائل المتصلة بالتناسل والتكاثر reproduction وعلى حين نجد فى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى The Bible كثيرا من الأخطاء العلمية الضخمة الفاحشة لا نجد فى نصوص القرآن من الناحية العلمية البحتة أى أخطاء على الإطلاق . ولقد دفعتنى هذه الحقيقة إلى أن أتساءل : لو كان مؤلف نصوص القرآن الكريم مجرد واحد من البشر ولم يوح الله إليه نصوص القرآن الكريم فكيف استطاع هذا الإنسان فى القرن السابع الميلادى أن يكتب مثل هذه الحقائق العلمية الموجودة فى نصوص القرآن وهى لم يتم اكتشافها إلا فى العصر الحديث بعد قرون عديدة من وجود نصوص القرآن ؟ لم يعد فى هذا الصدد مجال لأى شك . القرآن أوحاه الله إلى نبى الإسلام . ونصُّ القرآن الموجود بين أيدى الناس فى أيامنا هذه هو هو ذات النص الذى أنزله الله

إلى نبى الإسلام ليبلغه إلى الناس منذ القرن السابع الميلادى متضمنا حقائق علمية لم يكتشفها البشر إلا فى القرن العشرين الميلادى . (وسنعالج فى الجزء الثالث من الباب التالى تفاصيل هذه المسألة) وفى تقديرى الخاص أنه ليس هنالك أى تعليل لهذه الحقيقة سوى أن نصوص القرآن إنما هى وحى إلهى وليست من إنشاء بشر ، إذ يستحيل أن يتمكن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كان الملك داجوبير Dagobert يحكم فرنسا (فيما بين عام ٦٢٩ وعام ٦٣٩م) من امتلاك ثقافة علمية تسبق الثقافة العلمية فى عصره بما لا يقل عن عشرة قرون ليحيط بالحقائق العلمية التى لم يتم اكتشافها إلا فى القرن العشرين فيما يخص بعض الموضوعات العلمية .

ومن الحقائق الثابتة فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن ، وهى فترة امتدت أكثر من عشرين عاما قبل وبعد عام الهجرة الموافق لعام (٦٢٢م) أن المعارف العلمية كانت فى حالة تخلُّف وركود استمر طوال القرون قبل وبعد الميلاد . ولقد كان عصر الازدهار العلمى الذى نشط فى العالم الإسلامى ازدهارا لاحقاً فى حقيقة الأمر لظهور الإسلام ، لاحقا لتمام نزول كل نصوص القرآن .

إن الجهل بهذه الحقائق الدينية والدنيوية وحده هو الذى حدا ببعض المتعصبين إلى أن يزعموا أنه إذا كان فى القرآن صياغة لبعض الحقائق العلمية المثيرة للدهشة فمرجع ذلك فى نظرهم إلى التقدم العلمى الذى أحرزه العرب واستلهم محمد ما توصل إليه علماء العرب من حقائق علمية وصاغها فى نصوص ما أسماه المسلمون القرآن الكريم . إن أى شخص يمتلك معرفة ضئيلة بتاريخ الإسلام يدرك إدراكا يقينيا أن عصر الازدهار العلمى والثقافى فى العالم العربى فى العصور الوسطى إنما هو لاحق وليس بسابق للوقت الذى كان يعيش فيه محمد ﷺ وينزل الله إليه القرآن وحيا إلهيا لا ريب فيه .

لا مجال – فى حقيقة الأمر – لقيام مثل هذا الادعاء الوهمى الذى يعزو الحقائق العلمية فى القرآن إلى ازدهار العلوم عند العرب فى العصر الوسيط ، إذ كان هذا الازدهار لاحقا وليس سابقا لتمام نزول نصوص القرآن على نبى الإسلام خصوصا عندما نضع فى اعتبارنا أن الحقائق العلمية الموجودة فى نصوص القرآن لم يتم الكشف عنها باعتبار أنها حقائق علمية ثابتة رفيعة المستوى العلمى إلا فى القرن العشرين الميلادى ولم تلق التأييد وتجذب الانتباه والاهتمام إلا فى القرن العشرين الميلادى فى العصر الحديث .

ومن هنا نستطيع أن ندرك السبب فى أن بعض المفسرين لآيات من القرآن الكريم فى العصر الوسيط قد أساءوا الفهم وأخطئوا التفسير بشأن بعض الآيات فى القرآن الكريم التى تضمنت مثل هذه الحقائق العلمية ، إذ لم يكن باستطاعتهم الوقوف على محتواها العلمى الذى لم تكن البشرية قد توصلت إليه فى العصر الذى كان يعيش فيه أولئك المفسرون .

إن ترجمة معانى مثل هذه الآيات من نصوص القرآن الكريم لم يصبح ممكنا إلا بعد العصر الوسيط بكثير من القرون ، أى أنه لم يصبح ممكنا إلا فى العصر الحديث بل فى حقب قريبة العهد من العصر الذى نعيش فيه . وهذا يعنى بطبيعة الحال أن المعارف اللغوية المتبحرة فى استيعاب علوم اللغة لم تعد وحدها كافية لترجمة معانى القرآن أو تفسير آياته ، بل إن صحة الترجمة وصحة التفسير لمعانى آيات القرآن الكريم تتطلب وتستلزم إلماما بالمعارف العلمية حديثة الاكتشاف وشديدة التنوع فى فروع العلوم الحديثة المختلفة أيضا . إن مثل هذه المتطلبات تستلزم نوعا من دوائر المعارف والدراسات الانسيكولوبيدية التى تشتمل على تخصصات علمية شديدة التنوع . وسندرك كلما تقدمنا فى عرض بعض النماذج للحقائق العلمية فى نصوص القرآن الكريم تنوُّعَ المعارف العلمية المطلوبة لفهم بعض آيات القرآن الكريم وما تضمنه من محتوى علمى دقيق .

وبالرغم من كل ذلك نجد أن القرآن الكريم ليس كتابا يهدف إلى دراسة علمية لبعض القوانين العلمية التى تحكم العالم ليكون كتابا من الكتب العلمية البحتة . إن للقرآن هدفا دينيا جوهريا فى المقام الأول . والحقائق العلمية التى تظهر وتوضح آماد القدرة الإلهية هى المناسبات الرئيسية التى تناشد فيها نصوص آيات القرآن الكريم البشر ، كل البشر ، أن يتأملوا فى أعمال الخالق وكيفية الخلق وفقا لحقائق علمية دقيقة وليس خبط عشواء . ويصاحب هذه الدعوة الإلهية لتأمُّل أعمال الخالق وكيفية الخلق إشارات إلى حقائق علمية يمكن للإنسان من خلال الملاحظة الدقيقة أن يدركها ، وإشارات إلى قوانين علمية لم يتم اكتشافها على يد علماء الطبيعة فى شتى التخصصات العلمية إلا بعد قرون عديدة من نزول هذه الآيات ضِمْنَ نصوص القرآن الكريم . وبعض هذه الحقائق العلمية التى تتضمنها نصوص القرآن الكريم سهل ميسور الفهم والإدراك .. وبعضها الآخر يستحيل إدراك دلالته إلا إذا امتلك التقدم العلمى البشرى القدرة على الوصول إلى بعض الحقائق العلمية الحديثة الاكتشاف فى العصر الحديث . ولقد أفضى هذا الاعتبار الأخير إلى أن الناس فى القرون السابقة لم يكونوا يدركون الحقائق العلمية فى بعض الآيات مما كان يفضى فى بعض الأحيان إلى القول بمعان غير صحيحة ، وذلك بسبب عدم كفاية المعرفة المتاحة للناس فيما يتعلق ببعض حقائق العلم التى لم يتم اكتشافها إلا فى العصر الحديث .

وربما بدت الآيات القرآنية المنتقاة فى كتابنا هذا من أجل دراسة جوانبها العلمية محدودة أكثر مما ينبغى فى نظر بعض المسلمين المتصلين بمثل هذه الموضوعات ؛ إذ إننى قد اخترت بالفعل بعض وليس كل الآيات القرآنية المتضمنة لحقائق علمية كنماذج ، وفى مقابل ذلك أستطيع القول : إننى قد أبرزت فيما اخترت من نماذج بعض الجوانب العلمية التى لم تكن ملحوظة لديهم من قبل. وإذا كنت قد قصرت فى استقصاء كل الآيات التى تتضمن بعض الحقائق العلمية فإننى أرجو ألا أكون مستأهلا لسوء الفهم أو القسوة إذ إننى لم أتعمد ذلك. ولقد

اكتشفت أنا أيضا أن بعض التفسيرات العلمية لبعض آيات القرآن لدى بعض العلماء المسلمين غير سديدة يشوبها التهافت وعدم الدراية العلمية التامة . ولقد تقدمت من جانبى بتفسير آخر مخالف لما ذهبوا إليه بروح علمية متحررة تماما وبنية خالصة تتوخى إبراز الحقائق وحدها .

ولقد بحثت أيضا مسألة ما إذا كانت آيات القرآن الكريم تتضمن الإشارة إلى بعض الظاهرات العلمية التى يمكن تصورها وإن لم يكن العلم الحديث قد توصل حتى الآن إلى حسمها . ومن هذه الناحية أعتقد شخصيا أن القرآن يحتوى على إشارات إلى وجود كواكب فى الكون تشبه الأرض . ويلزم فى هذا الصدد ألا ننسى أن كثيرا من العلماء يرون هذا الأمر معقولا إلى حد كبير ويجدون كل الجد فى إيجاد الأدلة والبراهين على صحة هذا الافتراض ، ولا تزال جهودهم فى هذا الصدد مستمرة ، وإن كانت هذه الأدلة والبراهين لم تكتمل حتى الآن . ولقد رأيت من واجبى لفت الأنظار إلى هذه الإشارات مع ذكر التحفظات اللازمة فى هذا الصدد .

ولو كنت قد كتبت دراستى هذه منذ ثلاثين عاما مضت لكنت قد أشرت إلى الإشارات الواردة فى القرآن الكريم عن محاولات الإنسان غزو الفضاء Conquest of space فمنذ ثلاثين سنة تقريبا ، وبعد نجاح محاولات إطلاق الصواريخ الباليستية ballistic missiles أصبح الناس يأملون فى إمكانية أن يتركوا مساكنهم على سطح الأرض ليقيموا لأنفسهم بيوتا فوق سطح الكواكب الأخرى . ومن المعروف أنه توجد آيات فى القرآن الكريم تنبأت بمحاولة البشر تحقيق هذا الحلم ، وأصبحت إشارة آيات فى القرآن الكريم إلى هذا الحاصل منذ حوالى ثلاثين عاما مؤكدة كل التأكيد .

إن المقابلة والمقارنة بين الكتب المقدسة والعلم تتطلب النظر إلى المعلومات التى تتصل بالحقائق العلمية وذلك بالنسبة إلى التوراة والأناجيل والقرآن على حد سواء . ولكى تتم هذه المقارنة فمن الضرورى أن تكون الحقيقة العلمية ذاتها ثابتة تماما وليست محل جدال بأى حال من الأحوال . إن الذين يتذمرون من أن تكون حقائق العلم مقياسا نحتوى الكتب المقدسة فى المسائل التى تعرضت فيها الكتب المقدسة لبعض موضوعات العلم خصوصا فيما يتعلق بشأن التوراة والأناجيل ، إذ تتحمل هذه الكتب خسائر فادحة عن دراسة مدى مصداقيتها بمقياس حقائق العلم ، بعكس القرآن الكريم الذى لم تلحقه أى خسائر عند تطبيق هذا المعيار .

يزعمون إن العلم متغير مع الزمن وما نقبله من وجهة النظر العلمية قد نرفضه غدًا .

إن هذا الرأى الذى يحاول الانفلات من إمكانية اتخاذ المقياس العلمى كمعيار لمصداقية الكتب المقدسة يقتضى منا الإشارة إلى ضرورة التفرقة بين النظرية العلمية الصحيحة المعترف بها لوجود أدلة علمية تثبت صحتها وبين الافتراض موضوع الملاحظة الذى لاتزال دراسته قائمة على قدم وساق . إن هذا الافتراض النظرى يحاول تفسير وشرح وإيضاح ظاهرة أو مجموعة من الظاهرات

العسيرة على الفهم ، وتحتاج إلى تفسير وشرح وإيضاح ، هذه الافتراضات النظرية قابلة للتغيير فى كثير من الأحوال ، وهى قابلة للتعديل أو لإحلال افتراضات أخرى محلها عندما تظهر افتراضات أقوى وأصح وأنسب وأقرب إلى التفسير ، أما النظريات والحقائق الثابتة[1] فهى غير قابلة للتعديل . يمكن إدخال تفسير جديد لظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الإدلاء بشرح آخر أظهر وضوحا من شرح سابق أما جوهر الحقيقة العلمية فهو ثابت لتستحق أن توصف بأنها حقيقة علمية . لا رجعة ولا نكوص البتة فى حقيقة أن الأرض تدور حول الشمس مثلا ولا فى حقيقة أن القمر يدور حول الأرض ، وربما أمكن فى المستقبل تحديد المدارات بشكل أدق وأحسن .

إن إدراكى للطابع المتغير للنظريات العلمية التى لم ترق إلى مرتبة الحقائق العلمية هو الذى جعلنى – على سبيل المثال لا الحصر – أستبعد الاستدلال بآية قرآنية معينة ظن أحد علماء الفيزياء المسلمين أنها تدل على «مفهوم ما هو ضد المادة The concept of anti - matter" وهو «مفهوم» لا يزال فى الوقت الراهن محل جدال بين علماء الفيزياء . وعلى النقيض من ذلك ، يمكن لى عن حق واقتناع أن أقبل كل القبول ما تؤكده آية قرآنية تؤكد الأصل المائى للحياة ، وهو افتراض لن نستطيع التحقق العلمى منه ، ولكن يرجح صحة هذا الافتراض كثير من الدراسات العلمية التى تشهد بصحة هذا الافتراض الذى تضمنته آية من آيات القرآن الكريم . أما الأمور التى يمكن أن تخضع للملاحظة العلمية الدقيقة مثل تطوُّر الجنين البشرى فمن الممكن تماما التحقق من صحة المراحل التى تصفها آيات من القرآن الكريم لاكتشاف مدى مطابقته لحقائق العلوم الوضعية فى مثل هذا المجال لنكتشف الاتفاق التام بين محتوى الآيات القرآنية وبين حقائق العلوم الوضعية .

ولتكتمل الصورة لابد من الإشارة إلى مقارنات أخرى أجريناها بين معطيات العلوم الوضعية الحديثة وبين نصوص التوراة والأناجيل المتصلة ببعض معطيات العلوم الوضعية الحديثة . وهنالك أيضا المقارنات بين معطيات العلوم الوضعية وبين آيات من القرآن الكريم المتصلة بهذه المعطيات . وهنالك ثالثا المقارنات بين معطيات العلوم الوضعية وبين الأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بهذه المعطيات ، والأحاديث النبوية الشريفة مستقلة تماما عن القرآن الكريم .

وسيجد القارئ الكريم أمثلة توضيحية فى الجزء المتبقى من هذا الكتاب حرصنا فيه على المقارنة بين رواية التوراة ورواية القرآن الكريم فيما يتعلق بشأن الحدث الواحد ، وقد خضعت رواية التوراة ورواية القرآن الكريم للنقد العلمى على قدم المساواة بموضوعية دون أى تحيز أو أفكار مسبقة . وعلى سبيل المثال لا الحصر عرضنا لمسألة خلق العالم Creation وعرضنا كذلك لمسألة الطوفان

(١) كروية الأرض مثلا حقيقة علمية ثابتة . دوران الأرض حول محورها نظرية علمية ثابتة . دوران الأرض حول الشمس حقيقة علمية ثابتة . وهكذا ومحاولة بعض رجال الدين التشكيك فى حقائق العلوم الوضعية الثابتة إنما هو محاولة فاشلة لتبرير تناقض بعض المزاعم الدينية الخاطئة مع حقيقة من حقائق العلم الثابتة . (المترجم) .

الموضوعين ووجود اتفاق واتساق بين العلم ونصوص القرآن الكريم فى هذين الموضوعين . ومن ذلك تتضح للقارئ الكريم الأسباب التى تجعل أحد النصّين مقبولا على أسس علمية فى العصر الحديث على حين تجعل النص الآخر غير مقبول .

هذه الملاحظة الحاسمة ملاحظة ذات أهمية من الدرجة الأولى فى دحض ما يزعمه اليهود والمسيحيون والملحدون ، إذ يجمعون على الزعم دون أى دليل أو برهان بأن نبى الإسلام محمدا ﷺ قد كتب أو استكتب القرآن بمجرد تقليد ومحاكاة للتوراة[1] ويزعم بعضهم أنه توجد فى القرآن أقوال هى مجرد تكرار لبعض النصوص التى وردت فى التوراة والأناجيل . إن مثل هذا الموقف من نصوص القرآن الكريم لا يقل خطأ عن أن يقول قائل إن المسيح قد كتب أو استكتب الأناجيل بمجرد تقليد ومحاكاة نصوص التوراة أثناء قيامه بالدعوة إلى الله . ولقد سبق أن أشرنا بالتفصيل إلى أن إنجيل متّى إنما هو استمرارية للعهد القديم فكيف يصح لأى مفسر أن ينزع عن المسيح صفته كنبى من المرسلين لذلك السبب؟ ولكن معظم علماء الدين المسيحى فى الغرب يحكمون على نبى الإسلام محمد ﷺ هذا الحكم ويزعمون أنه لم يفعل شيئا أكثر من نقل التوراة و الأناجيل بصورة مشوهة محرفة ليزعم أن كتابا سماويا أوحاه الله إليه . إن هذا حكم بدون محاكمة أو بحث أو تمحيص ، وهو حكم لا يضع فى اعتباره إطلاقا مع الاختلافات الجوهرية الهامة بين نصوص القرآن الكريم ونصوص التوراة والأناجيل فى مواضع كثيرة هامة مع ملازمة الصواب لمحتوى نصوص القرآن ومجانبة نصوص التوراة والأناجيل للصواب فى هذه المواضع المهمة . وسندرس فيما يلى مثالين يبرزان هذه الحقيقة عندما ندرس ونقارن النصوص المتعلقة بشأن خلق العالم The Greation والطوفان The Flood .

إن الأحاديث النبوية الشريفة بالنسبة لنبى الإسلام تشبه الأناجيل بالنسبة للمسيح . إنها أخبار وأفعال وأقوال النبى ﷺ، وإن لم يكن كتابها شهود عيان إذ إن الكتب المعتمدة للأحاديث الصحيحة لاحقة فى الظهور بشكل جلى للعصر الذى كان يعيش فيه نبى الإسلام ﷺ. وهى لا تؤلف ولا يزعم لها أحد من المسلمين أنها وحى إلهى مكتوب.

إن الأحاديث النبوية الشريفة ليست هى أقوال الله ولكنها تحكى وتروى وتقص أقوال النبى ﷺ، لم يوحها الله إليه ، ولكن أنشأها ولم يزعم أنها وحى إلهى مثل نصوص القرآن الكريم ، وفى كتب الحديث النبوى الشريف المتداولة بين المسلمين دعاوى توجد بها أخطاء[1] من وجهة

(١) يشير المؤلف إلى أن اتساق معطيات القرآن الكريم مع معطيات العلوم الحديثة مع وجود تناقض بين معطيات التوراة والأناجيل مع معطيات العلوم الحديثة يدحض بشكل حاسم اتهام القرآن الكريم بأنه مجرد تقليد أو محاكاة من جانب نبى الإسلام للتوراة والأناجيل أما وجود بعض التشابه فهو لا يدل إطلاقا على التقليد والاقتباس ، فلو كانت التوراة مثلا تقول : إن الله هو الذى خلق السموات والأرض ، فهل يقول القرآن بعكس ذلك لمجرد أن ينفى مظنة التقليد والاقتباس ؟ بالطبع لا . لن ينكر ويعارض الله فى القرآن الكريم الحقائق التى أوحاها لأنبيائه السابقين . (المترجم) .

النظر العلمية وخاصة تلك الأحاديث التى تتعلق بالوصفات الطبية ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يجزم بصحة نسبة هذه الأحاديث التى يوجد بها أخطاء – إن وجدت أخطاء – إلى النبى ﷺ ؟ وليس لدينا أى استعداد للخوض فى مثل هذه المشاكل ذات الصبغة الدينية إذ نحاول تجنب الخوض فى هذه المشاكل المتعلقة بمثل هذه الأحاديث . هنالك أحاديث مشكوك فى صحة نسبتها إلى النبى ﷺ . والعلماء المسلمون أنفسهم يناقشونها . ولو تصادف أن عرضنا لمحتوى بعض هذه الأحاديث فى هذا الكتاب فإن عرضنا لها يهدف إلى إبراز الفرق بينها وبين نصوص القرآن الكريم ، حيث إن القرآن الكريم لا يحتوى أى نص من نصوصه على أى خطأ أو فرضية علمية نجد أنها غير مقبولة من وجهة النظر العلمية ، وسنرى أن هذا الفرق مذهل حقاً .

وهذه الملاحظة الأخيرة تدحض تماما ادعاء أولئك الذين يزعمون أن نبى الإسلام محمدا ﷺ قد قام بتأليف القرآن من تلقاء نفسه ولم يوح الله إليه شيئا . كيف يمكن لإنسان – كان فى بداية أمره أميا – ثم أصبح على الرغم من ذلك أعظم شخصيات الأدب العربى على الإطلاق ؟ وكيف استطاع أن يصرح فى نصوص القرآن الكريم بحقائق ذان طابع علمى لم يكن فى مقدور أى إنسان فى ذلك العصر الذى عاش فيه محمد ﷺ أن يعلمها ويحيط بها خبرا ، وذلك دون أن يوجد فى كل الحقائق العلمية التى ذكرها أى خطأ ولو كان خطأ ضئيلا من وجهة النظر العلمية المحضة ؟

إن مثل هذين الاعتبارين : أمية محمد ﷺ ، ووجود مضمون علمى فى آيات القرآن الكريم لم تكن الإحاطة به متاحة فى العصر الذى عاش فيه محمد ﷺ ، تقودان بالضرورة وتفضيان إلى الحكم بعدم معقولية أن إنسانا كان يعيش فى القرن السابع بعد الميلاد استطاع أن يؤلف من تلقاء نفسه كتابا هو القرآن الكريم بكل ما فيه من بلاغة لغوية ، وبكل ما يتضمنه من حقائق علمية لم يحط بها البشر خبراً ولم تنتم إلى الأفكار العلمية التى كانت متاحة فى عصره، ولم تصل إليها مدارك البشر إلا بعد قرون عديدة عندما تمكنت البشرية من اكتشاف هذه الحقائق العلمية التى تضمنتها بعض آيات القرآن الكريم، وتم التحقق بالمناهج العلمية من صحة هذه الحقائق العلمية . وفى رأيى أنه يستحيل أى تفسير وضعى للقرآن ، ولا صحة إطلاقا لافتراض أن محتوى القرآن الكريم ليس وحيا إلهيا أوحاه الله إلى نبى الإسلام محمد ﷺ .

(١) لا أعتقد كمسلم ولا يعتقد أى مسلم باحتمال وجود خطأ فى حديث نبوى شريف حتى ولو كان متعلقا بالوصفات الطبية . وربما كان الخطأ الذى يشير إليه المؤلف فى هذه النوعية من الأحاديث موجودا فى بعض الأحاديث الموضوعة أو المدسوسة ، ويمكن القول بكل ثقة واطمئنان أنه إما أن يكون الحديث النبوى صحيحا لا يتناقض مع الحقيقة وإما يكون موضوعا مدسوسا . (المترجم) .

مصداقية القرآن الكريم
وكيفيّة تدوينه
Authenticity of the Qur'an &
How it Came to be written

بفضل المصداقية التامة – التى لا تجادل – المتوافرة لنصوص القرآن الكريم تحظى نصوص القرآن الكريم بمنزلة متفردة unique place بين الكتب السماوية المنزلة من الله إلى البشر ، ولا يتساوى مع القرآن الكريم فى هذه المنزلة كتاب آخر بما فى ذلك العهد القديم والعهد الجديد . ولقد سبق لنا أن عرضنا فى الجزأين السابقين من هذا الكتاب للتعديلات التى أدخلها البشر على نصوص العهد القديم وعلى نصوص الأناجيل قبل أن تصل إلينا نصوص كل منهما بحالتها الراهنة الموجودة بين أيدينا اليوم . وليس الحال فى هذا الصدد بالنسبة إلى نصوص القرآن الكريم إذ لم تطرأ أى تعديلات ولم يطرأ أى تغيير على نصوصه من جانب البشر وذلك لسبب بسيط وهو أن نصوص القرآن الكريم كلها قد تم بالفعل تدوينها كتابيا فى حياة النبى ﷺ أولا بأول[١] وسنرى فيما يلى كيف تمت بدقة عملية تدوين نصوص القرآن الكريم فى حياة النبى ﷺ .

وفى هذا الصدد نجد أن الفروق الموجودة بين القرآن الكريم والكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى لا ترجع بأى حال من الأحوال إلى اعتبارات تاريخية فحسب . وهذه الاعتبارات التاريخية هى التى يتذرع بها بعض المدافعين عن مصداقية[٢] نصوص العهد القديم ونصوص العهد الجديد دون اهتمام بما أفضت إليه هذه الظروف التاريخية ذاتها من النقص فى مصداقية

---

(١) لا ريب أن ما ذكره المؤلف من تدوين نصوص القرآن الكريم كلها أولا بأول فى حياة النبى ﷺ، وهو ما تفتقر إليه نصوص العهد القديم والعهد الجديد يعتبر أهم ركائز مصداقية النصوص . ويضاف إلى ذلك اعتبارات أخرى أهمها أن القرآن الكريم قد أنزلت نصوصه وتم تدوينها باللغة العربية ، وقد شاءت إرادة الله وحكمته أن تظل اللغة العربية التى أنزل الله بها القرآن لغة حية، ولاجدال فى أن اللغة العربية لا تزال حتى اليوم من اللغات الحية . وعلى حين ماتت اللغة التى كتبت بها نصوص كثيرة من العهد القديم أو العهد الجديد لا تزال اللغة العربية لغة حية ، ومن المدهش أننا نجد اليوم معظم نصوص العهد الجديد مثلا مكتوبة باللغة اليونانية «القديمة». هذا ، ولا تعتبر ترجمة معانى القرآن الكريم قرآنا من الناحية الشرعية الإسلامية ولا يجوز التعبد بها فى الصلاة مثلا وليس هذا هو الشأن فى التوراة والأناجيل . (المترجم) .

(٢) يقولون :ماذا نستطيع نحن الآن أن نفعل ؟ لقد ماتت اللغات التى وجدت بها النصوص الأصلية ولانجد إلا ترجمة لها إلى لغة أخرى ماتت بدورها . وكانت الكتابة نادرة الاستخدام فلم يتسن تدوين النصوص الأصلية كتابيا فى وقت بدء ظهورها ، فاعتمد الناس على الروايات الشفهية ، ولم تكن علامات الترقيم ولا الصفر الحسابى قد تم للبشر اكتشاف أى منها ! ماهو ذنبنا فى نقص مصداقية وتناقض بعض النصوص ؟ لا ذنب لهم ، ولا ذنب للناس عندما يرفضون قبول هذه النصوص باعتبار أنها كلام الله . وإنها لحكمة إلهية بالغة أن لم تتعرض نصوص القرآن الكريم لمثل هذه المثالب فى مصداقية الكلام المنسوب إلى الله .(المترجم) .

نصوص العهد القديم والعهد الجديد . ودون أى اهتمام من جانب من يرفضون قبول نصوص القرآن بأن يفحصوا ويدرسوا ظروف وكيفية تدوين نصوص القرآن الكريم على النبى ﷺ يزعمون أن النص الذى يرجع إلى القرن السابع الميلادى وهو نصوص القرآن الكريم يتمتع بفرص أكبر فى الوصول إلينا دون تحريف بالمقارنة مع نصوص أخرى وصلت إلينا منذ خمسة عشر قرنا من الزمان، ومهما تكن هذه الملاحظة صحيحة فهى لا تفى ولا تكفى ولا تصلح كعذر بل هى تفى وتكفى وتصلح كدليل على كثرة مواضع وجود تناقضات وتعديلات طرأت على النصوص اليهودية المسيحية عبر السنين ، وهى تؤكد أيضا أن النص القرآنى لم يتعرض لأى تعديل أو تغيير أو تحريف من يوم أن أنزله الله على الرسول ﷺ حتى يومنا هذا .

وفيما يتعلق بنصوص العهد القديم عرفنا أن تعدد الصياغة لبعض أسفار التوراة على فترات متباعدة قبل العصر المسيحى قد أفضى إلى وجود تناقض وأخطاء وتعارض بين النصوص فى التوراة. وفيما يتعلق بشأن الأناجيل وجدنا أنه لا يستطيع أحد أن يجزم ما إذا كانت نصوص الأناجيل رواية دقيقة صحيحة لأفعال وأقوال المسيح كما كانت فى الواقع أو فى الحقيقة ، كما أننا نلمس افتقار هذه النصوص إلى المعقولية والصحة فى مواضع هامة كثيرة سبق أن أشرنا إلى أمثلة منها فيما سبق بيانه فى هذا الكتاب . ومن الواضح أن معظم من كتبوا نصوص العهد الجديد لم يكونوا بالفعل شهود عيان بالمعنى الدقيق لتعبير شهود العيان .

ومن الضرورى أيضا الإشارة إلى ذلك التمييز الواضح والفصل الدقيق بين نصوص القرآن الكريم وبين الأحاديث النبوية الشريفة فى التراث الإسلامى وهو ما تفتقر إليه نصوص العهد القديم والعهد الجديد على حد سواء . تم تدوين نصوص القرآن الكريم كتابة فى حياة النبى ﷺ أما نصوص الأحاديث فهى لم يتم تدوينها كتابة فى حياة النبى ﷺ بل شرع المسلمون فى تدوينها كتابة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى وتمت مراجعتها وتم تخليصها من الشوائب التى علقت بها بعد قرون من انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، ودرجة صحة هذه الأحاديث النبوية الشريفة المنسوبة إلى النبى ﷺ – مثل الأناجيل – متفاوتة متنوعة الدرجة من حيث المصداقية وصحة النسبة إلى قائلها بالضبط كما صدرت عنه ، وكما أنه لم يثبت أن أى إنجيل من الأناجيل كلها قد تمت كتابته فى حياة المسيح فكذلك الشأن بالنسبة إلى الأحاديث النبوية لم يثبت أن أى حديث نبوى شريف قد تمت كتابته عن النبى ﷺ إبان حياته .

ويختلف الشأن فى هذا الصدد بالنسبة إلى تدوين القرآن الكريم كتابة . فور تنزيل نصوص القرآن الكريم ، وأولا بأول ، كان النبى ﷺ وكان المسلمون حوله يتلونه ويحفظونه فى ذاكرتهم عن ظهر قلب وكان الكتبة من صحابته يسجلونه كتابيا . وهكذا كانت نصوص القرآن الكريم تتمتع وتمتاز بهذين العنصرين دائما من المصداقية وتوافرها على امتداد الزمان وهما الحفظ فى

الذاكرة والحفظ كتابة لنصوص القرآن الكريم فى حياة النبى ﷺ وهما العنصران اللذان تفتقر [1] إليهما نصوص الأناجيل . وفى عصر لا يستطيع فيه كل إنسان أن يكتب وإن كان يستطيع أن يحفظ فى ذاكرته عن ظهر قلب يصبح لاعتبار الحفظ فى الذاكرة عن [2] ظهر قلب فائدة عظمى عندما تكون ضمانة لعدم التغيير فى كتابة النص بعد اكتمال إنزال الله سبحانه وتعالى لنصوص القرآن الكريم .

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على نبى الإسلام ﷺ بواسطة الملاك جبريل Arch-angel Gabriel عليه السلام . ولقد استغرق نزول القرآن على هذا النحو أكثر من عشرين سنة فى حياة النبى ﷺ بدءا من الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق وهى السورة السادسة والتسعون من القرآن الكريم [3] ، وبعد هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق توقف الوحى الإلهى لمدة حوالى ثلاثة أعوام عن النزول ثم توالى نزول نصوص القرآن بعد ذلك على امتداد عشرين سنة حتى انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٢ ميلادية . أى أن نزول نصوص القرآن الكريم قد استمر طيلة عشرة أعوام قبل الهجرة وعشرة أعوام بعد الهجرة .

ولقد كان بدء الوحى الإلهى للقرآن الكريم هو هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق وهى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [**العلق** : ١ - ٥] .

ويشير الأستاذ حميد لله فى مقدمة ترجمته الفرنسية لمعانى القرآن الكريم إلى أن آية من أوائل الآيات القرآنية التى أنزلها الله على سيدنا محمد ﷺ قد تضمنت اعتباراً بالغ الأهمية وهو امتداح الله للقلم وإشادته بالقلم باعتبار أن القلم هو وسيلة الإنسان فى تدوين معارفه والاحتفاظ بها لإفادة الأجيال الإنسانية فى تتابعها على مر الزمان وكرّ السنين وتوالى القرون . ومن هنا يمكن لنا أن نفهم وأن نقدّر قيمة اهتمام النبى ﷺ وإصراره على أن يحفظ القرآن مكتوباً .

---

(١) لم يؤثر ولم يدع أى مدع أن نصوص التوراة والأناجيل كان الناس يحفظونها عن ظهر قلب فى الذاكرة كما هو الشأن بالنسبة إلى نصوص القرآن الكريم . ولم يؤثر ولم يدع أى مدع أن نصوص التوراة والإنجيل كان الناس يكتبونها فى حياة سيدنا موسى أو سيدنا عيسى كما هو الشأن بالنسبة إلى نصوص القرآن الكريم (المترجم) .

(٢) من الثابت أن التوراة لم تصل إلى الناس منجمة على أجزاء . ومن الثابت أن أى إنجيل من الأناجيل لم يصل إلى الناس منجما على أجزاء ، ومن الثابت أن نصوص القرآن الكريم قد أنزلها الله منجمة على أجزاء صغيرة على امتداد ثلاث وعشرين سنة فى حياة النبى ﷺ . وإنزال نصوص القرآن الكريم منجمة على هذا النحو جعل فى استطاعة المسلمين الأوائل فى حياة النبى ﷺ أن يحفظوا نصوص القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو اعتبار اختص به الله سبحانه وتعالى نصوص القرآن الكريم وحدها كوسيلة هامة من وسائل حفظه للقرآن الكريم . (المترجم) .

(٣) عجيب شأن هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق وهى أول ما أنزله الله من القرآن الكريم وفقا لإجماع الآراء فى هذا الصدد . ولو صحت نسبة هذه الآيات إلى الله سبحانه وتعالى ـ وهى صحيحة ، وبدل كل شىء على صحتها - لصحت نسبة القرآن كله إلى الله سبحانه وتعالى ، ومن العجيب المدهش البالغ الدلالة فى هذا الصدد أن النبى ﷺ ظل طيلة ثلاث سنوات هى سنى فتور الوحى لا يزعم أنه قد أوحي الله إليه شيئا من القرآن غير هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، ولو كان القرآن من إنشاء محمد ﷺ وليس من عند الله لزعم توالى إنزال كلام الله إليه فى غضون أعوام فترة فتور الوحى عنه وهو مالم يحدث . انظر - لمزيد من الإيضاح - كتابنا المناظرة الأولى - ص٢٣-٤٠ - ط مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة . (المترجم) .

لدينا نصوص صريحة تثبت أن نصوص القرآن الكريم التى أنزلها الله على محمد ﷺ قبل مغادرته مكة إلى المدينة (قبل الهجرة) كانت مدونة كتابيا . وسنرى أن آيات القرآن الكريم نفسها تدل على ذلك وتقرره صراحة وبكل حسم ووضوح . ومن المعروف أن محمدا ﷺ وكل أتباعه من المسلمين الأوائل كانوا قد اعتادوا تلاوة وترديد وتكرار النص القرآنى الذى أنزله الله إليه ومن غير المعقول أن يتضمن القرآن أمورا لا تتفق مع الواقع الذى يعيشه الناس المعاصرون[1] ولا يستطيع أحد تغيير حرف أو كلمة فى النص القرآنى فى وجود النبى ﷺ وفى وجود النص مكتوبا بأيدى المسلمين الأوائل وهو ما تفتقر إليه نصوص التوراة والأناجيل التى لم يتم تدوينها وكتابتها فى عهد من تلقاها وحيا من الله مما أتاح الفرصة لمن كتبوا نصوص التوراة والأناجيل أن يغيروا فى النصوص وأن يبدلوا دون حسيب أو رقيب . وهناك نصوص قرآنية فى أربع سُوَر من القرآن الكريم تشير إلى تدوين ما أنزله الله من القرآن الكريم كتابيا قبل أن يهاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢م وهى سورة عبس الآيات ١١-١٦ حيث يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [**عبس**: ١١ - ١٦] . ويذكر لنا «**يوسف على**» فى مقدمة ترجمته لمعانى القرآن الكريم عام ١٩٣٤م أنه كانت توجد ساعة تنزيل سورة عبس اثنان وأربعون أو خمس وأربعون سورة أخرى من سُوَر القرآن الكريم بأيدى المسلمين فى مكة (من مجموع كُلّى قدره مائة وأربع عشرة سورة) .

ونجد أيضا فى سورة البروج قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ [**البروج**: ٢١، ٢٢] .

ونقرأ أيضا فى سورة الواقعة قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [**الواقعة**: ٧٧ - ٨٠]

ونقرأ أيضا فى سورة الفرقان قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [**الفرقان**: ٥] والمقصود هنا هو الإشارة إلى اتهام أعداء النبى صلى ﷺ له كذبا وافتراء وإشاعتهم عنه أن أساطير الأولين كانت تملى عليه ، وأنه بدوره اكتتبها (وكلمة «اكتتبها» نفسها مثار جدل ، ويمكن أن تعنى أنه كان يكتب بنفسه أو يستكتب غيره ولكن ينبغى أن نتذكر أن محمدا ﷺ كان أميا لا يكتب ولا يقرأ) . وعلى كل حال ، وسواء كان يكتب ، أو يجعل غيره يكتب فالثابت وهو الأمر الذى يعنينا فى هذا المقام وهو أن تسجيل وتدوين آيات القرآن الكريم قد تم فى حياة النبى ﷺ وقد نوّه بهذه الحقيقة كل الناس بما فى ذلك أعداء سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) يريد المؤلف أن يشير إلى أن تداول تناول البشر لنصوص القرآن الكريم كتابيا وشفهيا كان يتم تداوله فى حياة النبى ﷺ ولا يعقل أن يتم تحريفه أو تغييره فى حياة النبى كما حدث لنصوص التوراة والأناجيل . (المترجم) .

هذا فيما يتعلق بالمرحلة المكية ، وهنالك أيضا آية من آيات القرآن الكريم نزلت بعد الهجرة فى المرحلة المدنية تشير إلى تدوين نصوص القرآن الكريم كتابة فى حياة النبى فى سورة «البينة» إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ٢، ٣] .

هكذا يخبرنا القرآن الكريم نفسه بحقيقة تدوين نصوص القرآن الكريم كتابةً فى حياة النبى ﷺ ومن المعلوم أنه كان يصاحب النبى ﷺ كَتَبَةٌ عديدون معروفون بالاسم وأشهرهم زيد بن ثابت المشهور الذى خلدت كتاباته لنصوص القرآن الكريم فى حياة النبى ﷺ اسمه فى سجل تاريخ الإسلام وتدوين نصوص القرآن الكريم كتابيًا .

ويصف الأستاذ **حميد الله** وصفا دقيقا فى مقدمة ترجمته لمعانى القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية التى نشرها عام ١٩٧١م الظروف التى تم فيها تسجيل تدوين نصوص القرآن الكريم كتابيًا قبل وفاة النبى ﷺ بقوله :

«تُجْمِعُ المصادرُ كلها على أن النبى ﷺ كان يدعو واحدا من صحابته الذين يُجيدون القراءة والكتابة كلما أوحى الله إليه جزءا من آيات القرآن الكريم يمليه النبى ﷺ ليكتبه ، ويحدد النبى فى الوقت نفسه مكان هذا القدر الجديد من النص القرآنى الكريم بالنسبة لمجموع ما أنزله الله إليه من قبل . وتؤكد الروايات أن النبى ﷺ كان يطلب من كاتبه بعد الإملاء والفراغ من الكتابة أن يقرأ له ما كتب حتى يتأكد له صواب مطابقة الكتابة للنص مع ما أوحاه الله إليه ... وهناك رواية مشهورة تؤكد أن النبى ﷺ كان يتلو بنفسه أمام جبريل فى رمضان من كل عام القرآن الذى أنزله الله عليه إلى حينذاك ، وأن جبريل عليه السلام قد استقرأ النبى ﷺ القرآن مرتين فى شهر رمضان السابق على انتقاله إلى الرفيق الأعلى . ومن المعلوم أيضا أن المسلمين فى عصر النبى ﷺ قد اعتادوا السهر فى شهر رمضان من كل عام بالذات يتلون أو يستمعون لتلاوة القرآن كله فى صلاة التراويح المعروفة فى شهر رمضان . وتضيف مصادر موثوق بها أيضا أن زيد بن ثابت أشهر كُتَّاب الوحى الإلهى فى القرآن الكريم كان حاضرا وشاهدا ومشاركا آخر تجميع لكامل نصوص القرآن كما تؤكد مصادر موثوق بها أن أفرادا آخرين ممّن أسهموا فى كتابة نصوص القرآن الكريم فى حياة النبى ﷺ قد أسهموا وشاركوا فى تجميع كامل نصوص القرآن الكريم» .

ولقد تم استخدام المسلمين لأشياء متنوعة لإتمام أول تدوين لنصوص القرآن الكريم مثل الرق والجلد والألواح الخشبية والمستعرض من ألواح عظام البعير وألواح الصلصال الطرية التى تجف بعد الكتابة عليها ، أى أنهم استخدموا كل ما يصلح للكتابة فى عصرهم.

ولقد كان محمد ﷺ قد أوصى المسلمين فى الوقت ذاته بحفظ نصوص القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ولقد أطاعه دون ريب كثير من المسلمين فى حياته وبعد مماته وحتى اليوم . وفى كل

ركعة من ركعات كل صلاة يتلو المسلم شيئا من نصوص القرآن الكريم . وهكذا ظهر الحفاظ الذين كانوا يحفظون نصوص القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وكانوا ينشرون هذه النصوص ويساعدون الصغار والكبار من المسلمين فى حفظها عن ظهر قلب . ولقد اتضحت فيما بعد فائدة وجدوى هذا المنهج المزدوج الذى يعتمد على التدوين الكتابى والحفظ فى الذاكرة حفظا تاما عن ظهر قلب مما كفل لنصوص القرآن ثباتا منقطع النظير لا يضارعه ولا يدانيه فى هذا الصدد من حيث تمام المصداقية والثبات والبعد بل استحالة التغيير والتبديل والتحريف فى نصوصه أية نصوص أخرى فى التوراة والأناجيل .

وبعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى بقليل من الوقت وبالتحديد فى عام ٦٣٢م طلب أول خليفة من الخلفاء الراشدين وهو أبو بكر الصديق إلى زيد بن ثابت أول كاتب للنبى ﷺ وأكثر كتاب الوحى إسهاما فى كتابته أن يجمع ويعد نسخة كاملة من نص القرآن الكريم ففعل ذلك ، وقام بهذه المهمة الجليلة خير قيام ، وشاركه آخرون ممن يعتد بإسهامهم فى إتمام هذه المهمة الجليلة . ثم قام زيد بن ثابت اتباعا لمشورة سيدنا عمر بن الخطاب – ولم يكن قد أصبح ثانى الخلفاء الراشدين بعد – قام زيد بن ثابت باستشارة كل أولئك الذين كان بحوزتهم نصوص مكتوبة من القرآن الكريم فى حياة النبى ﷺ للمراجعة والمطابقة وتمام التأكد من صحة النصوص التى تم جمعها فى نسخة واحدة تحتوى على كامل نصوص القرآن الكريم ، وبالإضافة إلى ذلك تمت مراجعة كل ذلك وفقا لشهادة ومراجعة الأفراد المشهود لهم بجودة حفظ نصوص القرآن الكريم اعتمادا على الذاكرة ، وكل ذلك لتلافى أى خطأ فى تسجيل وتدوين النص الكامل لآيات القرآن الكريم كتابيًا . وهكذا أمكن بالفعل الحصول على نسخة صحيحة لا ريب ولا شك فى مصداقيتها التامة لكل نصوص القرآن الكريم .

وتجمع المصادر الموثوق بها أن سيدنا عمر قد اجتهد أن تكون نسخة واحدة من كامل نصوص القرآن الكريم هى وحدها الموجودة فى عالم المسلمين حتى لا يحاول أحد عمل نسخ أخرى تعوزها الدقة التى روعيت فى جمع المصحف بواسطة زيد بن ثابت ومعاونيه فى عهد أبى بكر الصديق – رضى الله عنهما – وتجمع المصادر الموثوق بها على أن سيدنا عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– قد استودع هذه النسخة الوحيدة المعتمدة لدى ابنته حفصة التى كانت زوجة لرسول الله ﷺ وهى – رضى الله عنها – من أمهات المؤمنين !

وقام ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان – رضى الله عنه – الذى تولى الخلافه فيما بين عامى ٦٤٤م – ٦٥٥م بمراجعة نصوص القرآن الكريم بمعرفة لجنة من أعلم الخبراء بنصوص القرآن الكريم كان من نتيجة عملها ما يعرف بالمصحف العثمانى المنسوب إليه . ولقد أقرت هذه اللجنة التى أمر سيدنا عثمان بتشكيلها صحة نصوص المصحف الذى تم جمعه فى عهد أول

الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق ، وأودعها ثانى الخلفاء الراشدين عند ابنته حفصة أم المؤمنين مع التوصية ألا يحاول أحد عمل نسخ أخرى قد لا تتوافر لها الدقة اللازمة . وبعد عمل المراجعات اللازمة وبعد تمام التأكد من صحة نصوص القرآن الكريم من خلال عمل لجنة تم تشكيلها على أرفع مستوى من كتاب القرآن الكرام وحفّاظه . وبعد مطابقة كافة الشهادات للتحقق من صحة النص القرآنى ، عمد سيدنا عثمان إلى إرسال نسخة من نصوص القرآن المعتمدة إلى كل مصر من أمصار المسلمين الكبرى المعروفة . وذلك بعد التأكد من صحة النص القرآنى ومكانه فى كل سورة، وضبط ألفاظه لتكون نصوص الآيات تتلى كما كانت تتلى فى وقت نزولها على نبى الإسلام ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاما . وهكذا أمكن الوصول إلى نص تتم تلاوته اليوم فى ليالى شهر رمضان كل عام كما كان يتلى فى حياة النبى ﷺ من خلال التحفظات التى سبق أن أشرنا إليها .

وربما عَنَّ لسائل أن يسأل : وما هو السبب فى كل هذه التحفظات والاحتياطات التى توخاها المسلمون الأوائل فى تجميع نصوص القرآن الكريم فى مصحف واحد منذ خلافة أبى بكر الصديق إلى خلافة عثمان بن عفان ؟ والسبب فى ذلك واضح وبسيط وقوى للغاية : لقد انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين شعوب لم تكن تتحدث اللغة العربية بل كانت لهذه الشعوب التى انتشر بها الإسلام لغات أخرى ، وكان من الضرورى بالنسبة للمسلمين أن يتخذوا كل الاحتياطات الضرورية اللازمة لضمان انتشار النص العربى للقرآن الكريم فى نقائه العربى الأصيل . ولقد اتخذوا بالفعل كل الضمانات الضرورية اللازمة لتحقيق هذا الهدف ، ولقد تم إنجاز هذا الهدف الكبير فى عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ولقد أرسل سيدنا عثمان بن عفان نسخا من هذا المصحف إلى عواصم مراكز الإمبراطورية الإسلامية ، وهكذا كما يقول الأستاذ حميد الله ، توجد اليوم فى طشقند واستامبول نسخ من النص الكامل من القرآن الكريم وفقا لنسخة مصحف عثمان . ولو نحينا جانبا التغيير فى شكل كتابة الحروف نجد أن أقدم وثائق نصوص القرآن الكريم وأحدثها تطابق كل منها الأخرى وتطابق نصوص مصحف عثمان تمام التطابق .

وهكذا كان الشأن أيضا بالنسبة لمخطوطات نصوص القرآن الكريم الموجودة بحوزتنا فى أوروبا (إذ توجد بالمكتبة الوطنية فى باريس نصوص من القرآن الكريم يرجع تاريخها حسب تقدير الخبراء إلى القرن الثامن الميلادى والتاسع الميلادى أو إلى القرن الثانى الهجرى والثالث الهجرى) . وهذا الحشد من نصوص القرآن الكريم القديمة جدا متطابق كله لا توجد به تغييرات تغير من المعنى العام للنص على الرغم من أن النص قد يقبل أحيانا أكثر من قراءة ، ومرجع ذلك بطبيعة الحال هو

أن الكتابة القديمة كانت أبسط فى نواحى كثيرة[١] من الكتابة العربية فى وقتنا الراهن .

ولقد تم ترتيب سُوَر القرآن الكريم ، وهى مِائة وأربع عشرة سورة ربما حسب تناقص طولها مع بعض الاستثناءات[٢] ، ولم يتقيد ترتيب سوَر القرآن الكريم فى المصحف الشريف بالترتيب التاريخى للتنزيل مع أن الترتيب التاريخى لنزول الآيات معروف على وجه الدقة ، وتحدد روايات كثيرة مكان نزول الوحى بآيات القرآن الكريم . ويوجد فى نصوص القرآن الكريم شىء من التكرار، ولكنه تكرار يضيف فى الغالب الأعم تأكيد بعض المعانى وذكر بعض التفاصيل فى نص لم تكن مذكورة فيه التفاصيل من قبل . والنصوص التى يمكن أن يكون لها صلة بحقائق العلم الحديث موزعة فى القرآن الكريم جنبا إلى جنب مع الموضوعات الأخرى المتصلة بالعقيدة والشريعة دون ترتيب محدد .

خلقُ السمواتِ والأرض

The Creation of The Heavens and the Earth

أوْجُه الاختلاف والاتفاق مع التوراة (*)

Differences From and Resemblances

To the Biblical Description

على النقيض من التوراة نجد أن القرآن الكريم لا يقدم لنا وَصْفًا مكتملا فى موضع واحد من القرآن الكريم عن كيفية الخَلْق the Creation وبدلا من القص المستمر المتواصل فى موضع واحد توجد نصوص عن كيفية الخَلْق مبثوثة فى ثنايا نصوص القرآن الكريم ، وتتعامل هذه النصوص المتناثرة فى ثنايا نصوص القرآن الكريم مع جوانب متعددة ومحددة من عملية الخَلْق ، وتقدم معلومات عن الأحداث المتلاحقة بشأنه وبشأن تطوُّره بدرجات مختلفة التفاصيل ، ومن اللازم لنا تجميع الأجزاء المتناثرة من كيفية الخَلْق فى عديد من سُوَر القرآن الكريم .

---

(١) أضاف المؤلف ملاحظة هامشية فى هذا الموضوع تقول : إن عدم وجود علامات الترقيم وعلامات ضبط حركة الحروف بالشكل كانت تجيز قراءة فعل مبنى للمعلوم أو مبنى للمجهول والاسم لمذكر أو لمؤنث ، ولكن السياق العام للمعنى كان يحسم ويرجح معنى على معنى آخر . (المترجم) .

(٢) الزعم بأن ترتيب سور القرآن الكريم فى المصحف الشريف يجرى على أساس طول وقصر السور إنما هو اجتهاد من المؤلف ، وحقيقة الأمر فى هذا الصدد هى أن هذا الترتيب «توقيفى» كما يقول علماء مباحث القرآن الكريم ، أى أن الله سبحانه وتعالى الذى أنزل القرآن هو الذى أمر النبى ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام أن يجعل ترتيب الآيات والسور الكريمة على النحو الذى توجد عليه . (المترجم) .

(*) أضاف المؤلف بنفسه ملاحظة هامشية تقول : «المقصود بالتوراة هنا هو النص المعروف بالرواية الكهنوتية للتوراة وليس هو النص المعروف بالرواية اليهودية للتوراة حيث إنها شديدة الإيجاز وفيها حذف وغياب لكثير من التفاصيل بصورتها الراهنة» . (المترجم) .

وليس تناثر كيفية الخلق فى القرآن الكريم متعلقا بوجه واحد من وجوه الخلق ، أو بموضوع واحد بل نجده متصلا بموضوعات ووجوه مختلفة متعددة من أوجه وموضوعات الخلق . وهذا هو شأن تناول القرآن الكريم للكثير من الموضوعات مثل الظواهر الدنيوية الأرضية ، أو الظواهر السماوية، أو المسائل المتصلة بخَلْق البشر مما يدخل فى مجالات العلماء المتخصصين فى مختلف فروع العلم. وسيجد القارئ الكريم أننا قد قمنا بتجميع هذه الموضوعات فى الصفحات التالية استخلاصاً لها من عديد الآيات فى كثير من المواضع.

إن الوصف القرآنى لكيفية الخَلْق يبدو لكثير من الباحثين الغربيين مشابهًا لكيفية الخَلْق فى التوراة ، ويحلو لهم أن يضعوا أحدهما جنبا إلى جنب مع الآخر مع الإشادة بأوْجُه الشبه[1] والمماثلة بينهما . وهذا مفهوم خاطئ من وجهة نظرى حيث إنه توجد بين التوراة وبين القرآن أوْجُه اختلاف جوهرية وأساسية وهامة فى كثير من الموضوعات ذات الأهمية القصوى ، وليس فى مسائل ثانوية قليلة الأهمية . ومن وجهة النظر العلمية الموضوعية البحتة التى تعتمد على حقائق العلوم الوضعية الحديثة نجد فى القرآن الكريم قضايا وحقائق علمية تم اكتشافها فى العصر الحديث ومن المستحيل أن نجد ما يضارعها أو يماثلها فى التوراة ، كما أن فى التوراة مزاعم علمية خاطئة بمعيار العلوم الوضعية الحديثة ليس لها ما يماثلها فى القرآن الكريم .

إن أوجه الشبه الظاهرية بين التوراة والقرآن فيما يتعلق بكيفية الخَلْق مشهورة واضحة معروفة ، إذ تشير التوراة إلى أن أيام خلق العالم هى ستة أيام ويصرح القرآن الكريم أن عملية الخلق قد استغرقت[2] ستة أيام . ولكن المسألة أكثر تعقيدا وهى ليست مجرد تشابه واضح دون وجود أوْجُه تمايز واختلاف وهى تستحق أن نتوقف عندها للتدقيق فيها وتمحيصها .

---

(١) يحلو للباحثين الغربيين ترديد مثل هذه الأحكام فى محاولة للتدليل على أن القرآن الكريم هو مجرد تقليد لنصوص التوراة ، وقام بمحاولة التقليد هذه نبى الإسلام محمد فى زعمهم ، ضاربين صفحا عن أوْجه الاختلاف بين القرآن والتوراة فيما يتعلق بكيفية خلْق الله للعالم وفيما يتعلق بغيره من الموضوعات الأساسية . يزعمون هذا الزعم الخاطئ والتوراة تقرر فى أول أسفارها أن الله قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع ، كأن الله قد أصابه التعب واللغوب ، على حين يقرر القرآن الكريم أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام وما مسه من لغوب ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لُغوب﴾ [ق : ٣٨] . وأول جملة فى أول سفر من التوراة تقول فى أصلها العبرى: «فى البدء خلقت الآلهة Elohim السموات والأرض» إن كتبة التوراة لم يكونوا قد تخلصوا من تعدد الآلهة عندما كتبوا التوراة بأسلوب البشر إذ المعروف أن Elohim صيغة جمع المفرد هو Eloh وليس هذا جمع تعظيم إذ التعظيم للمخاطب أو المتكلم وليس للغائب (المترجم) .

(٢) على حين أن الأيام الستة فى التوراة ترتبط بأيام الأسبوع بدليل أن أصحاب التوراة يزعمون أن الله قد استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت نجد لليوم مفهوما آخر من وجهة النظر الإسلامية . (المترجم) .

المراحل الزمنية الستة للخلق

The Six Periods of Creation

تذكر لنا رواية التوراة عن الخَلْق بكل وضوح ودون أى غموض تمام الخلق فى ستة أيام يتبعها يوم استراح فيه الله من مشقة وتعب عملية خلق العالم وهو يوم السبت Sabbath مما يشير إلى تمام التطابق مع أيام الأسبوع المعروفة لكل الناس . "analogous with the days of the week"

ولقد أوضحنا كيف أن تصوير عملية الخلق على هذا النحو قد أفضى برجال الدين اليهودى فى القرن السادس قبل الميلاد إلى ضرورة الراحة يوم السبت، وإلى تحريم العمل فيه تحريما تاما . يتحتم على كل اليهود أن يستريحوا من العمل يوم[1] السبت كما استراح الله من العمل فى اليوم السابع وهو يوم السبت فى نظر اليهود .

وكلمة «يوم day» فى التوراة تعنى المدة الزمنية بين شروق الشمس وشروق تال للشمس أو المدة الزمنية بين غروب الشمس والغروب التالى للشمس بالنسبة إلى سكان الأرض . وتحديد اليوم بهذه الطريقة يرتبط بحركة الشمس[2] وليس بحركة الأرض حول محورها كما أثبتت ذلك العلوم الحديثة عندما أثبت علماء الفلك دوران الأرض حول محورها وحول الشمس كما أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

أما إذا رجعنا إلى النصوص الموجودة فى معظم أنماط ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية فسوف نجد التجانس الظاهرى بين رواية التوراة ورواية القرآن عندما نجد أن القرآن أيضا يحدد زمن عملية الخلق باعتبار أنه ستة أيام . ولا نستطيع أن نعتب أو أن نحكم بالخطأ على من تصدوا لترجمة معانى القرآن الكريم فى هذا الصدد عندما ترجموا كلمة «يوم» العربية باعتبار أنها كلمة "day" الإنجليزية مثلا دون أى إشارة إلى اختلاف المعنى بين المفهوم العربى والمفهوم الإنجليزى لكلمة «يوم day" وهذا بالفعل هو ما ذهب إليه معظم من تصدوا لترجمة معانى القرآن عند ترجمتهم لآية مثل قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ [**الأعراف**: ٥٤] حيث تمت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية على النحو التالى :

. "Your Lord is Allah Who created the heavens and the earth in six days" وقليل من محاولات ترجمة معانى القرآن هى تلك التى أشارت فى ملاحظة هامشية إلى كلمة «أيام days"

---

(١) كلمة «سبت Sabbath» فى اللغة العبرية تعنى «يستريح» .(المؤلف) .

(٢) هذا هو السبب فى معارضة الكنيسة لعلماء الفلك مثل كوبرنيكوس وجاليليو عندما أثبتوا أن الشمس ثابتة ، وأن الأرض تدور حول محورها مسببة الليل والنهار . (المترجم) .

تعنى : «فترات زمنية أو مراحل زمنية Periods» بل إننا نجد من يبرر هذا القصور فى الترجمة باعتبار أنه كان مسايرة للفهم العام الشائع بين كل الناس فى تلك العصور من تاريخ البشر يهودا ومسيحيين ومسلمين تجنبا لمجابهة المفاهيم التى كانت شائعة فى تلك العصور قبل الاكتشافات العلمية فى مجال علم الفلك .

إن كلمة «يوم day" فى صيغة المفرد تدل فى الغالب على الفترة الزمنية بين غروب الشمس وغروبها مرة أخرى ، أما كلمة أيام فى صيغة الجمع[1] فهى لا تعنى أن يكون اليوم باعتباره أربعا وعشرين ساعة هو المقصود وحده بل تعنى مدة طويلة من الزمان أو فترة زمنية طويلة . والقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى أشار إلى أن «اليوم The Day" يمكن أن يكون أكثر من أربع وعشرين ساعة فى مثل قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] .

ولقد بهر هذا المعنى لكلمة «يوم» باعتبار أنها تعنى فترة زمنية تختلف عن المعنى المتداول لمعنى كلمة «اليوم» باعتبار أنه أربع وعشرون ساعة كثيرا من المفسرين الذين لم يكونوا قد ألفوا هذا التفسير لمعنى «اليوم» باعتبار أنه فى مجال خلق الله للكون تعنى فترة زمنية أو مرحلة تمتد طوال فترة زمنية طويلة ، ولقد ذهب إلى هذا المعنى المفسر المسلم أبو السعود فى القرن السادس عشر الميلادى على الرغم من أنه لم يكن يلم بكل ما نعرفه الآن عن معنى اليوم بالنسبة إلى علم الفلك ، ومن الغريب حقا أنه قد استشف المعنى الصحيح لليوم باعتبار أنه فترة زمنية أو مرحلة زمنية من مراحل خلق الله للعالم .

وهنالك مفسرون مسلمون ومترجمون لمعانى القرآن الكريم قد أخذوا بهذا التفسير لكلمة اليوم فى هذا السياق باعتبار أنه فترة زمنية أو مرحلة زمنية من مراحل خلق الله للعالم، ومراحل نشأة الكون الذى نعيش فيه مثل عبد الله يوسف على فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم التى نشرها فى عام (١٩٣٤م) عندما أشار فى ملاحظاته الهامشية على أن كلمة «اليوم» فى سياق الآيات التى تتحدث عن خلق الله للعالم يلزم تفسيرها فى هذا السياق بمعنى «الفترات الزمنية الطويلة جدا " very long periods أو «العصور ages" .

ومن حقنا إذن أن نقبل قول القرآن الكريم فيما يتعلق بخلق العالم خلال فترات زمنية عددها ست فترات . ولا شك فى أن العلم الحديث لم يصل بعد إلى تقرير ما إذا كان عدد هذه الفترات

---

(١) ليس ورود كلمة «اليوم» فى صيغة الجمع هو الذى يفرق بين استخدام التوراة والقرآن الكريم لهذا التعبير ، فصيغة الجمع «أيام» هى الموجودة فى كليهما ، ولكن نص التوراة على أن الله قد استراح فى اليوم السابع هو الذى يحدد «الأيام» بأنها أيام الأسبوع ، وهو موجود فى التوراة وغير موجود فى القرآن الكريم بل يوجد ما يناقضه كما سبق لنا أن أشرنا . وكذلك ينص القرآن الكريم على إمكانية أن يكون اليوم أكثر من أربع وعشرين ساعة كما هو الشأن فى الآية الخامسة من سورة السجدة ، وهو ما ينفرد به القرآن الكريم . (المترجم) .

هو ست فترات أو أكثر أو أقل بمناهج العلم الحديث ، ولكن العلم الحديث قد وصل إلى تقرير حقيقة أن العالم قد تَشَكَّلَ وتكوَّن «خلال فترات أو مراحل زمنية طويلة جدا أعقبت إحداها الأخرى» ، يتضاءل إزاء كل حقبة أو مرحلة من هذه المراحل فى نشأة الكون اليوم الذى نعرفه كأربع وعشرين ساعة تضاؤلا كبيرا .

وتوجد فقرة طويلة إلى حد ما تتكون من أكثر من آية فى سورة فُصِّلَتْ ، وهى تتحدث عن عملية خلق الكون مع الربط بين أحداث دنيوية وأحداث سماوية إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [**فصلت** : ٩ – ١٢] .

هذه الآيات الأربعة من سورة فُصِّلَتْ تَعْرِضُ بعضَ الجوانب فى عملية خَلْقِ الكون سنعود إليها بالتفصيل فيما بَعْد ، وأهم هذه الجوانب التى تَعْرِض لها هذه الآيات هو وجود الحالة الغازية gas-eous state للكون كحالة سابقة للحالة الصلبة لليابس solid state ، ولقد أشارت هذه الآيات أيضا إلى عدد السَّمَوات باعتبار أنها سبع سَموات ، وسنرى أهمية العدد (٧) فيما بعد . كما أشارت الآيات أيضا إلى خضوع السموات والأرض لأمر الله طواعية دون عصيان أو إكراه مما يدل على مطلق قدرة الله على خَلْقِ الكَوْن .

ولقد حاول بعض النقاد أن يشيروا إلى أن القرآن الكريم قد أشار إلى أن الله قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وهو فى هذا النص الذى أشرنا إليه من سورة فُصِّلَتْ قد أشار إلى خلق السموات والأرض وتوزيع أسباب الرزق فيما مجموعه ثمانية أيام مما يتناقض[١] مع الأيام الستة التى سبق أن أشار إليها القرآن الكريم .

هذا النص يدعو أساسا إلى تأمل القدرة الإلهية وخَلْق الله للعالم ابتداء من الأرض إلى السموات مع خَلْقِ الله لأقوات الأحياء فوق الأرض كلها . وقد تضمن هذا العرض جزأين معطوفين بكلمة «ثم» التى تعنى «وزيادة على ذلك» أو «وبعد ذلك» أو «وفضلا عن ذلك» . والمقصود هنا هو ترتيب متوالية من الأحداث فى اتجاه واحد أو فى سلسلة واحدة أو «فى سياق واحد»[١] . وعلى

(١) لقد أشار فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى إلى ملاحظة هامة فى هذا الصدد إذ أشار فضيلته إلى احتمال تضمين يومين فى أربعة أيام ، ومثال ذلك هو أن نقول : «سافرت من القاهرة إلى طنطا فى ساعتين ، ووصلت إلى دمنهور فى أربع ساعات» هنا تكون الساعتان اللتان استغرقهما السفر من القاهرة إلى طنطا داخلتين فى المدة التى استغرقها السفر من القاهرة إلى دمنهور . ويكون من الخطأ أن يضيف أحد الساعتين من القاهرة إلى طنطا إلى الساعات الأربعة التى استغرقها السفر من القاهرة إلى دمنهور ، لأنهما مستغرقتان فى الزمن من القاهرة إلى دمنهور . وبالمثل : خلق الله الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام من ضمنها اليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض . فلا يكون مجموع الأيام ثمانية بل ستة أيام ، لا يوجد أى تناقض . (المترجم) .

كل حال ، فمن الممكن أن فترة خلق السماء وتقدير الرزق فيها متضمنا لليومين اللذين خلق الله فيهما اليومين اللذين خلق الله فيهما الأرض باعتبار أن تثبيت الأرض بالرواسى والجبال وخلق الأرزاق والأقوات مرحلة واحدة استغرقت أربعة أيام منها يومان مخصصان لعملية خلق الله للأرض للارتباط الوثيق بين خلق الأرض وتثبيتها وتقدير أقوات المخلوقات[٢] الحية عليها . وسنرى فيما بعد كيف خلق الله الكون بشيء من التفصيل وسنرى كيف أن كيفية خلق الله للأرض والسموات تتفق تماما مع حقائق العلم الحديث . وسيتضح عندئذ صواب هذا التصوير القرآنى فى تتابع مراحل خَلْقِ الله للكون فى مراحل متتابعة تمشى فى اتجاه محدد دون سواه .

ولا يوجد أى تناقض بين معطيات الآيات التى أشرنا إليها من سورة فُصِّلَتْ وبين نصوص أخرى بالقرآن الكريم تشير إلى خلق الله للكون فى ستة أيام أو ست مراحل أو ست فترات كما سبق أن أوضحنا .

القرآن لا يحدّدُ تتابُعاً مُعَيّناً ...

The Qur'an does not lay down a sequence

فى الموضعين اللذين أشرنا إليهما بشأن خلق الله للكون وهما الآية (٥٤) من سورة الأعراف والآيات (٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢) من سورة فُصِّلَتْ لا يبدو لنا أن القرآن يحدد ترتيبا مُعَيّناً لتتابع أحداث الخلق على نحو يحدد الحدث السابق ، والحدث اللاحق فى تسلسل خلق السموات والأرض .

بالقرآن الكريم عدد صغير من الآيات التى تشير إلى الأرض أولا كما هو الحال فى الآية (٢٩) من سورة البقرة ، والآية (٤) من سورة طه بينما نجد عددا أكبر من الآيات فى القرآن الكريم يشار فيها إلى السموات قبل الأرض مثل الآية (٥٤) من سورة الأعراف ، والآية (٣) من سورة يونس ، والآية (٧) من سورة هود ، والآية (٥٩) من سورة الفرقان ، والآية (٤) من سورة السجدة والآية (٣٨) من سورة ق ، والآية (٤) من سورة الحديد ، والآيات (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) من سورة النازعات ، والآيات (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) من سورة الشمس .

---

(١) هكذا يحاول المؤلف تبرير شبهة التناقض فيما يتعلق بعدد الأيام التى خلق الله فيها العالم : هل هى ستة أيام أم ثمانية أيام ، ولكن هذه المحاولة، يلزمها الوضوح . الملاحظة التى أشار إليها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى أدق وأوضح . إن الأيام الأربعة التى خلق الله فيها جبال الأرض وقدر فيها أقوات المخلوقات الحية تتضمن اليومين اللذين خلق الله فيهما الأرض كما سبق أن أوضحنا . (المترجم) .

(٢) قمنا بمزج بين ملاحظة فضيلة الشيخ الشعراوى وأقوال المؤلف فى هذا الصدد لإضفاء مزيد من الوضوح على هذه المسألة .

خلق الأرض : (يومان) ← وخلق الجبال والأقوات (يومان) ← السموات السبع (يومان)

خلق الله الأرض فى يومين وخلق الجبال وقدر الأقوات فى أربعة أيام

∴ المجموع هو ستة أيام وليس ثمانية أيام . (المترجم) .

وباستثناء الآيات المشار إليها من سورة النازعات لا نجد فى حقيقة الأمر تحديدا لأى تتابع ، أو تتال فى أحداث ، أو مراحل خلق الله للكون. إن حرف العطف المتمثل فى حرف الواو هو الذى يربط بين أكثر من جملة وتوجد نادرا «ثم» التى نجدها فى الآيات المشار إليها من سورة النازعات ، وهى ربما تشير إلى التوالى أو التتابع أو حدوث مرحلة بعد مرحلة أخرى أو وقوع حدث بعد حدث آخر ، كما أنها قد تشير فحسب إلى حدث بالإضافة إلى حدث آخر أو وجود مرحلة إلى جانب مرحلة أخرى . والآيات المشار إليها فى سورة النازعات هى التى تشير إلى شىء من التتابع دون استخدام حرف العطف «ثم» إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ** ﴾[1] [**النازعات** : ٢٧ – ٣٣] .

إن وَصْفَ القرآن لنعَم الله الدنيوية على الناس قد جاء فى لغة تناسب الإنسان الذى يحترف الزراعة أو البدوى الذى ترعى أغنامه الكلأ فى شبه الجزيرة العربية أو أى إنسان يتمتع بالعيش فوق سطح الأرض ويأكل من خيراتها ويشرب ماءها ويتنفس هواءها . وهذا الوصف مسبوق بالدعوة إلى التأمل فى خلق السماء وكذلك التأمل فى خلق الأرض ولوازم الحياة فوق سطح الأرض ، إذ أخصبها الله وأمدها بالماء وثبتها بالجبال ، وكان ذلك بعد تحديد تتالى الليل والنهار ﴿ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ [**النازعات** : ٢٩] . إننا هاهنا نجد أنفسنا بصدد مجموعتين من الظواهر الكونية تتصلان بالكون الذى نعيش فيه ككل : إحداهما ظواهر سماوية والأخرى ظواهر أرضية . وكلتا المجموعتين على اتصال كل منهما بالأخرى مما يدل على حاجة الكائنات الحية إلى كل منهما احتياجا ضروريا لممارسة الحياة تحت السماء وفوق الأرض . ويتضح من ذلك وجود مصاحبة زمنية لنمو وتكامل خلق السموات والأرض على نحو تتداخل فيه هاتان العمليتان من عمليات الخَلْق . ولا تشكل فكرة التتالى أو التتابع أى أهمية فى هذا الصدد فى هذا النص أو غيره من النصوص الموجودة فى القرآن ، إذ لا أهمية هنالك لخلق السموات قبل الأرض أو خلق الأرض قبل السموات . ومواضع الكلمات تقديما وتأخيرا مثل قولنا : «خلق الله السموات والأرض» أو قولنا: «خلق الله الأرض والسموات» لا يدل على ضرورة وجود ترتيب زمنى يجعل أحدهما سابقا والآخر لاحقا ، إذ يستحيل التعبير عن خلق هذا وذاك إلا بذكر هذا وذاك باستخدام أحد حروف العطف ، ولا تدل مواضع الكلمات قبل حرف[2] العطف أو بعده بالضرورة على وجود ترتيب وتتال معين تحقق الخلق فى إطاره إلا فى حالة وجود ما يدل على ذلك صراحة فى النص .

---

(١) استخدام تعبير «بعد ذلك» فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ يشير إلى تتابع أى أن خلق الأرض جاء بعد خلق السماء . وكلمة دحاها تعنى : بسطها مع الاستدارة على شكل بيضاوى ، وفيه إشارة إلى كروية الأرض كما أن إخراج الماء والمرعى وإرساء الأرض بتشكيل الجبال الضخمة عليها إنما هو من لزوميات خلق الأرض لكى تصلح لحياة مخلوقات الله الحية.(المترجم) .

(٢) الواو وحدها هى التى لا تفيد ترتيبا وتعقيبا ، أما العطف بالفاء فيدل على الترتيب والتعقيب ، كما أن ثم يفيد العطف بها الترتيب والتراخى فلزم التنويه .

عالمنا والعوالمُ الأخرى

Our Universe and the other Worlds

يقدم لنا القرآن الكريم فى آيتين خلاصة موجزة عن الظواهر التى نتج عنها خَلْقُ وتشكيل الكون كما هو موجود باعتبار أنه العالم الذى نعيش فيه The Universe وذلك فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء وفى الآية (١١) من سورة فُصِّلَتْ .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [**الأنبياء** : ٣٠] .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى سورة فُصِّلَتْ : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [**فصلت** : ١١] .

سنعود فيما بعد للأصل المائى للحياة وسندرس ذلك مع مسائل بيولوجية أخرى مذكورة فى القرآن الكريم ، ويهمنا الآن فحسب أن نلْفتَ الانتباه إلى الاعتبارات الآتية :

(أ) إشارة القرآن الكريم إلى وجود كُتْلَة غازية ذات جزئيات a gaseous mass with fine particles تشكل منها العالم ، وهو ما يمكن أن يعنيه قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان﴾ .

إذ يتكون «الدخان» بوجه عام من وجهة النظر العلمية من قوام غازى تعلق به بنسب متفارقة جزئيات دقيقة fine particles فى حالة صلبة أو سائلة مع درجات متفاوتة فى الحرارة .

(ب) إشارة القرآن الكريم إلى حدوث عملية أو عمليات فَتْقٍ من كتلة أولية واحدة تكونت عناصرها أولية من عناصر تجمعت رَتْقًا وتم مزجها والخلط بينهما فى خليط واحد وذلك باعتبار أن «الفتق» هو عملية الفصل بين أجزاء أو فك الالتحام والارتباط بينها ، وأن «الرتق» هو الوصل بين الأجزاء فى خليط واحد متصل الأجزاء .

وهذا المفهوم الذى يشير إلى تفكيك الكل إلى أجزاء نجده محددا بشكل صريح فى مواضع أخرى من القرآن الكريم كما هو الشأن فى سورة الفاتحة إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين﴾ ونجد أن تعبير «رب العالمين[١]» هذا يتكرر عشرات المرات فى القرآن الكريم . وكذلك نجد أن تعبير «السموات» يتكرر فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم فى صيغة الجمع ، ويشار إليها فى بعض المواضع باعتبار أنها سبع سموات .

(١) «العالمين» فى نظر جمهور المفسرين الإسلاميين هى جمع «عَالَم» وهو كل موجود سوى الله عَزَّ وجَلَّ ، والله سبحانه وتعالى هو رب الإنس والجن لأنه سبحانه وتعالى هو خالق ومالك الإنس والجن ، إنه سبحانه وتعالى هو رب العالمين . (المترجم) .

والرقم (٧) يستخدم كثيرا فى القرآن الكريم وبلغ عدد مرات استخدامه فى القرآن الكريم(٢٤) مرة فى مواضع مختلفة ، ولا يمكن القطع فى بعض الأحيان بالمعنى المقصود منه فيما بين التعبير عن مجرد الكثرة وبين تحديد العدد بأنه العدد (٧) . ونجد أن العدد (٧) عند اليونان والرومان له دلالات أخرى غير دلالته العددية . وفى بعض الأحيان يشير القرآن الكريم إلى «السموات السبع» وفى أحيان أخرى يشير إلى : «السموات» دون تحديد لعددها .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٩] . وأيضا : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ** ﴾ [الملك: ٣] . وأيضا : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)** ﴾ [المؤمنون : ١٧] وأيضا : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ [نوح: ١٥، ١٦] .

وأيضا : ﴿ **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** ﴾ [النبأ: ١٢،١٣] .

والسراج الوهاج هنا هو الشمس . وبالنسبة لكل هذه الآيات يجمع مفسرو القرآن على أن الرقم (٧) يشير إلى مجرد التعدد Plurality .

ونخلُص من هذا إلى أن السموات إذَنْ متعددة وكذلك الكواكب المشابهة للأرض . ومما يثير دهشة قارئ القرآن الكريم فى العصر الحديث أنه يستطيع أن يجد فى نص من نصوص القرآن الكريم تصريحا بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض موجودة فى الكون الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ، وهذه حقيقة لم يتحقق الناس من ثبوتها إلا فى العصر الحديث .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ [الطلاق: ١٢] .

وبما أننا قد سبق أن أوضحنا أن العدد (٧) يشير إلى مجرد التعدد ، نجد أن هذا النص القرآنى يخبرنا بوضوح إلى وجود أرض البشر ، ويشير بوضوح أيضا إلى وجود أراض أخرى مشابهة لأرض البشر أو إلى وجود «أرض» فى كواكب أخرى مغايرة للأرض التى نعيش عليها .

ونجد فى آيات القرآن الكريم سببا آخر للدهشة وذلك عندما تشير آيات القرآن الكريم إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات وهى :

- مخلوقات توجد فى السماء .
- مخلوقات توجد فى الأرض .

- مخلوقات توجد بين السموات والأرض ، وذلك فيما يلى :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [طه : ٦] - وأيضا : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الفرقان : ٥٩] - وأيضا : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ(*) ﴾ [ق : ٣٨] .

إن إشارات القرآن الكريم إلى «ما بين السموات والأرض» قد تكررت فى مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم كما هو الشأن فى سورة الأنبياء: الآية ١٦ ، وسورة الدخان: الآيتان ٧ ، ٣٨ ، وسورة النبأ : الآية ٣٧ ، وسورة الحجر : الآية ٨٥ ، وسورة الأحقاف : الآية ٣ ، وسورة الزخرف آية : ٨٥ .

ومسألة وجود مخلوقات فيما بين السماء والأرض ربما تبدو صعبة القبول لدى الإنسان العادى ولكن العلم الحديث فى أحدث ما وصلت إليه اكتشافات العلم الحديث قد وصل إلى اكتشاف وجود مادة من مواد الكون الذى نعيش فيه أطلق العلماء فى العصر الحديث عليها اسم «مادة خارج المجرات cosmic extra - glactic material" ولتفهُّم هذه الحقيقة يلزم الإلمام بما توصلت إليه أحدث الاكتشافات العلمية حول تَشَكُّل الكون بالانتقال من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا The formation of the universe starting with the simplest and proceeding to the most complex .

وسيكون هذا الموضوع موضوعا لدراستنا فيما بعد . وقبل أن ننتقل إلى هذه الدراسة العلمية البحتة يجدر بنا أن نوجز ونجمل النقاط الرئيسية التى يُطْلعنا القرآن الكريم عليها فيما يتعلق بشأن كيفية خلق الله للعالم وهى :

١ - وجود ست مراحل للخلق بوجه عام .

٢ - تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض .

٣ - خلق الكون ابتداء من كتلة أولية متماسكة العناصر انفصلت عنها أجزاء الكون .

٤ - تعدد السموات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ - وجود مادة مخلوقة وسيطة بين السموات والأرض .

* يشير المؤلف فى ملاحظة هامشية إلى أن هذه الآية تتعارض وتناقض تماما ما ذكرته التوراة من أن الله قد استراح فى اليوم السابع من التعب فى خلق العالم .(المترجم) .

بعض ما توصل إليه العلم الحديث عن الكَوْن

Some Modern Scientific Data Concerning The Formation of the Universe

النظام الشمسى *The Solar System*

تُشَكِّلُ الأرضُ والكواكب التى تدور حول الشمس عالَمًا يسوده النظام والاتساق ، وهو نظام واتساق بالغ الضخامة والتعقيد لدرجة أن عقولنا تقصر عن الإلمام بتفاصيله . ومن الصعب على العقل البشرى مثلا أن يستوعب حقيقة مثل حقيقة أن الأرض تبعد عن الشمس مسافة مائة وخمسين مليون كيلو متر تقريبا . إن هذه مسافة شاسعة بالنسبة للكائنات البشرية بحيث يصعب على الناس مجرد تصورها ، أى أنها تفوق حدود التصور النظرى أو الخيال البشرى ، ولكنها مسافة بالفعل صغيرة لو قورنت مثلا بالمسافة التقديرية التى تفصل بين الشمس وبين آخر مدار لكوكب بلوتو Pluto إذ تُقَدَّرُ المسافة بين الشمس وبين بلوتو بما يساوى المسافة بين الأرض والشمس أربعين مرة تقريبا ، أى أن المسافة بين الشمس وبين بلوتو تُقَدَّرْ بحوالى ستة مليارات كيلو متر تقريبا . ويبلغ قطر مدار بلوتو بناء على ذلك حوالى ١٢ مليار كيلو متر . ويستغرق الضوء ست ساعات تقريبا ليصل إلى كوكب بلوتو مع العلم بأن سرعة الضوء سرعة رهيبة تُقَدَّرُ بحوالى ٣٠٠,٠٠٠ كم / فى الثانية الواحدة . أما النجوم الكائنة على حدود العالم السماوى فيلزمها مليارات من السنوات حتى يصل ضوءها إلينا .

المَجَـــرَّات *The Galaxies*

إن الشمس التى تُعْتَبَرُ الأرْضُ أحد كواكبها التابعة التى تدور فى مدار حولها ليست الشمس نفسها إلا عنصرا واحدا صغيرا من بين حوالى «مائة مليار» من النجوم الأخرى التى تتكون منها مجرة واحدة من بين عديد المجرات Galaxies الأخرى الموجودة فى الكون الذى خلقه الله . وفى ليلة من ليالى الصيف الصافية نستطيع أن نرى السماء مرصعة بعدد من النجوم تسمى فى مجموعها مجرة اللبن Milky Way وتتميز نجوم هذه المجموعة بأبعاد ضخمة للغاية large dimen-sions وإذ يستطيع «الضوء light» أن يقطع المسافات بين نجوم مجموعتنا الشمسية بسرعة تقاس بالمسافة الضوئية units of one hours نجد أن يقطع المسافة بين أحد النجوم فى أول مجموعتنا الشمسية وأحد النجوم فى آخرها فى زمن يبلغ تسعين ألف سنة ضوئية .

وهذه المجرة This Galaxy التى ينتمى إليها عالمنا على الرغم من اتساعها العجيب ليست إلا

جزءا صغيرا من السموات a small part of the Heavens . وتوجد بالإضافة إلى مجرتنا هذه مجرات أخرى من النجوم الأكثر ضخامة . ولقد تم اكتشاف وجود هذه التكتلات النجمية التى تشكل المجرات الأخرى منذ حوالى خمسين عاما فقط عندما استطاع علماء الفلك أن يستفيدوا ببعض الأجهزة البصرية مثل التلسكوب الموجود على جبال ويلسون بالولايات المتحدة الأمريكية . وبمثل هذه الأجهزة الضخمة التى توصلنا إليها فى القرن العشرين فقط أمكن لنا اكتشاف هذه التكتلات من المجرات الضخمة الكثيرة العدد بشكل عجيب ، كما أمكن لنا تمييز مجرات منعزلة تقع على مسافات شاسعة البعد بحيث استلزم ذلك اللجوء إلى وحدة قياس بالغة الضخامة لقياس مثل هذه المسافات وهى «السنة الضوئية light year" أو «الفرسخ النجمى parsec" وهو عبارة عن المسافة التى يقطعها الضوء فى ٣,٢٦ سنة بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كم / ثانية .

المجرات والنجوم والنظم الكوكبية

Glaxies, stars & Planetary Systems

ماذا عساه أن يكون هنالك فى البداية فى ذلك الفضاء الواسع الذى تشغله مجرت النجوم الآن؟ إن العلم الحديث لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال إلا بدءا من فترة ما بعد أن تكونت وتشكلت هذه المجرات ذات النجوم فى الكون ، أما فترة ما قبل تشكلها ، وكيفية تشكلها ، فإن العلم يقف عاجزا حيالها . يحاول العلماء دراسة ما هو موجود ، ولا يستطيع العلم دراسة ما حدث قبل تكوين هذه العوالم النجمية فى مجرات النجوم .

وفى حدود المدى الذى يستطيع العلم الوصول إلى معرفة ما حدث للكون الذى نعيش فيه ، استطاع العلم الحديث أن يصل إلى الأسباب التى دفعت العلماء إلى القول بأن الكون قد تشكّل أساسا من غاز الهيدروجين مع إضافة نسبة قليلة من غاز الهليوم ولقد انقسم هذا السديم This Nebula بعد ذلك إلى أجزاء متعددة ذات أبعاد شاسعة وكُتَلٍ كبيرة بلغت من الضخامة حدّاً جعل علماء الفلك يقدرونها بما يزيد على حجم الكتلة الحالية للشمس بمقدار مليار مرة ، وقد يصل هذا الحجم فى تقديرات بعض العلماء المعاصرين إلى مائة مليار مرة من حجم الشمس .

هذا مع العلم بأن الكتلة الحالية للشمس تُقَدَّر بما يزيد على كتلة الأرض بثلثمائة ألف مرة . وتعطينا هذه الأرقام صورة واضحة لضخامة كتلة الكون هذه المكونة من جزئيات غازية أولية تولدت منها المجرات Galaxies الموجودة حاليا فى الكون الذى نعيش فيه .

وحدث تفتت آخر فى عالم النجوم جديد A New Fragmentation وخلال هذا التفتت

الجديد[1] حدثت ظاهرة التكثيف The Intervention of Condensing التى تدخل فيها التأثيرات الناتجة عن الاحتكاك والتجاذب والتلاصق أثناء تحرك هذه الأجرام حركات متزايدة السرعة ومن جراء الضغوط والحقول المغناطيسية والإشعاعات ، وتتزايد النجوم بريقا أثناء انكماشها وأثناء تحويل قوى التجاذب فيما بينها إلى طاقة حرارية .

ثم تَحْدُثُ بعدئذ ردود الأفعال الحرارية – النووية Thermo - nuclear ومن خلال الكثير من عمليات المزج والاختلاط تتحول ذرات خفيفة إلى ذرات ثقيلة ويتحول الهيدروچين إلى هليوم ثم إلى كربون وأوكسچين ثم تتكون فى النهاية الفلزات metals واللافلزات metalloids وهكذا تتشكل حياة النجوم الخاصة بها . ولقد قام علماء الفلك فعلا بتصنيف أنواع من النجوم حسب كيفية تشكلها وتكوينها وحسب الزمن الذى تم فيه تشكيلها وتكوينها . وتموت النجوم أيضا . The stars also have a death وذلك فى تطور نهائى على شكل انفجار يتم من داخلها تتحول النجوم بعده إلى جثث هامدة Corpses .

إن الكواكب بوجه عام ، والأرض بوجه خاص قد تكونت نتيجة لعملية الانفصال والفتق عن مركب أصلى من السديم الأوّلىّ from an initial constituent. ولقد توقف منذ ربع قرن تقريبا الجدال العلمى حول النظرية التى كانت تقول : إن الشمس قد تكثفت فى قلب السديم الخالص المفرد single nebula كما تكثفت الأرض والكواكب الأخرى داخل الأسطوانية السديمية دون وجود لأى عوالم أخرى ، وهى العوالم التى أمكن رصدها بعد اختراع التلسكوبات الحديثة مما قوّض دعائم النظرية القديمة تماما . وهنالك ملاحظة ذات أهمية رئيسية بالنسبة لموضوعنا هذا وهى أن تكوّنَ وخلْقَ العناصر السماوية مثل الشمس وتكوُّنَ وخلْقَ الأرض لم يحدثا فى وقت واحد وإن كان منشؤهما من أصل واحد .

والعلم الحديث يعطينا معلومات محددة عن التوقيت بالنسبة لهذه الأحداث.

وإذا كنا نقدر أقدمية مجرتنا بحوالى عشرة مليارات من السنين ، نجد أن العلماء يقدرون أقدمية النظام الشمس ككل بعد ذلك بأكثر من خمسة مليارات من السنين . ودراسة الإشعاع الذاتى الطبيعى تسمح بأن يحدد عمر الأرض عند تكوُّن الشمس بحوالى أربعة مليارات ونصف المليار من السنين وذلك بنسبة احتمال خطأ لا يزيد على ١٠٠ مليون سنة ، وهذه دقة مثيرة للإعجاب إذ إن هذه المئة مليون سنة تمثل نسبة خطأ ضئيلة بالنسبة إلى الزمن الكلى لعمر الأرض والمجموعة الشمسية هى $\frac{١٠٠}{٤,٥}$ أى أن النسبة المئوية هى ٢,٢ ٪ .

وهكذا توصل علماء الفلك فى العصر الحديث إلى درجة متقدمة من المعرفة بتطور تكوين

(١) المؤلف هنا – كما هو واضح– يقدم وجهة نظر العلم الحديث فى كيفية خلق الكون وفقا لأحدث نظريات علم الفلك التى وصلت إليها مدارك البشر . (المترجم) .

العالم والنظام الشمسى ويمكن تلخيصه فيما يلى :

تكثُّف انكماش مادة غازية تتحرك حول محورها Condesation and contraction of a rotating gaseous mass .

ثم انفصال لأجزاء ضخمة الحجم تركت الشمس وكواكب أخرى فى أماكنها ، ومن بينها الأرض[1] والمعلومات التى يقدمها لنا العلم عن السديم الأولىّ Primary nebula وعن الطريقة التى انشطر بها إلى مجرات النجوم المتعددة glaxies لا تدع مجالا للشك فى حقيقة وجود عوالم متعددة The plurality of worlds ولكنها على كل حال لا تؤكد وجود عالم مماثل تماما للأرض .

حقيقة وجود عوالم متعددة(*)

The Concept of the plurality of worlds

على الرغم من أن علماء الفلك لا يملكون حتى الآن الأدلة القاطعة على وجود مخلوقات حية على الكواكب الأخرى من عدمه إلا أن كثيرا من علماء الفلك يرون أن وجود حياة لكائنات حية فى كواكب أخرى غير الأرض إنما هو أمر ممكن الاحتمال بل يرجحه كثير من علماء الفلك المعاصرين ، وإن رجحوا أيضا وجود وجوه للاختلاف فى مصاحبة وجوه الشبه بين الكائنات الحية فى كواكب أخرى غير الأرض التى نعيش عليها وفى نطاق مجموعتنا الشمسية . وعلينا أن نبحث عن ظروف وإمكانات الحياة خارج مجموعتنا الشمسية أيضا . وبعض علماء الفلك يعتقدون ويصرحون أن وجود مثل هذه الظروف الدالة على وجود كائنات حية ومخلوقات عاقلة خارج المجموعة الشمسية ممكن للأسباب الآتية :

يرى بعض علماء الفلك فى عصرنا الحديث أن خمسين مليار نجم فى مجرتنا لابد أن يكون لها – مثل الشمس – نظامها الكوكبى ، وحقيقة الأمر هى أن لكل نجم من هذه الخمسين مليار نجم دورته البطيئة مثل الشمس . وهذه الخاصية تدعو إلى الاعتقاد بوجود كواكب تابعة للنجوم تدور فى فلكها . إن البعد الكبير الشاسع عن هذه النجوم يفضى إلى نتيجة أنه لا يمكن ملاحظة الكواكب التابعة لكل نجم فى مجرة غير مجرتنا الشمسية وإن كان هنالك احتمال كبير لوجود مدارات لها . ويدل التموُّج الخفيف حول النجوم فى المجرات الأخرى على بعض صفات «المدار» الذى يلازم النجم ويحدد مسار أحد توابعه .

ولهذا السبب يعتقد بعض علماء الفلك أن للنجم المسمى باسم «بارنارد Barnard" تابعا واحدا

(١) س فيما يتعلق بالقمر فهنالك معقولية لانفصاله عن الأرض نتيجة تباطؤ دورانه . (المؤلف) .

* من المعروف أن القرآن الكريم يشير بوضوح إلى وجود عوالم متعددة دون ذكر أى تفاصيل إذ أن الله هو «رب العالمين» (المترجم) .

لتميز مدار واحد حوله تفوق كتلته كتلة كوكب المشترى، بينما يعتقد بعض علماء الفلك الآخرون أن للنجم بارنارد تابعين وليس تابعا واحدا . ويقول عالم الفلك ب . جيرين P . Guerin ما نصه كما يلى:«من الواضح أن النظم الكوكبية منتشرة فى الكون بكثرة شديدة . وليس النظام المتعلق بالشمس والنظام المتعلق بالأرض فريدين ...» ثم يستطرد من هذا المنطلق ليقول أيضا :«وتستلزم هذه الحقيقة أن الحياة المماثلة للحياة على كوكبنا منتشرة بالكون فى كثير من المجرات الأخرى . وفى كل مكان تتوافر فيه الظروف الفيزيقية والكيميائية الملائمة لوجود حياة توجد حياة وتتفتح وتتطور ..»

مادة شائعة فى الكون بين النجوم

Interstellar Material

تَشَكَّلَ الكَوْنُ أساسا من تكاثف السديم الأوّلىّ كما سبق أن أشرنا ثم حدثت فيه عمليات انفصال لكُتَلٍ بالغة الضخامة شكلت كل منها كوكبا حوله مجرات لتوابعه . وقد تركت هذه العمليات الانشطارية مجموعات من العناصر الرئيسية نتيجة للغازات والسوائل والأبخرة هى نتائج للتفاعلات الضخمة يطلق عليها علماء الفلك اسم البواقى أو المادة الكونية interstellar galactic material وهى منتشرة بين النجوم . وتوصف هذه المادة بأوصاف متعددة ، فهى توصف أحيانا باعتبار أنها سُدُمٌ شديدة البريق تنشر وتعكس أضواء استقبلتها من النجوم المحيطة بها ، وتوصف أحيانا أخرى باعتبار أنها «غبار» أو «أدخنة» حسب تعبير علماء الفلك ، وتوصف أحيانا أخرى باعتبار أنها سُدُمٌ مظلمة ذات كثافة قليلة، أو باعتبار أنها مجرد مادة كونية منتشرة بين النجوم دون تحديد لصفاتها أو مكوناتها ودون ثبات لها ، وهى تعوق المقاييس الفوتومترية فى علم الفلك ، ولا شك لدى علماء الفلك فى وجود جسور من تلك المادة بين المجرّات . وعلى الرغم من أن هذه المادة مادة مخلخلة متغيرة التكوين متغيرة الشكل والقوام بسبب الفراغ الهائل الذى تشغله وتتحرك فيه وبسبب التفاعلات المتغيرة المؤثرة فى تركيبها ، على الرغم من كل ذلك نجد أن هذه المادة تشكّلُ حَجْماً يفوق أحجام المجرات جميعها مع ضعف كثافة هذه المادة . ويعلق أ . بواشو A. Boi-chot أهمية كبيرة على وجود هذه المادة فى الكون إذ إنه من شأنها تعديل الأفكار الخاصة بتطور الكون من وجهة نظره .

بَيْن حقائق العلم عن الكون وبَيْنَ القرآن

Confrontation with the Data in the Qur'an concerning the Creation .

سنفحص فيما يلى النقاط الخمس الرئيسية التى يعطينا القرآن الكريم معلومات عنها فيما يتعلق بعملية خَلْق الله للكون Creation :

(أ) إن الأطوار الستة The six periods لخلْق السموات والأرض كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم قد اشتملت على تكوين الأجرام السماوية وتكوين الأرض وما يستلزمه تكوين الأرض من لوزام معيشة الإنسان عليها مثل الماء والأقوات والهواء وغير ذلك ، بحيث تصبح الأرض صالحة لسكنى الإنسان ومعيشته على الأرض . ولقد تَمَّتْ الأحداث المتعلقة بخلق الأرض وفقا لما يخبرنا به القرآن خلال أربع مراحل[١] . ونسأل هاهنا : هل يمكن لنا أن نعتبر أن هذه المراحل الأربعة تعنى العصور الجيولوجية فى نظر علماء الجيولوجيا والفلك فى العصر الحديث ، وهى العصور التى يجمع العلماء على أن الإنسان لم يظهر فى أولها ولا ثانيها ولا ثالثها ، بل ظهر الإنسان فوق سطح الأرض فى العصر الجيولوجى الرابع ؟ إن هذا من جانبى ليس إلا مجرد افتراض حيث إنه لا يستطيع أحد أن يقطع برأى فى هذا الصدد .

ولكن ينبغى لنا أن نلاحظ على كل حال أن تكوين الأجرام السماوية والأرض فيما يخبرنا به القرآن الكريم قد تم فى مراحل وذلك فِي الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فُصِّلَتْ كما سبق أن أشرنا . ونلاحظ أيضا أن العلم الحديث يُطْلِعُنا على أن تكوين الشمس وتكوين الأرض كتابع لها قد تم من خلال تكاثف السديم الأولى فى مراحل استغرق كل منها قرونا من الزمان حتى تم انفصال الأرض فى مدار لها حول الشمس ، وهو نفس الشىء الذى عَبَّرَ عنه القرآن الكريم بشكل صريح عندما أشار إلى عملية خلق السماء من دخان ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ، ومن هنا نستطيع أن نؤكد التطابق بين حقائق القرآن[٢] وحقائق العلم الحديث .

---

(١) يعتمد المؤلف فى تصوره هذا على قول الله سبحانه وتعالى فى سورة فُصِّلَتْ : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت : ١٠] ولقد سبق أن أوضح المؤلف أن تعبير «فى أربعة أيام» لا يعنى اليوم من أيام الأسبوع بل يعنى حقبا طويلة من الزمان قد تمتد الواحدة منها بضعة قرون من الزمان وذلك استنادا إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧] . وقد سبق بيان ذلك (المترجم) .

(٢) قد يكون من المفيد هنا أن نذكر التعبير الإنجليزى للمؤلف فى هذا الصدد وهو كما يلى : Hence, There is complete correspondence between the facts of the Qur'an and the Facts of science .

(٢) لقد أوضح العلم الحديث التداخل بين نجم مثل الشمس ، وتابع لها مثل الأرض ثم انفصال التابع عن النجم فى مدار حوله . وهذا التداخل والتخارج واضح كل الوضوح فى القرآن الكريم فى الآيات التى سبق أن أشرنا إليها .

(٣) وجود حالة مرحلية من مراحل تكوُّن العالم على شكل دخان smoke التى أشار إليها القرآن الكريم مما يعنى مرحلة أولية غازية للمادة التى نشأ منها الكون يتسق تمام الاتساق مع المفهوم العلمى الذى مؤداه وجود المادة السديمية الأولية Primary nebula التى تكوَّن منها العالم فى نشأته الأولى كما يقدمها لنا العلم الحديث .

(٤) إن تعدد السموات The Plurality of Heavens الذى أشار إليه القرآن الكريم سواء باستخدام الرقم (٧) أو بدون استخدام هذا الرقم الذى سبق لنا أن أوضحنا أنه يجوز أن يشير إلى مجرد التعدد والكثرة يتسق تماما مع اكتشافات العلم الحديث ؛ وذلك بفضل اكتشافات علماء الفلك لمجموعات أخرى من المجرات ، مما يؤكد أن مجرتنا ليست هى المجرة الوحيدة ، وكذلك اكتشاف علماء الفلك لوجود كواكب كثيرة تشبه كوكبنا الأرضى الذى نعيش عليه – على الأقل فى بعض الجوانب – وإذا كان العلم الحديث لم يصل بعد إلى الحقائق الكاملة فى هذا الصدد فإن العلماء المتخصصين يؤكدون أن هذا الافتراض القائل بوجود مخلوقات حية فى كواكب أخرى افتراض معقول ويسعون فى جمع الأدلة المؤكدة له .

(٥) وجود مخلوقات بين السموات والأرض الذى يعبر عنه القرآن فى مواضع كثيرة بتعبير هو «**السموات والأرض وما بينهما**» قد يعنى ما توصل العلماء إلى اكتشافه من وجود مادة وسيطة تعمل كقنطرة بين الأفلاك المتعددة فى الكون .

وعلى الرغم من أن كل ما صرح به القرآن الكريم من تصريحات عن الكون الذى خلقه الله لم يقدم لها العلم الحديث كلها دون استثناء الأدلة المقررة لصحتها نجد أنه لم يثبت العلم الحديث وجود حقيقة علمية واحدة تتناقض وتتعارض مع حقيقة ذكرها القرآن الكريم عن كيفية نشأة الكون . وهذه مسألة تستحق الالتفات بشأن حقائق القرآن الكريم عن الكون . هنالك حقائق ذكرها القرآن الكريم فى هذا الصدد تؤكدها حقائق العلم الحديث ، وحقائق ذكرها القرآن الكريم لم يتمكن العلم الحديث من تأكيدها حتى الآن، وربما يتضح ثبوتها علميا فيما بعد . ولكن الحقيقة المؤكدة هى أن العلم الحديث لم يناقض أبدا حقيقة من الحقائق التى ذكرها القرآن الكريم عن نشأة الكون . هذا ، على حين أننا نجد أن العهد القديم بحالته الراهنة وبنصوصه الموجودة بين أيدينا اليوم قد قَدَّمَ فى هذا الصدد معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية كما

سبق أن أوضحنا . وكيف لا نندهش لهذا الاعتبار وخصوصا عندما نعلم أن النصوص التى وصلت إلينا من العهد القديم المتصلة برواية العهد القديم عن كيفية خلق الكون قد كتبت بأقلام كهنة عصر النفى البابلى ، وقد كان لهؤلاء الكهنة ثقافة فلكية متقدمة فى عصرهم كما كانت لهم أهداف تشريعية ومعتقدات دينية حاولوا الترويج لها مثل ضرورة الراحة يوم السبت ، فاصطنعوا لتلك الأهداف روايات تتفق مع معلوماتهم الفلكية وأهدافهم التشريعية واللاهوتية بوجه عام . إن وجود هذا الاختلاف من حيث مناقضة العلم الحديث لبعض معطيات التوراة عن خلق الكون وعدم مناقضة العلم لأى معطيات فى هذا الصدد جدير بالاهتمام والتنويه ، وهو يدحض تلك الاتهامات التى وجهها بعض الناس ، وهى اتهامات سطحية زائفة تتهم نبى الإسلام محمدا ﷺ منذ بدء الإسلام بأنه نقل روايات التوراة فى القرآن الكريم ، وها نحن أولاء نشهد أنه فيما يتعلق بخلق الكون لا يجد هذا الاتهام أى أساس من الصحة ، إذ كشف العلم الحديث وجود أخطاء فيما قررته التوراة بخصوص خلق الكون ، ولم يكشف العلم الحديث عن وجود أى أخطاء فيما قرره القرآن الكريم عن خلق الكون . ويغدو السؤال هو : كيف كان يمكن لإنسان، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان تقريبا ، أن يصحح إلى هذا الحد الرواية التى أشاعتها نصوص التوراة عن كيفية خلق الله للكون وذلك باستبعاد الأخطاء العلمية الموجودة فى التوراة فى هذا الصدد ثم التصريح بحقائق متصلة بكيفية خلق الله للكون ويثبت العلم الحديث أخيرا صحتها فى عصرنا الحديث؟! هذه مسألة لاجدال فيها . إن القرآن الكريم يعطى عن كيفية خلق الكون رواية تختلف تماما عن رواية التوراة .

ردود على بعض الاعتراضات

Answerss to Certain Objections

لا جدال فى وجود بعض التشابه بين روايات التوراة والأناجيل وبعض ما يرويه لنا القرآن فى موضوعات أخرى فى تاريخ الأديان بوجه عام . وعلى الرغم من أن المسيح لم يأت لكى ينقض التوراة لم يتهمه أحد بأنه قد قام فى الإنجيل بتقليد التوراة ، بينما نجد هذا الاتهام يوجه إلى نبى الإسلام محمد ﷺ بما يعنى أن نبى الإسلام محمدا ﷺ كان مجرد دجال imposter أفاك ، والقرآن الذى قال إن الله قد أوحاه إليه هو مجرد تقليد للتوراة . وهنالك أيضا الاتهام بأن بعض أحبار اليهود أو بعض رهبان المسيحية هم الذين أملوا عليه نصوص القرآن مشابهة لنصوص التوراة وتقليدا لها . وليس هنالك دليل أى دليل على مثل هذا الادعاء أو ذلك الاتهام[1] . ويشير ر . بلانشير R . Blanchere إلى زيف وفساد هذا الاتهام فى كتابه المعنون بعنوان :«مشكلة محمد» بقوله :« وهنالك أيضا من يقطع بفساد هذا الاتهام بأن القرآن الكريم هو مجرد تقليد للتوراة والأناجيل على أساس وجود تشابه فى بعض الأفكار والمعتقدات بأن بعض الأفكار والمعتقدات الموجودة والتى تصادف ورودها فى التوراة والأناجيل والقرآن موجودة أيضا فى تراث الإنسانية قبل التوراة والأناجيل» .

وبطريقة أكثر وضوحا يمكن لنا القول بأننا نستطيع أن نجد فى التوراة رائحة وآثار بعض الأساطير القديمة التى كان وجودها سابقا لوجود نصوص التوراة بشأن نشأة وتكوين العالم مثل اعتقاد البولينزيين Polynesiens بوجود سوائل أولية فى ظلمات الكون انفصل عنها عند ظهور النور الكواكب مثل الشمس والأرض . وعندما نقارن هذه الأسطورة القديمة برواية التوراة عن خلق الكون نجد تشابها لا ريب فيه . ومن غير المستساغ قطعا اتهام التوراة بأنها قد اقتبست أفكارا من مثل هذه الأسطورة وأدخلتها فى نصوص التوراة .

ومن سخف القول أن يقول قائل بالمثل : إن ما ذكره القرآن عن الرتق والفتق وهو نفس مفهوم العلم الحديث فى هذا الصدد إنما هو مستمد من الأساطير القديمة المختلفة عن نشوء الكون التى تعبر عن شىء مشابه بشكل أو بآخر .

ويجدر بنا أن نعرض بشىء من الدراسة لهذه الأساطير ذاتها . إننا نجد فيها أحيانا شيئا معقولا ، ولكنه يختلط بأشياء كثيرة غير معقولة . ومن أمثلة الأشياء المعقولة فى هذه الأساطير القديمة هو

---

(١) لقد دحر القرآن الكريم بنص قرآنى هو كلام الله الادعاء القائل بأن أحد اليهود أو أحد النصارى هو الذى كان يعلم سيدنا ﷺ ويملى عليه القرآن وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] . واليهود والنصارى الذين لجأوا إلى شبه الجزيرة العربية كانوا يتكلمون لغات أخرى غير اللغة العربية ولاتعتبر اللغة العربية لغة أصلية لديهم ، فكيف يصل أحدهم إلى بلاغة القرآن ؟ إن هذا مستحيل ولو علّمه إنسان لأشاد بأنه قد علّم نبىّ الإسلام ولاشتهر ذلك بين الأنام مما يقطع بسقوط هذه الفرية . (المترجم) .

القول بمادة أولية انفصل عنها العالم الذى نعيش فيه أو تطور منها أو نشأ عنها .

وفى الأساطير اليابانية أيضا نجد أن هذه الأساطير قد صورت الكون فى البداية فى حالة اضطراب وفوضى واختلاط ، كان للكون فيه شكل خليط غير واضح المعالم مثل المادة الموجودة داخل البيضة ، ثم خرجت الأرض من هذا الخليط كما يخرج الكتكوت من البيضة . وهكذا أفقدت هذه الإضافة الخيالية أى قيمة لافتراض مادة أولية نشأ منها الكون.

وفى أساطير أخرى نجد أن الأرض قد نبت فيها نباتات قوية فارعة الطول رفعت الأرض عن السماء . وهنا أيضا نجد شيئا من الوهم والخرافة التى لا تثبت لأى تمحيص علمى عندما نسأل : أين هى هذه النباتات؟ وماذا حدث لها؟ ولماذا لم تنطبق السماء على الأرض بعد زوال هذه النباتات إذ أنها غير موجودة الآن ولم تنطبق السماء على الأرض؟

مثل هذه الأساطير وإن تضمنت فكرة «المادة الأولى» التى انفصل عنها الكون إلا أنها تضيف إلى هذه الفكرة خرافات تفسدها وتؤكد على الاختلاف العميق بينها وبين القرآن الكريم الذى يتصف بالإيجاز والبعد عن الخرافات والاتساق التام مع العلم الحديث مما يقطع بالمصدر الإلهى للقرآن ويؤكد استحالة أن يكون من إنشاء بشر .

عِلمُ الفلكِ في القرآن

Astronomy in the Qur'an

القرآن الكريم مَلِيءٌ بالأفكار عن السموات ، وفى الفصل السابق عن خَلْقِ العالم رأينا كيف تَمَّتْ إشارة القرآن الكريم إلى تعدد السموات عند إشاراته المتكررة إلى ذكر السموات والأرض . ورأينا أيضا إشارة القرآن الكريم إلى وجود مادة وسيطة بين الكواكب والأجرام السماوية عند الإشارة فى القرآن عن «السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى» وهو مَادلَّ العلم الحديث على صحة وجوده . وهكذا نجد أن آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن خلق الله للكون قد تحدثت وأعطت فكرة عامة عما يوجد فى السموات المتعددة ، أى عما يوجد خارج كوكبنا الذى نعيش عليه : الأرض .

وبالإضافة إلى آيات القرآن الكريم التى تصف عملية الخلق Creation بوجه خاص يوجد حوالى أربعين آية بالقرآن الكريم تمدنا بمعلومات توضيحية فى علم الفلك Astronomy مكملة ما سبق على الرغم من أن السياق الذى توجد فيه هذه الآيات هو الإشادة بعظمة الله الخالق وحكمته ودقيق وبديع صنعه فيما خلق فى نظام دقيق محكم الصنع . ولقد أوضح لنا عالم مثل «نيوتن Newton" » بمقدرته العلمية الفائقة بعض مظاهر ومجالى هذه الدقة والحكمة الإلهية فى خلق

العالم فى قوانين الجاذبية بين الأجرام وغيرها من القوانين العلمية التى اكتشفها إسحاق نيوتن .

وأول آيات القرآن الكريم التى نذكرها هنا لا نقصد منها إلى شيء سوى التمهيد للتحليل العلمى لمضمونها . إنها تلفت نظرنا فحسب إلى عظيم قدرة الله الخالق God's Omnipotence وهذه الآيات التى نقتبسها هنا من القرآن الكريم قد وصفت لنا الطريقة التى عرض بها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان كيفية خلق الله للكون .

إن هذه الإشارة العلمية التى تتضمنها هذه الآيات تشكل حدثا جديدا فى صور الكلام الإلهى الذى أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام . ولا يوجد لها نظير فى التوراة (العهد القديم) أو فى الأناجيل (بالعهد الجديد) وذلك باستثناء بعض المفاهيم التى عرضتها التوراة ، ورأينا من قبل عدم اتساقها مع معطيات العلم الحديث . أما القرآن الكريم، فالمعطيات التى قدمها لنا مهمة من الناحية العلمية ، وما أمسك القرآن الكريم عن ذكره أيضا مهم إذ أن القرآن الكريم لا يقدم لنا مجرد معلومات علمية بشأن الكون ونشأته كانت معروفة للناس فى عصر نزوله ، بل قدم لنا بعض الحقائق العلمية التى لم تكن معروفة فى زمن نزوله واتضح صوابها ومطابقتها لصحيح المعلومات العلمية التى تم اكتشافها فحسب فى العصر الحديث ، ولم يقدم لنا القرآن الكريم معلومة واحدة عن خلق العالم استطاع العلم الحديث أن يثبت أنها غير صحيحة[1] ، وسنقدم فيما يلى الأمثلة الموضحة لذلك .

أ- معلومات عامة عن السماء

A - General Reflections Concerning The Sky

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢] .

وتدحض الآيتان الأخيرتان الاعتقاد القائل : بعدم إطباق السماء على الأرض لوجود أعمدة فى أماكن لا نراها تحول دون هذا الإطباق إذ يؤكد القرآن الكريم عدم وجود مثل هذه الأعمدة المزعومة ، ولكن السماء لا تطبق على الأرض بفضل قدرة الله ومشيئته وإرادته وبديع صُنْعه .

---

(١) يضيف المؤلف ملاحظة هامشية تقول : يحاول بعض النقاد القول بأن ما ذكره القرآن من حقائق الفلك مَرَدّه إلى تقدم العرب فى علوم الفلك ولكن هذا التقدم كان بعد نزوله .

ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى مواضع كثيرة أخرى مثل :

﴿ **والسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾ [**الرحمن** : ٧] .

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [**الحج** : ٦٥] .

ومن المعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ذات تناسب طردى مع كتل هذه الأجرام يشكل أساس توازنها . ومن هنا تتضح دلالة تعبير مثل «**ووضع الميزان**» . وكُلَّما تباعدت الأجرام قَلَّتْ قوة جذب كل منها للآخر، وكلَّما تقاربت كان لكل منها تأثير على الآخر. ومن هنا يمكن أن نفهم الارتباط بين ظاهرة المد والجزر فى البحار وبين القمر إذ أن القمر هو الأشد قربا من الأرض ، وبتأثير قانون الجاذبية نجد أن القمر الأكثر قربا من الأرض هو الذى يؤثر فى ظاهرة المد والجزر فى مياه البحار كما يؤكد ذلك علم الفلك ، ولو حدث تقارب شديد بين جرمين سماويين لأفضى ذلك إلى اصطدامهما لا محالة ، ومن هنا يبرز أهمية الحفاظ المستمر على مسافات معينة بين الأجرام السماوية فى حركتها . والخضوع لهذا التوازن فى المسافات بين الأجرام السماوية هو الشرط الأساسى لعدم اصطدامها وعدم وجود اضطرابات كونية كبرى ، ويعبر القرآن الكريم عن أن مثل هذه الحالات لا تحدث فى الكون «إلا بإذنه» أى بإرادة الله ومشيئته ، وعدم اصطدام الأجرام السماوية فيه رحمة من الله بالناس كما يصرح بذلك القرآن الكريم . ومن ثم نجد أن القرآن الكريم كثيرا ما يذكر خضوع السموات لأمر الله ، ولذلك نجد أن القرآن الكريم فى سورة «المؤمنون» يقول الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ [**المؤمنون** : ٨٦] .

ولقد سبق أن أوضحنا أن السموات السبع تعنى تعدد السموات . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [**الجاثية** : ١٣] . **وأيضا** : ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ [**الرحمن** : ٥] .

﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)** ﴾ [**الأنعام** : ٩٦] . **وأيضا** :

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ [**إبراهيم** : ٣٣] .

والتعبير عن الدأب فى حركة الشمس والقمر فى هذه الآية يدل على السعى المقصود والحركة المحددة المستمرة ، ويدل على الانتظام فى حركة الأجرام السماوية . ولقد عبر القرآن الكريم عن ذلك فى هذا النص من القرآن الكريم باستخدام اسم الفاعل لفعل يدأب ليعطى معنى «الاجتهاد فى عمل شىء ما بعناية وبشكل دائم لا يتغير حسب نظام ثابت متعمد» (انظر الزمخشرى –

الجزء الثانى – ص٣٠٣ – ترجمة حمزة أبى بكر لمعانى القرآن –١٩٧٢ ويقول الله سبحانه وتعالى

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس : ٣٩] .

وفيه إشارة إلى شكل الهلال الذى يشبه تقوُّسه تقوسَ عرجون النخل عندما ينضج ويجف ويأخذ شكله النهائى . وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل فيما بعد.

ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ١٢] .

ويؤكد القرآن الكريم الارتباط بين كيفية بناء السماء وما فيها من نجوم وكواكب وبين حياة الإنسان على الأرض وانتقاله فى أرجائها وحساب الوقت، وقد تم ذلك باستخدام أسلوب فى صياغة الكلام يناسب الناس وقت نزول القرآن الكريم ، ويناسب الناس أيضا في العصر الحديث بعد تقدم المدارك والمعارف، كما يتمثل ذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧] . وأيضا: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٥، ١٦] . وأيضا :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٥، ٦] .

ومن الضرورى أن نقف إزاء الشمس والقمر فى الآية الخامسة من سورة يونس وقفة تأمل ودراسة . وعلى حين أننا نجد أن التوراة تعتبر أن الشمس والقمر كوكبين منيرين ولا تميز بينهما إلا من حيث الحجم نجد أن القرآن الكريم يفرق بينهما من حيث الإنارة فنجده يستخدم لفظ «الضياء» بالنسبة للشمس ، ولفظ «النور» بالنسبة للقمر . وعلى الرغم من أن طريقة القرآن الكريم فى التعبير عن الفرق بين الشمس والقمر على هذا النحو تناسب تماما مدارك الناس وقت نزول القرآن الكريم إلا أننا نجد وراء هذه التفرقة بين ضوء الشمس ونور القمر أسرارا وحقائق علمية لم يكتشف العلم أسرارها إلا فى العصر الحديث، وهو ما سوف نتناوله بالدراسة فيما بعد ليتضح لنا أن الشمس والقمر ليسا كوكبين منيرين من طبيعة واحدة ولا يفرق بينهما إلا الحجم كما هو شأنهما فى التوراة .

ب - طبيعة الأجرام السماوية

b) Nature of Heavenly Bodies

الشمس والقمر

The Sun and The Moon

للشمس ضياء وللقمر نور فى القرآن الكريم ، وربما يبدو الفرق بين الضياء والنور ضئيلا لأول وهلة ، ولذلك وحتى يزداد هذا الفرق وضوحا نجد أن القرآن الكريم يوضح الفرق بين طبيعة الشمس وطبيعة القمر فى مقارنات أخرى مثل :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان : ٦١] .

وأيضا :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٢ ، ١٣] .

باطراد نجد القرآن يعتبر القمر جسما «منيراً» أما الشمس فالقرآن يصفها بأنها «السراج الوهاج» . ولقد كان الإنسان فى عصر سيدنا محمد ﷺ يستطيع مجرد التفرقة بين الشمس التى تطلع بالنهار ، وبين القمر الذى يظهر «منيرا» فى ظلمات الليل . ويهمنا إبراز حقيقتين : أولاهما هى بساطة مثل هذه التفرقة بين الشمس والقمر ، وثانيتهما هى أن هذه التفرقة تنطوى على حقائق علمية لم يتوصل إليها العلم الحديث إلا فى العقود الأخيرة من القرن العشرين دون وجود أى تناقض بين الحقائق التى يعرض لها القرآن الكريم بالذكر وبين الحقائق العلمية التى يتوصل إليها العلماء فى العصر الحديث بالتجارب العلمية المضبوطة وبالمناهج العلمية الصحيحة .

لقد أصبح من المعروف الآن أن الشمس نجم ينتج عن احتراقه الداخلى حرارة شديدة وضوء شديد أى أن الشمس مضيئة بذاتها ، أما القمر فهو ليس مضيئا بذاته بل يعكس القمر فحسب الضوء الذى يستقبله من الشمس ، كما أن القمر ليس سطحه مشتعلا . ومن ذلك يتضح أنه لا يوجد شىء فى القرآن الكريم يناقض ما نعرفه من خلال المناهج العلمية الحديثة بشأن هذين الجرمين من الأجرام السماوية .

النجوم *Stars*

النجوم كما نعرف أجرام سماوية مثل الشمس ، وأهم ما نشاهده من هذه النجوم هو أنها تنتج ضوءا يجعل لها بريقها الخاص بها .

وتظهر كلمة «نجم» وجمعها «نجوم» فى القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة . والفعل هو : «نَجَمَ» بمعنى : ظَهَرَ . أمكن رؤيته . وكلمة نجم تعنى فى الاستخدام العادى الجرم السماوى المرئى دون تحديد لطبيعته ، ودون اهتمام بما إذا كان هذا النجم مصدرا للضوء مُشعّا له أو مستقبلا لضوء نجم آخر عاكس له. وكثيرا ما نجد كلمة النجم فى القرآن الكريم موصوفة بصفة من الصفات مثل: ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ [**الطارق** : ١ - ٣] .

والمعنى أنه النجم الذى يخترق نوره ظلمات الليل . ولقد ورد بالقرآن استخدام صفة «الثاقب» أيضا بالنسبة إلى «النيازك Shooting Stars"

مثل : ﴿ **إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ [**الصافات** : ١٠] .

وهذه النيازك أو النجوم الثاقبة[١] هى ناتج عملية احتراق combustion .

الكواكب *The Planets*

من الصعب أن نقول إن الكواكب مذكورة فى القرآن الكريم بالمعنى العلمى المحدد للكواكب لدى علماء الفلك فى العصر الحديث . إن الكواكب غير مضيئة بضوئها الذاتى النابع منها . إنها تدور حول الشمس . والأرض التى نعيش عليها إنما هى كوكب من الكواكب . ولا نعرف لهذه الكواكب وجودا خارج المجموعة الشمسية ، ولا يزيد إمكانية وجود كواكب خارج مجموعتنا الشمسية عن مجرد افتراض لم يثبت علميا حتى الآن .

ولقد كان علماء الفلك فى العصور القديمة يعرفون خمسة كواكب بالإضافة إلى الأرض وهى عطارد Mercury وڤينوس venus والمريخ Mars والمشترى Jupiter وزحل Saturn ثم توالى اكتشاف علماء الفلك لثلاثة كواكب أخرى هى أورانوس Uranus ونبتون Neptune وبلوتو Pluto

والقرآن الكريم يشير إلى الكواكب غالبا فى صيغة الجمع «كواكب» دون تحديد قاطع لعددها. وتشير رؤيا سيدنا يوسف إلى أحد عشر كوكبا فى قول الله سبحانه ﴿ **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ [**يوسف** : ٤] .

---

(١) يلاحظ المترجم أن اتصاف النيازك بالاشتعال والقدرة على الاختراق يجعلها مناسبة للاستخدام فى صعق ما يشاء الله صعقه كما هو الشأن فى الآية العاشرة من سورة الصافات . (المترجم) .

ومن الواضح أن هذا حلم ارتآه سيدنا يوسف يتصل بعالم الأحلام[1] ولا يصف الواقع . ويبدو أنه يوجد تعريف دقيق للكواكب بالمعنى العلمى الموجود لدينا الآن يدل على استخدام القرآن الكريم لكلمة الكوكب بالمعنى العلمى الدقيق الذى حدده علماء الفلك للكواكب وذلك فى قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٣٥] .

فى هذه الآية نجد أن استخدام كلمة «كوكب» إنما هو استخدام لها بالمعنى العلمى الحديث الدقيق لكلمة «الكوكب» فالكوكب الدرى فى هذه الآية «لا يضىء بذاته» بل «يوقد» من شجرة مباركة ، والزجاجة التى يشبهها «الكوكب» «لا تضىء بذاتها» بل فيها مصباح بالمشكاة هو مصدر الضوء ، أو النور الذى ينعكس على الزجاجة فتغدو مثل كوكب دُرِّىٌّ ... ... إن هذا التفصيل التوضيحى يعطينا المعنى العلمى الحديث للكوكب.

وكلمة «كوكب» قد تم ذكرها فى آيات أخرى ، لا يتضح منها معنى الكوكب المتعارف عليه كما هو محدد فى الآية الخامسة والثلاثين من سورة النور وكما يحدده العلماء فى العصر الحديث. يكفى أن القرآن قد استخدم الكلمة بمعناها العلمى الصحيح الذى تم اكتشافه حديثا فى الموضع الذى أشرنا إليه . وفى قول القرآن الكريم : ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ** ﴾ [**سورة الصافات** : ٦] ما يجعلنا نسأل عما إذا كان القرآن يشير بتعبير «السماء الدنيا» إلى «مجموعتنا الشمسية» إذ أسلفنا أن «الكواكب» لا توجد إلا فى مجموعتنا الشمسية ولا توجد كواكب فى المجرات الأخرى . وهكذا يتسق القرآن تمام الاتساق فى هذا الصدد أيضا مع معطيات العلم الحديث .

السماء الدنيا *The Lowest Heaven*

يذكر القرآن الكريم السماء الدنيا مرات كثيرة عندما يذكر الأجرام السماوية التى تتكون منها السماء . وأول ما يظهر من السماء هو الكواكب Planets فى الغالب الأعم كما سبق أن أوضحنا . ولكن معانى الآيات المتعلقة بالسماء الدنيا تصبح ذات طابع روحى عندما يتحدث القرآن

(١) لم يحدد القرآن الكريم عدد الكواكب تحديدا صريحا قاطعا وفى ذلك حكمة إلهية بالغة . إن هذه الكواكب موجودة فى مجموعتها الشمسية ، ويمكن بطبيعة الحال الوصول إلى عددها . ولقد تم عدها فى أوقات مختلفة . ماذا يحدث عندما يكتشف العلماء كوكبا جديدا ؟ هل يكذبون القرآن قبل اكتشافه ؟ أو يكذبون القرآن بعد اكتشافه ؟ لم يدع الله مجالا واحدا للعلم كى يكذب معلومة واحدة من المعلومات التى أوردها القرآن ، وربما يصح حلم سيدنا يوسف . (المترجم) .

الكريم عن السماء وما فيها من آيات تدل على قدرة الله وحكمته وبديع صنعته . يمكن لنا فهم الآية السادسة من سورة الصافات فى إطار العلم الحديث ولكن الآية التالية لها مباشرة تتحدث عن حفْظ السماء من كل شيطان مارد مما يجعل النطاق العلمى قاصرا عن البحث فى هذا الصدد . إن لمثل هذه الآيات طابع روحى آخر بطبيعة الحال .

إن أى تأملات أو ملاحظات فى مثل هذه الموضوعات لا يمكن قياسها بمقياس العلوم الوضعية المتعارف عليها ، واعتبار أن النيازك إنما هى رجوم للشياطين مسألة لا يمكن إخضاعها لضوابط البحث العلمى حيث إن لها مجالها الروحى بغير شك . والمعطيات العلمية الحديثة لا يبدو لنا أنها تستطيع أن تلقى أى ضوء على موضوعات تفوق بطبيعتها المجالات المتاحة للإدراك الإنسانى .

(جـ) البنية السماوية

(C) Celestial Organization

إن المعلومات التى يقدمها لنا القرآن الكريم فى هذا الموضوعات تتعلق أساسًا بالنظام الشمسى Solar System ومع ذلك نجد إشارات إلى ظواهر أخرى تتعدى نطاق النظام الشمسى ، ولقد تم اكتشاف مثل هذه الظاهرات التى تتعدى نطاق مجموعتنا الشمسية فى المراحل المتأخرة من تقدم علم الفلك الحديث .

ويوجد بالقرآن الكريم آيتان فى غاية الأهمية تتعلقان بمدار الشمس وبمدار القمر وهُمَا: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [**الأنبياء** : ٣٣] . والآية الأخرى هى : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [**يس** : ٤٠] .

وهكذا يذكر القرآن الكريم بطريقة واضحة صريحة وجود «مدار Orbit» لكل من الشمس والقمر كما يشير إلى تَنَقُّل هذين الجرمَيْن فى الفضاء ،كل يتحرك حركته الخاصة به فى مداره الخاص به المحدد له .

ولم تحدد الآية أى تفصيل لمدار الشمس بالنسبة للأرض إذ أن هذا المدار إنما هو مدار ظاهرى للشمس . وفى الوقت الذى بدأ فيه نزول القرآن الكريم كان الناس يعتقدون أن الشمس هى التى تتحرك وأن الأرض ثابتة ، وكانت الأرض تعتبر وفقا لنظرية بطليموس Ptolemy هى مركز الكون الثابت وكل الأجرام تتحرك من حولها وظل هذا المفهوم سائدا منذ القرن الثانى ق . م . حتى عصر كوبرنيكوس Copernicus فى القرن السادس عشر . وعلى الرغم من أن «ثبات الأرض» حسب نظرية بطليموس هو الذى كان سائدا لا نجد إطلاقا ما يدل عليه فى نصوص القرآن الكريم.

مَدَارُ للقمر ومدار للشمس

The Moon's Orbit & The Sun's Orbit

كلمة «الفَلَك» العربية هى المقابل العربى لكلمة orbit الإنجليزية التى درج علماء الفلك العربى على ترجمتها بكلمة «مدار» أى أن الكلمة الإنجليزية orbit تعنى «الفلك» كما تعنى «المدار» .

ولقد حيرت هذه الكلمة مفسرى القرآن الكريم القدامى إذ لم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا مدارات الكواكب السيارة فى السماء ، ولذلك تصوروا المعنى تصورا خاطئا أو على درجات متفاوتة بين الصواب والخطأ . ولقد ذكر «حمزة أبو بكر» فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم المعانى التى أعطاها المفسرون القدامى لكلمة «الفَلَك» فى قوله الله – سبحانه وتعالى – فى الآية الثالثة والثلاثين من سورة الأنبياء : ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [**الأنبياء** : ٣٣] ما يلى من معان : «الفَلَك هو كهيئة حديد الرحى . ككرة سماوية. مدار . بروج . جَرْى . سرعة. موج مكفوف ...» وأخيرا يصل بنا إلى ذلك الرأى الحكيم الذى أدلى به الطبرى ، مفسر القرن العاشر الشهير عندما قال : « ... ونسكت عما لا علم لنا فيه» . (كما ورد بتفسير الطبرى – جـ١٧ – ص١٥–١٦) . وهذا يوضح لنا كيف كان الناس عاجزين عن معرفة فكرة المدار الشمسى والمدار القمرى . والقصور هاهنا إنما هو قصور عن فهم المعنى الصحيح .

ومن ذلك يتضح لنا أن القرآن الكريم قد قدم حقائق تتعلق بالكون لم يكن فهمها على نحو صحيح متاحا للبشرية عند نزول القرآن الكريم لأن البحث العلمى لم يكن قد توصل إليها ، وكان الموقف الصحيح منها هو ذلك الموقف الذى اتخذه الطبرى عندما قال : «ونسكت عما لا علم لنا فيه» ، ولم يتضح المعنى الصحيح لمثل هذه الآيات فى القرآن الكريم إلا بعد قرون كثيرة .

١ - مَدَارُ (فلك) القمر

1 - Moon's Orbit

فى عصرنا اليوم مفهوم سائد مؤداه أن القمر يدور حول الأرض باعتبار أنه تابع لها Satellite وأنه يتم دورته حول الأرض فى تسعة وعشرين يوما . ويجب أن نصحح فكرة استدارة مدار القمر حول الأرض باعتبار أنها ليست استدارة تامة إذ أثبت علم الفلك الحديث أن مدار القمر حول الأرض ليس دائريا تمام الاستدارة ، و بُعْدُ القمر عن الأرض بمسافة ٢٤٠,٠٠٠ (مائتين وأربعين ألف ميل) ليس ثابتا مما يجعل هذا المدار بيضاوى الشكل .

ولقد رأينا فيما سبق أن القرآن الكريم قد أشار إلى فائدة القمر فى حساب الوقت وذلك فى الآية الخامسة من[1] سورة يونس التى اقتبسنا نصها فى بداية هذا الفصل من كتابنا .

ولقد انتقد كثير من الناس هذا النظام القمرى فى التقويم للأيام والشهور والسنين ، واعتبره كثير من النقاد نظاما متخلفاً ، وغير عملى ، وغير علمى بالمقارنة بنظامنا فى التقويم السنوى الذى يعتمد على دورة الأرض حول الشمس ، وهو التقويم الشمسى المعروف باعتباره أنه تقويم چوليان Julian Calendar .

وهذا الانتقاد للتقويم القمرى يقتضينا تقديم ملاحظتين :

(أ) منذ حوالى أربعة عشر قرنا من الزمان توجه الخطاب القرآنى إلى سكان الجزيرة العربية وإلى العالم من حولها ، وسكان الجزيرة العربية بوجه خاص كانوا قد تعوّدوا على التقويم القمرى فى حساب الزمن ، ولقد كان من مقتضيات ومن مستلزمات الحكمة أن يوجه الله إليهم الخطاب بشأن حساب الزمن باللغة وبالكيفية التى يفهمونها ويألفونها فى هذا الشأن العلمى البحت ، ولم يكن من الحكمة أن يتجه إليهم الخطاب الإلهى بطريقة تنقض ما تعوّدوه وألفوه ، بفرض نظام فى حساب الزمن لم يألفوه ولم يفهموه لما فيه من صعوبات ولعدم كفايته لهذه الأسباب لأداء الغرض منه . ومن المعروف أن العرب كانوا خبراء فى مجالات تفرس وملاحظة للسماء وفى مجالات الاستدلال بالقمر والنجوم لتحديد الاتجاهات ولحساب الزمن حسب مراحل ظهور القمر فى السماء . لقد كانت هذه الوسائل هى أبسط الوسائل وأكثرها فعالية بالنسبة لهم ، وكانت هى الوسائل المتبعة بالفعل فى حياتهم .

(ب) باستثناء المتخصصين فى علوم ومسائل التقويم نجد أننا بوجه عام – حتى فى العصر الحديث – نجهل الفروق والصلات الكاملة بين التقويم القمرى ، والتقويم الشمسى الچولياني الذى تتكون فيه السنة من $\frac{1}{4}$ ٣٦٥ يوما حيث إن طول السنة وفقا للتقويم الچولياني ليس ٣٦٥ يوما فقط بل إنه يحتاج تصحيحا وتصويبا كل أربع سنوات لتكون لدينا سنة كبيسة Leap Year . أما بالنسبة إلى التقويم القمرى فإننا نحتاج إلى التصويب كل ١٩ سنة وليس كل أربع سنوات . وتعديل التقويم القمرى كل ١٩ سنة هوما يسمّى بدورة ميتون Metonic Cycle نسبة إلى عالم الفلك اليونانى Meton الذى اكتشف التطابق الدقيق بين التقويم الشمسى Solar System والتقويم[2] القمرى Lunar فى القرن الخامس قبل الميلاد .

---

(١) على سبيل التذكرة ، يقول نص الآية الكريمة المشار إليها ما يلى :﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥] . (المترجم) .

(٢) لا ريب فى أن مراقبة القمر فى منازله المتعددة كهلال ثم نصف قمر ثم نصف بدر مكتمل ثم قمر حتى المحاق أسهل وأوضح من مراقبة الشمس التى لا يكاد شكلها يتغير من أسبوع إلى الآخر . ولم يكن مطلوبا من العرب أن يمتلكوا المراصد ، أو أن يشتغلوا بعلوم الفلك لحساب الوقت ، القمر أسهل . (المترجم) .

٢ - الشمس The Sun

دراسة مدار الشمس بالنسبة للإنسان العادى أصعب وأشد عُسْراً لأننا قد تعودنا رؤية الشمس والنظام الشمسى من حولها دون تدقيق إذ يبهر ضوء الشمس فى الغالب الأعم نظر الإنسان العادى[١] ولكى نفهم الآية القرآنية يلزمنا أن نتأمل وندرس موقع الشمس داخل مجرتنا الشمسية حيث إن نظامنا الشمس مرتب حولها ، ويلزمنا أن نستعين أيضا بمعارف العلم الحديث .

تتكون مجرتنا Our Galaxy من عدد هائل من النجوم Stars موزعة فى الفضاء بحيث تشكل أسطوانة ضخمة Disc أكثر سمكا وكثافة Densers فى وسطها ، وتتباعد نجوم المجموعة الشمسية كلما اقترب موقعها من محيط الأسطوانة . ولما كانت هذه المجرة الشمسية تدور حول محورها المار بمركزها نجد أن الشمس نفسها تدور حول نفس المحور ونفس المركز . ولقد حاول علم الفلك الحديث حساب هذه الحركة الدورانية للشمس حول محورها أو محور المجموعة الشمسية وقَدَّر عالم الفلك شابلى Shapley فى عام ١٩١٧ حجم الشمس بقياس بعد محيطها عن محورها بما مقداره ١٠ كيلو فرسخ Parsec أى ما يعادل الرقم ٣ وعلى يمينه سبعة عشر صفرا ، ولكى تدور المجموعة الشمسية حول محورها دورة كاملة والشمس فى وسطها يلزمها ما يقرب من ٢٥٠ مليون سنة ، وتتحرك الشمس فى هذا الدوران [٢] بسرعة تقريبية قدرها ٢٥٠ كم / ثانية .

هذه هى الحركة المدارية للشمس التى صرح بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان تقريبا ، وهى من اكتشاف علم الفلك الحديث .

انتقال مواضع القمر والشمس ذاتياً

Movement Of The Moon & The Sun

لا وجود لمفهوم الحركة الخاصة بدوران القمر أو الشمس كل منهما حول محوره أو حركة القمر حول الأرض فى محاولات تفسير القرآن الكريم أو ترجمة معانيه إلى لغات أخرى غير اللغة العربية . ولجهل أولئك المفسرين والمترجمين بحقائق علم الفلك الحديث فى هذا الصدد نجد أنهم بوجه عام قد فسروا أو ترجموا كلمة «يسبحون» فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا الشَّمْسُ ينبغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس : ٤٠] بالمعنى الحقيقى

---

(١) ومن هنا يمكن أن نفهم الحكمة الإلهية فى إشارة القرآن الكريم بسرعة ودون تفاصيل إلى الشمس فى الآية المذكورة مع ذكر تفاصيل تتعلق بالقمر ومنازله والحساب وعدد السنين . (المترجم) .

(٢) يشير القرآن الكريم إلى دوران الشمس حول محورها فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [يس : ٣٨] .

الظاهرى ، أى بمعنى يعوم عوما فى اللغة العربية أو باستخدام المقابل Swim فى اللغة الإنجليزية مثلا ، وإن كان التصرف فى الترجمة بما يخرج عن هذا التفسير الظاهرى لكلمة يسبحون فى ترجمة «عبد الله يوسف على» قد حالفه التوفيق إلى حد كبير يستحق الثناء والتقدير.

إن معنى كلمة «يسبحون» يتضمن التنقل بحركة يتميز بها الجرم الذى ينتقل . ويكون المعنى هو العوم أو السباحة إذا كان التنقل من مكان إلى مكان فى الماء . وفيما يتعلق بالحركة فى الفضاء نجد أنه من العسير أن يتم التعبير عن هذه الحركة إلا باستخدام النمط المعروف لحركة الأجسام فى الماء أى باستخدام المعنى الظاهر لكلمة «يسبحون» فى الاستخدام الذى ألفه الناس لهذه الكلمة . وبهذا التصور لاستخدام هذه الكلمة لايوجد خطأ فى استخدامها للتعبير عن الحركة فى المكان وإلى مكان آخر مع عدم وجود الماء بالضرورة وذلك فى ضوء الحقائق التالية :

– يؤدى القمر دورته حول نفسه ، ويؤدى أيضا دورته حول الأرض فى مدة تبلغ ٢٩ يوما ونصف اليوم تقريبا . ويظل وجه القمر مع ذلك أمام أنظارنا .

– تؤدى الشمس دورتها حول نفسها فى ٢٥ يوما على وجه التقريب . وهنالك اعتبارات معينة لدى علماء الفلك فى العصر الحديث عن هذه الدورة الشمسية عند خط الاستواء وعند القطبين لا لزوم لشرح تفاصيلها فى هذا المقام .

ومن ذلك يتضح أن هنالك معنى دقيقا خاصا يشير إليه القرآن الكريم بالنسبة إلى الحركة الخاصة لكل من الشمس والقمر . ولقد أكد العلم الحديث هذا النوع من الحركة بالنسبة للشمس والقمر ، ومن المستحيل بالنسبة إلى رجل عاش فى القرن السابع الميلادى أن يدرك ويتكلم عن هذا النوع من الحركة بالنسبة إلى الشمس والقمر بالغا ما بلغت معارفه الفلكية فى عصره . هذه الحقيقة تم اكتشافها فى العصر الحديث ، ولم تكن معروفة إطلاقا فى العصر الذى عاش فيه محمد ﷺ .

وربما يجادل بعض الناس بأن بعض المفكرين الكبار فى العصور القديمة قد صرحوا ببعض الأمور وحقائق العلم التى اعترف بصحتها العلم فى العصر الحديث وبرهن على مصداقيتها . ومن ذلك على سبيل المثال قول فيثاغورس وأتباعه بنظرية دوران الأرض حول نفسها ودوران الكواكب حول الشمس وهى نظرية قال بها بعض الفيثاغوريين وأكد صحتها العلم الحديث . ولكن الفرق واضح بين الحالتين إذ كان الفيثاغوريون علماء بلغوا قمة العلم فى عصرهم وكان محمد ﷺ نبيا أميا لايقرأ ولا يكتب ، وكان الفيثاغوريون يقرءون ويكتبون ويعتبرون من صفوة المتعلمين والمثقفين فى عصرهم . وكل ما نادوا به كان أشبه بالفروض العلمية والاحتمالات التى يتم عرضها للمناقشة كمجرد احتمالات ، وهى لم تكن تصدر عنهم على نحو قطعى موثوق به ، ولم تكن

لديهم الوسائل التى يستطيعون بها البرهنة على صحة فروضهم كما هو الشأن فى العصر الحديث، وإذا كانت لهم بعض الفروض العلمية التى أثبت العلم الحديث صحتها ، فلقد أثبت العلم الحديث أيضا فساد وخطأ كثير من نظرياتهم وفروضهم ، وليس هذا هو الشأن بالنسبة إلى الحقائق المتعلقة بالعلم الحديث كما أوحاها الله فى القرآن الكريم إلى ﷺ .

إن أولئك النقاد بتفكيرهم على هذا النحو ينسون ويغفلون ذكر الجوانب الأخرى لذلك الإنتاج العقلى عند عباقرة التفكير الفلسفى الإغريقى لدى الفيثاغوريين مثلا ، كما ينسون ويغفلون ذكر الأخطاء الجسيمة التى تشين مؤلفاتهم وكتاباتهم ، ومن الأمثلة على ذلك أن أولئك الفيثاغوريين أنفسهم كانوا ينادون أيضا بنظرية ثبات الشمس فى الفضاء ، وجعلوها مركز العالم ، ولم يتصوروا وجود مجرات أخرى غير المجرة الشمسية ، وقد أظهر العلم الحديث فساد مثل هذه التصورات لدى الفيثاغوريين أو غيرهم ممن كانوا يمتلكون نواصى العلم الأكثر تقدما فى عصرهم ، وحقيقة الأمر هى وجود خليط من الأفكار الصحيحة والخاطئة عن الكون ، وكان ذلك أمرا شائعا جاريا عند كبار الفلاسفة القدامى[1] بوجه عام ولاينبغى بأى حال أن يبهرنا بريق المفاهيم المتقدمة فى المؤلفات الفلسفية القديمة بحيث ينسينا المفاهيم المخلوطة التى خلفوها لنا . وفى ذلك يتمثل ذلك الفرق الهائل بين طبيعة هذه المؤلفات وبين القرآن الكريم الذى أوحاه الله إلى محمد ﷺ ونجد فيه – من وجهة النظر العلمية البحتة – كثيرا من الحقائق فى موضوعات تتعلق بالمعارف الحديثة بثبات واطراد فى الصدق وتمام الاتساق دون أى مناقضة لحقائق العلم الحديث.

تعاقب الليل والنهار

The Sequence of Day And Night

فى عصر كان الناس فيه يعتقدون أن الأرض هى مركز الكون وأن الشمس هى التى تتحرك بالنسبة للأرض الثابتة يثور سؤال هو : كيف كان الناس لايعزون تعاقب الليل والنهار إلى حركة الشمس ؟ نعم ، فى ذلك العصر الذى كان الناس فيه يعتقدون أن الأرض ثابتة وأن الشمس هى التى تتحرك ، كان الناس يعتبرون أن حركة الشمس هى السبب فى تعاقب الليل والنهار . وعلى الرغم من ذيوع وانتشار هذه الفكرة الخاطئة فإن القرآن الكريم فى آياته التى تشير إلى تعاقب الليل والنهار لم يتورط أبدا فى الوقوع فى ذلك الخطأ الذى كان شائعا قبل وأثناء وبعد نزول القرآن الكريم . ولقد وردت بالقرآن الكريم آيات تشير إلى تعاقب الليل والنهار فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ومنها ما يلى :

---

(١) لم يتفق فلاسفة اليونان على رأى واحد أبدا . عارض أنكسيماندريس طاليس ، وعارض أنكساجوراس أنكسيماندريس ، وعارض سقراط السوفسطائيين ، وعارض أرسطو أفلاطون . أما أحكام القرآن فلا تناقض فيها ولا نقض لها . (المترجم) .

- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

- وأيضا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُظْلِمُونَ (٣٧) ﴾ [يس : ٣٧] .

- وأيضا : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) ﴾ [الزمر : ٥] .

القرآن الكريم يشير إلى تعاقب الليل والنهار دون التورط فى الخطأ الذى كان شائعا وسائدا قبل وأثناء وبعد تمام نزول القرآن الكريم . ويهمنا فى هذا المقام أن نشير إلى استخدام القرآن الكريم للفعل «يُكَوِّر» فى الآية الخامسة من سورة الزُّمَر. «كوَّر» يعنى : لَفَّ، كما يقول ر . بلاشير . R Blachere فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم . والمعنى الأولى الذى يتبادر إلى الأذهان بشأن استخدام هذا الفعل فى اللغة العربية هو «كَوَّرَ على الرأس عمامة على هيئة حلزونية» . وهذا هو المعنى الغالب على استخدام هذا الفعل فى اللغة العربية . (جسم أسطوانى يلتف حوله شىء ما بالتدريج) .

ولنتأمل بناء على ذلك ما يحدث فى الفضاء ليتعاقب النهار والليل .. ! الشمس مضيئة على الدوام لا يتوقف ضوءها فيما عدا فترات الخسوف . ونصف الكرة الأرضية يقع فى مواجهة الشمس فيكون مضيئا ضوء النهار ، على حين يظل النصف الآخر مُظْلِماً . ولقد رأى رواد الفضاء الأمريكيون هذه الحقيقة وسجلوها بعدسات التصوير من مركباتهم الفضائية وخاصة عندما كانت مركباتهم الفضائية بعيدة عن الأرض ، فوق القمر مثلا ، وبدوران الأرض حول محورها مع بقاء مصدر الإضاءة المتمثل فى الشمس ثابتا ، نجد أن المنطقة المضاءة من الأرض وهى على شكل كروى هو نصف أسطوانة تتم دورتها حول محورها أمام الشمس بالتدرج كل أربع وعشرين ساعة، على حين يتم النصف الآخر المظلم دورته أيضا ويحل بالتدريج ويتقدم تدريجيا محل النصف المضىء من الأرض . والقرآن الكريم قد عبَّر بدقة معجزة عن هذا التدوير للأرض أمام الشمس فى حركة دورانية تكويرية لا تكف عن الدوران من جراء التكوير أبدا طوال الليل والنهار محدثة التبادل التدريجى لليل والنهار فى الأرض . إن هذه الحركة الدورانية للأرض أمام الشمس وهذا التكوير أصبحت فى ضوء العلم الحديث يسيرة الفهم والإدراك عندما أصبح لدينا الآن اليقين بثبات الشمس ودوران الأرض مما ينتج عنه تعاقب الليل والنهار . وهكذا يغدو تعبير القرآن الكريم عن تكوير النهار على الليل بمثابة إعلان وإفصاح واكتشاف لاستدارة الأرض أولا ، ولدورانها مع ثبات الشمس ثانيا منذ عصر تنزيل القرآن الكريم قبل أن يكتشف العلم الحديث هاتين الحقيقتين بكثير من القرون.

ومن الضرورى أن نربط هذه الاعتبارات الخاصة بتعاقب النهار والليل بإشارة بعض آيات القرآن الكريم إلى تعدد المشارق والمغارب ، وهى إشارات ملحوظة ومتعددة كان الناس يعجبون منها على حين أنه ينبغى لهم أن يعجبوا لها وأن يعجبوا بها ،كيف ولماذا يشير القرآن الكريم إلى تعدد المشارق والمغارب ؟ لقد تكررت هذه الإشارات فى القرآن الكريم إلى تعدد المشارق والمغارب فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج : ٤٠] . وأيضا : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(١٨) ﴾[١] [الرحمن : ١٧، ١٨] .

– وأيضا : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخرف : ٣٦ – ٣٨]

«وبُعْدُ المشرقين» أصبحت عبارة مأثورة فى اللغة العربية ترمز إلى أقصى اتساع للمسافة يمكن تخيله بين نقطتين على سطح الأرض .

إن الملاحظ المدقق لشروقات الشمس وغروباتها يعرف جيدا أن الشمس تشرق على نقاط مختلفة من المشرق ، وتغرب على نقاط مختلفة فى المغرب وذلك حسب خطوط الطول وحسب فصول السنة . والعلامات التى يتم تحديدها فى أقصى طرف كل من النقطتين تحدد النقاط القصوى التى تشير إلى المشرقين والمغربين ، وتوجد بينهما عديد النقاط التى تعتبر مشارق ومغارب مختلفة ومتعددة على مدار السنة . وليس هنالك أى خطأ فى التعبير عن هذه الظاهرة التى لم تكتشف ، ولم يتم كشف أسبابها إلا فى العصر الحديث ، وثمة موضوعات أخرى تستحق أن ننتقل إليها بالبحث والدراسة فى هذا الصدد وفقا للاكتشافات التى تحققت للعلم فى العصر الحديث .

د - تطوُّرُ السموات

D- Evolution of the Heavens

أمَا وقَدْ أشرنا إلى الآراء العلمية الحديثة لعلماء الفلك المحدثين عن كيفية نشأة وتكوين العالم الذى نعيش فيه ، فمن الضرورى أن نشير إلى ما اتفق عليه العلماء فى العصر الحديث من وجود تطوُّر Evolution فى الكون المحيط بنا ؛ وقد حدث هذا التطور بَدْءاً من ذلك السَّديم الأوَّلىّ Primary Nebula حتى تكوين وتشكيل المجرات Galaxies والنجوم Stars والكواكب Planets فى

(١) من العجيب المدهش أن ابن كثير قد فَسَّرَ المشْرِقين والمغربيْن بأنهما مشرق الشمس ومغربها فى الشتاء ومشرق الشمس ومغربها فى الصيف . (المترجم).

نطاق المجموعة الشمسية The Solar System بدءا من الشمس The Sun فى مرحلة معينة من نشأتها . وتؤكد الدراسات العلمية الحديثة أن هذا التطور فى النظام الشمسى وفى الكون كله لايزال مستمرا .

كيف إذن يستطيع أى إنسان يعرف هذه الحقيقة أن يغفل إشارات مُعَيَّنَة فى القرآن الكريم فى نطاق التنويه باستمرار القدرة الإلهية فى حفظ العالم ؟ !

إن القرآن الكريم يذكر فى مواضع كثيرة أن الله قد «سَخَّرَ الشَّمْسَ والقمر كُلٌّ يجرى إلى أجل مُسَمًّى» .

وإشارات القرآن الكريم إلى هذا المعنى متعددة فى مواضع كثيرة مثل : الآية الثانية من سورة الرعد ، والآية التاسعة والعشرين من سورة لقمان والآية الثالثة عشرة من سورة فاطر ، والآية الخامسة من سورة الزمر .

ونجد – إضافة إلى ذلك – أن فكرة «الأجل المسمًّى» أو المستقر The Settled Place تمتزج بفكرة المكان المحدد الموجودة بالآية ٣٨ من سورة يس إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [يس : ٣٨] . والمكان المحدد فى زمان معين هو تفسير كلمة «المستقر» .

كيف تبدو هذه الإشارة الإلهية فى القرآن الكريم فى ضوء العلم الحديث ؟

إن القرآن الكريم يعطينا حدا وأمدا محددين لتطور الشمس ،كما أنه يحدد أيضا فى إشارات واضحة أخرى نهاية شوط القمر . ولكى نفهم الدلالات الحقيقية لهذه الإشارة القرآنية يلزمنا أن نعرض ما توصلت إليه الدراسات الحديثة عن تطور النجوم بوجه عام ، وتطور الشمس بوجه خاص، وكذلك التشكيلات الكونية التى تتبع الشمس فى الفضاء والتى يعد القمر أيضا جزءا منها .

الشمسُ نجمٌ يقدر علماءُ الفلك عمره بحوالى أربعة مليارات ونصف المليار من السنوات ، ولقد أمكن لعلماء الفلك تحديد مراحل تطور الشمس كما حددوا مراحل تطور كل النجوم الأخرى التى تم لهم اكتشافها . ويعتبر علماء الفلك أن الشمس حاليا قد وصلت إلى مرحلة تتسم بتحوُّل ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم . ومن الممكن نظريا فى تقدير علماء الفلك أن تدوم وتستمر هذه المرحلة حوالى خمسة مليارات ونصف المليار من السنوات القادمة ، وذلك وفقا لحسابات تقريبية قَدَّرت العمر الافتراضى للشمس بعشرة مليارات من السنين ، وتبدأ بعد ذلك مرحلة أخرى كما هو الشأن مع النجوم الأخرى المشابهة للشمس ، وينتهى فى هذه المرحلة الثانية من مراحل تطور الشمس تحوُّل الهيدروجين إلى هليوم . ويكون من نتيجة توقف تحوُّل الهيدروجين إلى هليوم تمدد ضخم فى الطبقات الخارجية وبرودة الشمس . وفى النهاية يتناقص ضوء الشمس بشدة وتزداد كثافتها بشدة أيضا . وتلاحظ مثل هذه التغيرات التى تطرأ على النجوم عند انتهاء عمرها

الافتراضى فى أنماط النجوم التى يسميها علماء الفلك باسم «القزم الأبيض» "White Dwarf" .

وليس من المهم الالتفات والاهتمام بالتواريخ والتقديرات الزمنية لمراحل تطور الشمس إذ أن هذه التقديرات إنما هى تقديرات تقريبية افتراضية ، بل المهم هو اقتناع علماء الفلك التام بفكرة وجود تطور ووجود مراحل لتكوين الشمس والقمر . المهم هو أن معطيات العلم الحديث تطلعنا على تنبؤ علماء الفلك أنه بعد مليارات السنين لن تكون ظروف النظام الشمسى كما هى عليه فى الوقت الراهن ، وأنه يمكن أن نتوقع نهاية للشمس شبيهة بنهاية بعض النجوم التى سجل علماء الفلك نهايتها بعد انتهاء عمرها الافتراضى .

لقد تحدثت الآية الثامنة والثلاثين من سورة يس عن أن الشمس تجرى نحو مكان خاص بها محدد لها ، تجرى «لمستقرّ لها» .

ولقد حدد لنا علم الفلك الحديث تحديدا دقيقا هذا المستقر ، بل أطلق عليه علماء الفلك اسم «مستقر الشمس Solar Apex» والنظام الشمسى يتحرك فى الفضاء نحو نقطة فى «فلك هرقل In The Constellation Hercules» بالقرب من النجم المسمى باسم نجم فيجا ، وهو نجم محدد المكان معروف الإحداثيات ، ولقد أمكن لعلماء الفلك تحديد سرعة تحرك الشمس نحو هذا المكان المحدد كمستقر لها بمقدار ١٩ كم / ث .

لقد كان من الضرورى أن نشير إلى اكتشافات علم الفلك فى هذا الصدد لكى نفهم ما قرره القرآن الكريم بشأن أن الشمس تجرى لمستقر لها ، لنجد أن هذه الإشارة تتسق وتتفق تماما مع حقائق العلم الحديث .

التمدُّدُ الكَوْنِىُ

The Expansion Of The Universe

إن التمدد فى الكون هو أعظم اكتشاف علمى فى العصر الحديث . ولقد ثبتت لدى العلماء هذه الحقيقة ثبوتا تاما وأصبحت المناقشات بصددها تدور حول مدى وكيفية هذا التمدد فى الكون

وإذا كانت نظرية النسبية هى التى قادت إلى الوصول إلى اكتشاف هذه الحقيقة ، فلقد أكّدتها دراسات طيف المجرات Galactic Spectrum إذ أن الانتقال المنتظم نحو اللون الأحمر من ألوان الطيف يُعْزى إلى تباعد إحدى المجرات عن المجرات الأخرى . وما دام هذا التباعد بين المجرات مستمرا فإن التمدد فى الكون لا يكف عن الحدوث . والسرعات التى تتحرك بها الأجرام السماوية تتراوح بين سرعة الضوء وبين أجزاء من سرعة الضوء .

هل يمكن أن نجد فى القرآن الكريم آية تشير إلى هذه الحقيقة العلمية التى تعتبر من أحدث حقائق علم الفلك ؟

نعم . إننا نجد فى القرآن الكريم آية تشير إلى هذه الحقيقة العلمية التى تعتبر من أحدث حقائق علم الفلك وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

ألا تعنى السماء هنا بالتحديد الكون خارج الأرض ؟وموسعون : اسم فاعل للفعل أوسع، أى زاد الاتساع وجعل الشيء أكثر عرضا وأكثر رحابة .

وبعض المفسرين ممن لم يقدروا على فهم معنى الكلمة فى ارتباطها بحقيقة التمدد فى الكون قد أعطوا هذه الكلمة دلالات فيها خطأ كما فعل ذلك بلانشير فى ترجمته لمعانى القرآن الكريم ، وبعض المترجمين يقتربون بحدسهم من المعنى الصحيح لهذه الكلمة مثل ترجمة «حميد الله» الذى أشار إلى معنى الاتساع فى السماء والفضاء ، وإن كان قد شفع هذا المعنى بوضع علامة استفهام . وبعض المفسرين فى العصر الحديث قد استقر رأيهم على تفسير هذه الكلمة التفسير الذى أشرنا إليه مع ربطه بأحدث ما وصل إليه علم الفلك من الحقائق كما فعل ذلك المشرفون على تفسير «المنتخب» الذى أشرف على طباعته المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة . إنهم يتحدثون باطمئنان ودون أدنى غموض عن توسُّع الكون وتمدُّده .

غَزْوُ الفَضَاءِ

The Conquest Of Space

فيما يتعلق بمسألة غزو الإنسان للفضاء نجد بالقرآن الكريم ثلاث آيات تشد كل الانتباه، وتتحدث إحدى هذه الآيات دون أى لبس أو مواربة عما ينبغى للبشر أن يفعلوه ، وعما سيتمكن البشر من أن ينجزوه فى مجال غزو الفضاء . أما الخطاب الإلهى فى الآيتين الأخريين فهو مُوَجَّه إلى كفار مكة الوثنيين مخبرا لهم أن دهشتهم ستكون دهشة بالغة لو استطاعوا أن ينفذوا فى طبقات السماء، ومن الواضح أن الخطاب افتراضى غير محتمل الحدوث Improbable Condition .

أما آية سورة الرحمن فهى تقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن : ٣٣]

ونحتاج إلى شيء من التفصيل لبيان المعانى التى تتضمنها هذه الآية من آيات القرآن الكريم :

(أ) اللغة العربية قادرة على التمييز بين أدوات الشرط تمييزا محددا قاطعا على نحو لا مثيل له فى اللغات الأخرى المعروفة لنا . أداة الشرط «إذا» تُستَخدَم فى حالة الشرط الجائز الحدوث ويغلب استخدامها فى الماضى . وأداة الشرط «إن» تستخدم فى حالة الشرط الجائز الحدوث واستخدامها فى المستقبل ، وأداة الشرط «لو» تعبر عن الامتناع وتستخدم فى حالة الشرط المستحيل الحدوث أو

غير محتمل الحدوث . ولقد ورد بالآية الكريمة المشار إليها حرف الشرط «إن» . ومنه يتضح أن القرآن الكريم يتحدث عن إمكانية تحقيق إنجاز عملى . ومنه يتضح أيضا أنه لا لزوم للتفسير الصوفى لهذه الآية إذ أن التفسير الصوفى لايعبر عن نفاذ بالجسم بل بالروح ، وهو ما أراد بعض الصوفية إعطاءه بين يدى تفسيرهم لهذه الآية .

(ب) يخاطب الله فى هذه الآية الكريمة الجن والإنس[1] على سبيل الحقيقة وليس على سبيل المجاز .

(حـ) بشأن «النفاذ» يقول قاموس «كازميرسكى» : «نفذ من» تعنى : عبر من جهة إلى جهة، وخرج من الناحية الأخرى لجسم من الأجسام . (يقال ذلك عن السهم عندما يخرج من الناحية الأخرى لأحد الأجسام) .

وتشير الآية الكريمة إذن إلى ولوج عميق وخروج من جهة أخرى لمناطق معينة فى الفضاء .

(د) السلطان الذى سيكون للبشر ويمكنهم من تحقيق ذلك النفاذ يبدو سلطانا ممنوحا[2] من الله العلى القدير .

وليس من شك فى أن هذه الآية الكريمة من آيات القرآن الكريم تشير بوضوح إلى إمكانية البشر ذات يوم أن يحققوا فى عصرنا ما تحقق بالفعل فى عصرنا من غزو الفضاء Conquest of Space . ولا يجب أن نغفل عن أن الآية الكريمة المشار إليها لم تحدثنا فقط عن إمكانية غزو الإنسان للفضاء فحسب ، بل هى قد حدثتنا أيضا عن إمكانية النفاذ إلى مناطق بعيدة الغور من طبقات الأرض أيضا عندما يستكشف البشر أعماق الأرض أيضا[2] .

(هـ) توجد آيتان فى القرآن الكريم فى سورة الحجر ورد فيهما توجيه الخطاب إلى كفار مكة عن العروج إلى السماء ولكن على نحو مختلف وباستخدام أداة شرط أخرى تعبر عن استحالة العروج إلى السماء بالنسبة إلى كفار مكة عند نزول القرآن الكريم ، وتقول هاتان الآيتان ما نصه كما يلى : ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾ [**الحجر** : ١٤، ١٥] ومن الواضح أن الخطاب الإلهى موجه إلى كفار مكة تعبيرا عن رفضهم المعاند المنكر لكل حقيقة لو كانت الحقيقة ملموسة محسوسة أمام أعينهم وبين أيديهم ، كما يدل على ذلك بوضوح سياق الكلام فى السورة الكريمة ، ومن الواضح من استخدام أداة الشرط «لو» استحالة ولوج كفار مكة وعروجهم فى السماء لتواضع مستواهم العلمى

(١) لهذا السبب يتكرر فى السورة تعبير : «فبأى آلاء ربكما تكذبان» . (المترجم) .

(٢) لقد أشار المفسرون إلى أنه هو سلطان العلم . (المترجم) .

(٣) تقول الآية الكريمة ضمن ما تقول : «.. إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ..» فالإشارة إلى السموات والأرض وليست الإشارة إلى السموات فقط . (المترجم) .

فى زمن نزول القرآن الكريم ، وهذه حالة افتراضية بحتة.

وبناءً على ذلك نجد أن بالقرآن الكريم إشارة إلى غزو الإنسان للفضاء فى موضعين سبق أن أشرنا إليهما ، تشير إحدى الإشارتين إلى أن غزو الإنسان للفضاء سيتحقق فى وقت قادم فى المستقبل بفضل القدرات العلمية التى سيهبها الله للبشر فى نطاق العلوم الوضعية من خلال الفطنة والعبقرية وقدرة البشر على اكتساب المعارف والعلوم ، وهى قدرة وهبها الله بفضله للبشر دون سائر المخلوقات . ونجد أيضا فى موضع آخر من القرآن الكريم إشارة واضحة إلى أن كفار مكة لايستطيعون أن يعرجوا فى السماء ، ولو افترضنا عروجهم السماء فلن يجديهم ذلك شيئا ولن يغيروا ما بأنفسهم من الكفر لتمكن الكفر والعناد من نفوسهم . ومن هنا استخدم القرآن الكريم فى هذا الموضع حرف الشرط «لو» الذى يعبر عن الامتناع واستحالة تحقق الشرط . ويؤكد الموضع الآخر أن أناسا آخرين غير كفار مكة وقت نزول القرآن سيتحقق لهم هذا الشرط وسينفذون بسلطان العلم إلى أقطار السموات أى الفضاء وإلى أعماق الأرض وبين طبقاتها المتعددة . وعندما يتمكن البشر بسلطان العلم من غزو الفضاء سيشهدون من آيات الله فى خلق الله للكون ما يملأ نفوسهم دهشة وإعجابا وشعورا ببديع صنع الخالق وعظيم قدرته وحكمته مما يتضاءل معه غرور الإنسان بمعارفه وقدراته .

وهكذا عاش وخبر رواد الفضاء هذه التجربة وتلك المشاعر وعبروا فى أحاديثهم بعد عودتهم إلى الأرض عنها منذ عام ١٩٦١م عندما تحقق للبشر أول طيران حول الأرض . ولقد أصبح من المعروف أننا عندما نكون خارج طبقة الغلاف الجوى المحيط بالأرض لا تبدو السماء مطلقا فى صورتها اللازوردية التى يستمتع بالتطلع إليها سكان الأرض وذلك بسبب امتصاص طبقات الجو للضوء الشمسى . إن رائد الفضاء الذى يشاهد السماء من مكان يبعد عن الطبقة الجوية المحيطة بالأرض سيرى السماء سوداء وتبدو له الأرض ذاتها محاطة بهالة من اللون الأرزق وذلك أيضا بسبب امتصاص أضواء الشمس فى الغلاف الجوى للأرض ، على حين أن القمر الذى لايحيط به غلاف جوى يظل محتفظا بلونه المألوف له مع وجود خلفية سماوية سوداء له يظهر القمر أمامها وهى من ورائه .إنه مشهد جديد تماما ومختلف عما ألفه الإنسان للأرض وللسماء وللقمر ذلك المنظر الذى يراه الإنسان من الفضاء ، وهو مشهد أصبح من الصور الكلاسيكية المألوفة المعروفة للناس فى عصرنا الحديث .

وها هنا أيضا ، فى مجال غزو الإنسان للفضاء ، كيف لا ننبهر ونندهش عندما نقارن هذه المعلومات الدقيقة التى وردت بالقرآن الكريم وهى معلومات علمية صحيحة دقيقة يستحيل افتراض أنها من إنشاء إنسان عاش منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان؟! . إنها وحى إلهى صادق وصحيح .

الأرض The Earth

كما هو الشأن فى الموضوعات التى سبق لنا أن عرضنا لها بالدراسة تتوزع الإشارة بالآيات القرآنية إلى «الأرض» فى مواضع كثيرة ومتفرقة من القرآن الكريم ، ومن الصعب تصنيفها وترتيبها ، والترتيب الذى نقدمه للموضوعات المتصلة بالأرض هنا إنما هو اجتهاد شخصى من جانبنا .

وحتى يكون عرضنا للموضوعات المتصلة بالأرض واضحا ، يمكن لنا بادئ ذى بدء استخراج بعض الآيات التى تشير إلى حقائق فى الموضوعات المتصلة بالأرض مع أنها ذات مغزى عام يدعو الإنسان إلى أن يتأمل وإلى أن يفكر ويتدبر فى أفضال الله على الإنسان وفى نعمه الكثيرة التى أنعم بها الله على الإنسان وأوجدها له فى الأرض التى يعيش عليها ، والأمثلة كثيرة فى هذا الصدد .

وتوجد بالقرآن الكريم أيضا آيات كثيرة تتعلق بموضوعات علمية متصلة بالأرض أهمها ما يلى:

- دورة الماء والبحار - Water Cycle and the Seas
- تضاريس الأرض - Earth's Relief
- الغلاف الجوى المحيط بالأرض - Earth's Atmosphere

(أ) الآيات ذات الدلالات العمومية

A) Verses Containg General Statements

على الرغم من أن هذه الآيات القرآنية الكريمة تحث الإنسان فى الغالب الأعم على أن يفكر ويتدبر ويتأمل فى نعم الله الكثيرة التى أوجدها الله للإنسان فى الأرض التى يعيش الإنسان عليها ، نجد أن كثيرا من هذه الآيات القرآنية بالإضافة إلى مغزاها العام الذى أشرنا إليه تتضمن كثيرا من الحقائق العلمية التى أثبت صحتها وصوابها العلم الحديث فى فروع متعددة من العلوم الحديثة .

إن هذه الآيات المتعددة فى القرآن الكريم التى تتحدث عن الأرض تتضمن أفكارا واضحة سهلة بسيطة يسهل إدراكها من جانب أولئك البدو من العرب الذين نزل القرآن أول ما نزل مخاطبا لهم، وهم على وجه التحديد سكان مكة والمدينة المنورة من الناحية الجغرافية البحتة ، إذ كانوا أول الناس استماعا لآيات القرآن الكريم . ومن ناحية أخرى يستطيع الناس ، كل الناس ، فى العصر الحديث أن يجدوا فى هذه الآيات ذاتها ملاحظات وأحكاما وتأملات وحقائق علمية يستطيع الناس الأكثر معرفة وعلما وثقافة فى كل مكان وزمان أن يجد فيها معلومات صحيحة فى ضوء العلم الحديث إذا تأملها الإنسان من هذا المنطلق العلمى ، وتلك هى السمة الكونية الشاملة التى تتصف بها آيات

القرآن الكريم المتعلقة بالكون .

وبما أن القرآن الكريم ليس كتابا علميا بحتا مُبوَّبا حسب الموضوعات العلمية ، نقدم بين يدى القارئ الكريم نصوص هذه الآيات وفقا لترتيب السُّور التى تتضمن هذه الآيات بالقرآن الكريم كما يلى :

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة : ٢١ ، ٢٢] .

- ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الرعد : ٣] .

- ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر : ١٩ - ٢٢]

- ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ (٥٤) ﴾ [طه : ٤٩ - ٥٤] .

- ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾ [النمل : ٦١] .

الإشارات متعددة فى هذه الآيات إلى استقرار عمومى تتسم به الأرض مع إعدادها لمعيشة الإنسان عليها . ومن المعروف الآن أن القشرة الأرضية قبل أن تبرد لم تكن فى بدء نشأتها مستقرة هذا الاستقرار الذى نشهده الآن لها . وبالرغم من الاستقرار العام الملحوظ الآن للقشرة الأرضية إلا أنه يحدث بها أحيانا قليلة ، وفى مواضع قليلة منها زلازل وبراكين على نحو متقطع . أما ذلك الحاجز بين البحرين فهو يعبر عن عدم الاختلاط بين مياه الأنهار والبحار عند مصبات بعض الأنهار فى بعض البحار إذ لا يمتزج ماء النهر العذب بماء البحر المالح أبدا ، كما سنعرض بالتفصيل فى موضع آخر من كتابنا. ونجد بالقرآن الكريم نصوصا وآيات أخرى تتحدث عن الأرض وما تشمله من ماء ونبات وغير ذلك مما يجعل حياة الإنسان على الأرض ممكنة ميسورة مثل:

- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك : ١٥] .

- ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ [النازعات : ٣٠ - ٣٣] .

وفى كثير من هذه الآيات نجد تأكيدا لأهمية الماء بالنسبة لتربة الأرض لسبب رئيسى لخصوبة الأرض ولتحقيق قدرة الأرض على إنبات مختلف النباتات[1] والأشجار فى تربة الأرض التى يصل إليها الماء . ولا شك أن الماء فى البلاد الصحراوية يمثل العنصر الأول الذى يتوقف عليه استمرار بقاء الإنسان فى الحياة .

ولكن إشارة القرآن للماء تتخطى ذلك النطاق الصحراوى إذ تبرز لنا قيمة الماء كميزة لكوكبنا الأرضى كله بوجه عام ، وهى ميزة فريدة لولاها لكانت الأرض التى نعيش عليها جدباء تماما مثل أرض القمر . ومن المدهش حقا أن القرآن الكريم يعطى للماء الأهمية الأولى عند ذكره للنعم الطبيعية التى أنعم بها الله على الإنسان فى الأرض . ودورة الماء ليتسنى وجوده المستمر فى الأرض دورة فريدة عجيبة وضعها القرآن الكريم بدقة معجزة .

(ب) دورة الماء العذب وماء البحر

B) - Water Cycle and the Seas

عندما نقرأ مرة تلو مرة الآيات القرآنية المتعلقة بدورة المياه فى الكون وبدورها فى حياة الإنسان فى عصرنا الراهن ، نجد أنها تبدو لنا معبرة عن معارف ومعلومات معتادة مألوفة ولا توجد أى غرابة بشأنها . إن السبب فى ذلك بسيط جدا وواضح للغاية . إننا فى عصرنا الراهن نعرف بدقة وبنسبة متفاوتة بيننا حسب مستويات تعليمنا كثيرا من الحقائق العلمية عن الماء وعن دورته وكيفية تكوينه وأهميته بالنسبه لحياتنا وحياة غيرنا . هذا ، ولكننا عندما نضع فى الاعتبار المفاهيم الخاطئة الكثيرة والآراء الخاطئة التى كانت سائدة لا بين عامة الناس فحسب ،بل إن هذه الآراء والأفكار عن الماء كانت سائدة بين خاصة الخاصة من قادة الفكر قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره وحتى العصر الوسيط ومطلع عصر النهضة الحديثة ، عندما نضع هذه الآراء الخاطئة عن المياه فى اعتبارنا ، ونجد أن آيات القرآن الكريم وهى تتحدث فى مواضع كثيرة عن الماء ولم تقع فى أى خطأ من هذه الأخطاء التى كانت شائعة عن المياه ، نستطيع أن ندرك إعجاز القرآن الكريم ، وأنه كلام الله أنزله إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ . إن المعلومات الموجودة بالقرآن الكريم عن المياه ليست نابعة من أى

(١) أشار القرآن الكريم إلى أشهى طعام للإنسان ؟ وأفضل نبات للحيوان مما تنبته الأرض فى كلمتين تضمنتهما آية واحدة تقول ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ الفاكهة أشهى طعام للإنسان ، والأب أفضل طعام للحيوان . (المترجم) .

مفاهيم أسطورية من تلك المفاهيم الأسطورية التى كانت سائدة عن المياه قبل الإسلام ، وقبل نزول القرآن الكريم ، وظلت سائدة بطبيعة الحال ولم تمض فترات طويلة من الزمان حتى بددت سحبها معارف العلم الحديث . وإذا كان الناس فى عصرنا قد نجحوا فى اكتساب معارف علمية وعملية مفيدة عن الماء لتحسين رى الأراضى ، فلقد كانت المعارف عن الماء حتى مطلع العصر القديم خاطئة وذات طابع أسطورى وخيالى . والآراء التى أثبت العلم الحديث صوابها من بين كم هائل من الآراء الخاطئة عن المياه فى التراث اليونانى القديم مثلا جدُّ قليلة ولعل أبرزها هو الرأى الذى أدلى به ڤيترف Vitruve من قدماء اليونان عندما قال فى القرن الأول قبل الميلاد : إن المياه الجوفية قد وجدت فى باطن الأرض من جراء تسرب مياه الأمطار داخل الأرض ، وهو رأى أثبت العلم الحديث صحته . وفيما عدا مثل هذا الرأى القديم كانت المفاهيم والتصورات الخاطئة والأسطورية عن المياه سائدة بين الناس فى عصر تنزيل القرآن الكريم .

ولنتأكد من ذلك يمكن لنا مطالعة دائرة معارف يونيڤرسالس تحت مادة «الهيدروچيولوچيا Hy-dro-geologic» التى كتبها ج . كاستانى G . Castany بالتعاون مع ب . بلافو B . Blavoux وهما كاتبان متخصصان فى هذه المسائل ، ويقدمان عن موضوع المياه اللمحة التالية :

فى القرن السابع قبل الميلاد اعتبر طاليس الذى كان يعيش فى جزيرة ميليتوس[1] Thales of Miletus أن المياه تنشأ نتيجة اندفاع مياه المحيطات بتأثير الرياح إلى داخل القارات ثم يسقط هذا الماء الذى قذفت به الرياح على الأرض داخل القارات ليتداخل فى ثنايا التربة الأرضية . ولقد أدلى أفلاطون بدلوه فى هذا الموضوع فقدم افتراضا خياليا آخر مؤداه أن المياه تأتى من المحيط بفعل الرياح ، وتعود إلى المحيط من خلال هُوَّة معروفة فى الأساطير باسم «هُوَّة تاتار Tatare» وكان لهذه النظرية أتباع عددهم كبير حتى القرن الثامن عشر ، وقد اعتنق هذه النظرية أبو الفلسفة الحديثة ديكارت Decartes أما أرسطو فهو قد افترض أن الماء الموجود فى التربة يتحول إلى بخار يتكاثف فى التجاويف الباردة فوق قمم الجبال تنحدر نحو البحر أو تتسرب إلى ينابيع الأرض . وقد تبع سينكا Seneque فى القرن الأول الميلادى هذا الرأى الأرسطى وكان له أتباع أكثر من أتباع نظرية أفلاطون عن «هُوَّة تاتار» وظل ڤولجر حتى عام ١٨٧٧ م معتنقا لرأى أرسطو . ويعود أول مفهوم صحيح عن أصل المياه إلى برنار باليسى Bernard Palissy عام ١٨٥٠ م . عندما أكد وأثبت أن المياه الجوفية تأتى من تسرب ماء المطر فى التربة ، وقد برهن على صحة هذا الرأى أيضا أ . ماريوت E . Mariotte بالتعاون مع ب . بيرو P . Perraut فى القرن السابع عشر الميلادى .

أما الآراء غير الصحيحة بشأن المياه التى كانت سائدة فى عصر محمد ﷺ فمن الغريب أننا

---

(١) من المعروف أن طاليس المشار إليه اعتبر أن الماء هو أصل الأشياء ، إذ أنه شأنه شأن كل فلاسفة اليونان القدامى المعروفين بأصحاب المدرسة الطبيعية كانوا يبحثون عن إجابة لسؤال بسيط واحد هو : ما هو أصل الأشياء الموجودة فى عالمنا ؟ وقد عارضه تلميذه انكسيماندريس قائلا : للماء خواص محددة ، فكيف يكون تعليل المواد ذات الخواص المختلفة ؟ ولا ريب أن طاليس قد حاول أن يجد أصلا للمياه فافترض أن الرياح تعصف بمياه المحيطات . (المترجم) .

لانجد أى رأى منها قد تسلل فى عبارات أى آية من آيات القرآن الكريم فى أى موضع من القرآن الكريم . ولنتصفح فيما يلى بعض هذه الآيات المتعلقة بالمياه فى القرآن الكريم :

- ﴿ **ونَزَّلْنَا من السَّماء ماءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا به جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)** ﴾ [ق : ٩ - ١١] .

- ﴿ **وأَنزَلْنَا من السَّمَاء مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ في الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ به لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم به جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩)** ﴾ [المؤمنون : ١٨ ، ١٩] .

- ﴿ **وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا من السَّمَاء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)** ﴾ [الحجر : ٢٢] .

ومن الممكن تفسير المعنى فى هذه الآية التى ذكرناها آنفا وتتحدث عن إرسال الرياح لواقح على وجهين : أولهما هو اعتبار أن الرياح تعمل على إخصاب النباتات عن طريق نقلها حبوب اللقاح ، وثانيهما هو أن بعض الرياح تساعد على سقوط المطر عندما تلتقى مع رياح أخرى فى بعض الأحيان أو لا تساعد على سقوط المطر تأسيسا على وجود خواص مختلفة لأنواع الرياح المختلفة . وكثيرا ما تتم الإشارة إلى هذا الاعتبار فى آيات مثل الآيات الآتية :

- ﴿ **وَاللَّهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كذلك النُّشُورُ (٩)** ﴾ [فاطر : ٩] .

ويلاحظ أن الجزء الأول من هذه الآية يتحدث عن الرياح والسحاب وإحياء الأرض من حالة الجدب إلى حالة إخراج النبات . ويعقب ذلك فى الجزء الأخير من الآية تصريح إلهى يتعلق بمسألة غيبية يبرهن الله بقدرته على الظواهر الحسية أنه قادر عليها ، وهو قدرة الله على أن يحيى الموتى عند النشور . وهذا الانتقال الفجائى من المشاهدات إلى الغيبيات يتردد كثيرا فى آيات القرآن الكريم. ويقول الله سبحانه وتعالى :

- ﴿ **اللَّهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ من خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ به من يَشَاءُ من عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)** ﴾ [الروم : ٤٨] .

ويقول الله سبحانه وتعالى أيضا :

- ﴿ **وَهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا به الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا به من كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)** ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

وأيضا : ﴿ **وَهُوَ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا من السَّمَاء مَاءً طَهُورًا (٤٨)**

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وأيضا: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٤، ٥].

والرزق المشار إليه في هذه الآية هو الماء الذى ينزل من السماء فى سياق ذكر نعم الله على الإنسان ،كما تشير الآية أيضا إلى أن التغيير فى مسار الرياح هو الذى يعمل على تحديد نظام وموعد سقوط الأمطار . ويقول الله سبحانه وتعالى :

- ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

وأيضا: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠].

وأيضا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر: ٢١]

وأيضا: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يس: ٣٤].

وتؤكد الآيات الثلاث الأخيرة على أهمية مياه العيون المائية فى باطن الأرض وإمدادها بماء المطر الذى يتخلل الأرض ليتجمع فى هذه العيون المائية وفى جوف الأرض . ومن الجدير بالالتفات أن نتوقف هنا لنعود بالذاكرة إلى نظرية مفكر يونانى كبير مثل أرسطو الذى كان يرى أن الينابيع المائية تستمد المياه من بحيرات جوفية انحدرت من قمم الجبال، ويصف لنا الأستاذ / ر . رمنييراس وهو أستاذ بالمدرسة الوطنية للهندسة الزراعية والمياه والغابات فى مقال له تحت عنوان الهيدرولوچيا بدائرة معارف يونيڤرسال ، يصف لنا المراحل الرئيسية التى استقر عليها علماء المياه مستشهدا بأعمال هندسة الرى القديمة الرائعة وخاصة تلك الأعمال التى تم إنجازها فى الشرق الأوسط ، وهو يلاحظ أن المعرفة العملية هى التى كانت تسود وتقود هذه الإنجازات فى حين أن الأفكار النظرية فى هذا الصدد كانت أفكارا خاطئة ، وهو يقول بالحرف الواحد : «كان يجب أن ننتظر حتى قدوم عصر النهضة ما بين عام ١٤٠٠ حتى عام ١٦٠٠ تقريبا حتى يتخلى الناس عن الأفكار والآراء الفلسفية الطابع وينفسح المجال للأبحاث العلمية التى تعتمد على الملاحظة الموضوعية للظاهرات الهيدرولوچية . لقد ثار ليونارد دافينشى (١٤٥٢ - ١٥١٩م) Leonard De Vinic على نظريات وآراء أرسطو . ويعطى برنارد باليسي في بحث له بعنوان : «خطاب فى روعة طبيعة المياه والعيون الطبيعية منها والصناعية » وهو بحث صدر فى باريس فى سنة ١٥٧٠م ، وهو

يعطى تفسيرا صحيحا عن المياه وخاصة تموين الأمطار للينابيع .

أليست هذه الحقيقة حقيقة إمداد الأمطار للينابيع بالمياه التى اجتهد فى البرهنة عليها علماء القرن السادس عشر هى هى نفسها التى نجدها بكل وضوح وجلاء فى الآية الحادية والعشرين من سورة الزمر[1] التى تنص على اتجاه مياه الأمطار نحو الينابيع فى الأرض ؟

وفى آية أخرى من آيات القرآن الكريم نجد أن المطر مصحوب بظواهر طبيعية أخرى مثل:

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ** ﴾ [النور : ٤٣]

وأيضا : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)** ﴾ [**الواقعة** : ٦٨ - ٧٠] .

وتستحق هذه الآيات من القرآن الكريم شيئا من التعقيب والتوضيح :

الإشارة إلى أن الله كان يستطيع أن يجعل الماء العذب الطبيعى ماءً مالحا شديد الملوحة إنما هو تعبير أورده الله فى مجال التنبيه إلى عظمة القدرة الإلهية. وتحدى الله الإنسان أن ينزل الماء من السحاب . وفيما يتعلق بشأن هذا التحدى يقول بعض الناس : لقد نجح البشر فى الوصول إلى المطر الصناعى Artificial Rain ، فهل نجح البشر فى هذا التحدى ؟ والحقيقة هى أن البشر لم ينجحوا فى هذا التحدى وإن كانت قدرتهم على اختراع المطر الصناعى تبدو نجاحا ظاهريا خادعا فى هذا الصدد ، وذلك لو وضعنا فى اعتبارنا الدور الذى يقوم به الإنسان فى إحداث المطر الصناعى .

يقول م . أ . فاسى M . A . Facy مهندس عام الأرصاد الجوية الوطنية فى دائرة معارف يونيفرسال ما يلى بالحرف الواحد : «لم يحدث أبدا ومن المستحيل فعلا أن يتمكن إنسان من إسقاط مطر صناعى من سحابة لاتحتوى على ماء المطر أصلا ، أو من سحابة لم تصل إلى درجة مناسبة من التطور والنضج بحيث تكون مؤهلة لإنزال المطر عندما تتوافر الشروط اللازمة لإنزال المطر. وبناء على ذلك لايستطيع الإنسان أن يحدث المطر الصناعى إلا إذا كانت السحب الحاملة للمطر والقابلة لإنزاله موجودة ، أما لو كانت السحب غير حاملة للمطر أو غير قابلة لإنزال المطر فمن المستحيل على الإنسان الحصول على مطر صناعى من هذه السحب . وبالتالى نجد أن الإنسان فى عملية المطر الصناعى لا يعمل شيئا باستخدامه للوسائل التكنولوجية المتعلقة بالمطر الصناعى سوى أن يُعَجِّلَ فقط بإنزال المطر من سحابة حاملة بالفعل لماء المطر ، وبشرط أن تكون كل الظروف الطبيعية الملائمة لنزول المطر متوافرة . ولو كان الأمر على غير هذا النحو لأمكن

(١) سيقول صدر الآية المشار إليها : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض .... ﴾ [الزمر ٢١] (المترجم) .

التغلب على مشكلة الجفاف تماما . فى مناطق شاسعة من صحراوات معينة يستحيل على أى إنسان أن يعمل المطر الصناعى . ولكن فى بلاد ممطرة أصلا مثل فرنسا مثلا يمكن إحداث المطر الصناعى لوجود سُحب محملة بماء المطر ، وكل ما يعمله الإنسان بالنسبة إلى المطر الصناعى هو أن الإنسان بطرق معينة يُعَجِّلُ فقط بإنزال المطر الطبيعى من السحب الحاملة للمطر. إن التحكم فى المطر وإمكانات الحصول باستمرار على طقس جميل لم تقض به إرادة الله لايزال حتى اليوم حلما من أحلام البشر» .

ولايستطيع الإنسان حتى اليوم فى حقيقة الأمر أن يغير دورة المياه الطبيعية فى الكون ، ويمكن تلخيص هذه الدورة وفقاً لأحدث اكتشافات علم الهيدرلوچيا كما يلى :

يثير الإشعاع الحرارة للشمس تَبخُّرَ الماء فى المحيطات ، وفى كل السطوح الأرضية المشبعة بالماء أو المغطاة بالماء . ويتصاعد بخار الماء بكميات هائلة ويشكل سُحُبًا من جراء تكاثف بخار الماء . وتتدخل الرياح لتؤدى دورها فى نَقْل السُّحُب بعد تشكلها إلى مسافات مختلفة وقد تختفى السحب دون أن تعطى مطرا . كما يمكن أن تلتقى كُتَلٌ ضخمة من السُّحُب مع كتل ضخمة أخرى من السُّحُب لتتشكل من الكتلتين كتلة واحدة أكثر ضخامة وقد تتجزأ الكتلة الضخمة إلى كتل صغيرة يعطى بعضها مطرا فى مرحلة ما من مراحل تطورها وحركتها . وتتم الدورة بوصول المطر إلى الأرض والأنهار والبحار عند مصبات الأنهار حيث إن البحار تشكل ٧٠٪ من سطح الكرة الأرضية . أما المطر الذى يصل إلى الأرض فقد تمتص النباتات منه جزءا ليسهم ماء المطر النازل إلى الأرض فى نمو النباتات ، كما تعطى النباتات جزءا من الماء الذى بداخلها إلى الجو ، ويتسلل جزء آخر من الماء الذى يصل إلى الأرض بمقدار قد يقل وقد يكثر من خلال تربة الأرض، وقد يتجه بعض الماء إلى البحار والمحيطات عبر مجارى الأنهار أو يتسرب إلى التربة لتتفجر منه الينابيع المائية التى يخرج منها الماء إلى السطح .

وعندما نقارن معطيات علم الهيدرولوچيا بشأن الماء بتلك التى نجدها فى آيات القرآن الكريم كما سبق لنا أن أشرنا إليها سنجد توافقا رابعا بينهما .

البحـار The Seas

بينما تعطينا الآيات القرآنية الكثيرة التى سبق أن أوردناها مجالا واسعا للمقارنة بين الحقائق القرآنية الكثيرة عن الماء بحيث نرى التطابق والاتساق بينهما واضحا جليا لا يدع مجالا لأى شك، نجد أن إشارة آيات القرآن الكريم إلى البحار إشارات وجيزة قليلة لا تفسح لنا مجالا للمقارنة بين حقائقها وحقائق علوم البحار الحديثة . وبالرغم من ذلك تبرز لنا فى هذه الصدد حقيقة هامة تتمثل فى أن القرآن الكريم لم يشتمل فى آية واحدة من آياته على معلومة واحدة عن البحار تماثل المعلومات الخرافية الأسطورية التى يحفل بها الفكر اليونانى الأسطورى مثلا عن البحار .

إننا نجد فى القرآن الكريم آيات تتحدث عن البحر فى إطار إظهار القدرة الإلهية الكاملة على الخلق والإبداع فى مجالات الموجودات الكونية ، وأوجه انتفاع الإنسان بالبحار مثل الآيات الآتية :

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ** ﴾ [**إبراهيم**: ٣٢] .

- وأيضا : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [**النحل**: ١٤] . وأيضا :

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [**لقمان**: ٣١] - وأيضا :

﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ** ﴾ [**الرحمن**: ٢٤] وأيضا :

﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [**يس**: ٤١ - ٤٤] .

ومن الواضح أن الإشارة هنا تتجه إلى السفينة التى تحمل الناس على البحر كما حمل الفُلْكُ من قبل سيدنا «نوحًا» عليه السلام ، ومن ركب الفلك معه للنجاة من الطوفان والوصول بهم إلى بر الأمان .

وهنالك أمر آخر جدير بالملاحظة فى ثلاث آيات تشير إلى البحر وإلى صفات ماء النهر عندما يصب فى البحار والمحيطات ، ومن الضرورى أن نضع فى اعتبارنا أن كلمة «البحر» تعنى كما كبيرا من الماء ، وهى تطلق على البحار والمحيطات والأنهار الكبيرة أيضا مثل النيل ودجلة والفرات . وفيما يلى نذكر الآيات المتصلة بموضوع التقاء الماء العذب الذى تحمله الأنهار بالماء المالح فى البحار والمحيطات : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ [**الفرقان**: ٥٣] .

- وأيضا : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ**

تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] .

– وأيضا : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ – ٢٢] .

وبالإضافة إلى الوظائف الرئيسية للبحار وهى البخر وحمل السفن تشير آيات القرآن الكريم أيضا إلى الثروات المستخرجة من المياه العذبة والمياه المالحة مثل الأسماك والحلى كاللؤلؤ والمرجان . أما ظاهرة عدم اختلاط وامتزاج الماء العذب بالماء المالح عند مصبات الأنهار فهى ظاهرة عامة صحيحة غير قاصرة على نهرى دجلة والفرات فحسب كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، إذا يلاحظ عدم اختلاط الماء العذب والماء المالح عند مصبات كل الأنهار فى البحار والمحيطات مثل نهر النيل ونهر المسيسبى ونهر يانج تسى التى تتميز أيضا بهذه الميزة ، ولا يتم اختلاط الماء العذب بالماء المالح أبدا عند مصبات الأنهار فى البحار والمحيطات ذات الماء المالح ، بل يحدث ذلك على مسافات شاسعة داخل البحار الكبيرة والمحيطات .

ج - تضاريس الأرض
C) The Earth's Relief

تركيبُ الأرض مُعَقَّدٌ . ومن الممكن لنا اليوم تَصَوُّرُه بشكل عام باعتبار أنه يتكون من طبقة عميقة deep layer ذات درجة حرارة عالية جدا وخصوصا فى منطقة مركزية حيث تنصهر فيها الصخور تحت قشرة أو طبقة من الأرض سطحية باردة وصلبة . وهذه القشرة الأرضية crust رقيقة جدا لا يزيد سمكها على بضعة أميال قد تصل إلى عشرة أميال على أكثر تقدير ، على حين يصل نصف قطر الأرض إلى أكثر ٦٠٠٠ كم . وذلك يعنى أن متوسط سُمْك القشرة الأرضية لا يمثل أكثر من واحد فى المائة من نصف قطر الأرض –ولقد طرأت تغييرات چيولوچية كبيرة وكثيرة على هذه القشرة الأرضية الرقيقة. وأفضت هذه التغييرات الچيولوچية إلى وجود سلاسل الجبال . ولعملية تكوين الجبال على سطح الأرض أهمية كبيرة كبروز عال على سطح الأرض مرتبط بالعمق من خلال انغراز نسبى داخل القشرة الأرضية ليتصل بالطبقة التحتية من الأرض .

إن كيفية توزيع البحار واليابس على سطح الكرة الأرضية لم يُعْرَفْ إلا حديثا . وهو غير مكتمل بالنسبة للعصور القديمة . ويحتمل أن يرجع ظهور المحيطات التى تسهم فى تشكيل سطح الأرض إلى نصف مليار سنة تقريبا . أما القارات المعروفة التى ربما كانت متصلة فى الماضى فقد انفصلت من كتلتها وأخذت شكل القارات الحالية ، وهى قد ظهرت بمصاحبة تكوين الجبال أيضا كما هو

الشأن فى القارة الموجودة شمالى الأطلنطى وجزء من قارة أوربا مثلا .

ووفقا للأفكار الحديثة يُعْتقد أن ظهور سلاسل الجبال هو العامل المؤثر فى تشكيل سطح الأرض . ويتم تصنيف تطور الأرض من العصر الچيولوچى الأول حتى العصر الچيولوچى الرابع بالفعل وفقا لمراحل تكوين الجبال فى دورات باعتبار أن كل بروز جبلى لسلسلة من الجبال الضخمة له رَدُّ فعْلٍ على التوازن بين البحار والقارات . وفى غضون عملية تطور تكوين الجبال هذه اختفت بعض الأجزاء من الأرض كانت موجودة قبل تشكيل مجموعة من الجبال ، وظهرت أجزاء أخرى . وقد تعدل بالفعل منذ مئات الملايين من السنين توزيع القارات وتوزيع البحار والمحيطات . ولا تحتل مناطق اليابس الآن من سطح الأرض إلا ثلاثة أعشار الكرة الأرضية .

هكذا تتلخص على نحو إجمالى تقريبى التحولات التى حدثت لسطح الأرض خلال مئات الملايين من السنوات الماضية .

ولايكاد القرآن يتحدث فيما يتصل بتضاريس الأرض اليابسة إلا عن الجبال وتكوينها ووظيفتها . اللهم إلا الآيات المعبرة عن قدرة الله وعنايته بالإنسان . والآيات التى تشير إلى ذلك نجدها كما يلى :

﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا** ﴾ [**نوح** : ١٩ ، ٢٠] .

﴿ **وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** ﴾ [**الذاريات** : ٤٨] .

هذا البساط الذى تم مده وبسطه هو القشرة الأرضية الصلبة الباردة غير الساخنة مثل باطن الأرض ليستطيع الإنسان الاستقرار عليها ، أما الطبقات السفلى فى باطن الأرض ذاتها فهى ساخنة جدا ومنصهرة وغير صالحة لوجود الإنسان أو أى نوع من أنواع الكائنات الحية .

والآيات القرآنية التى تحدثنا عن ثبات الجبال وتثبيتها للقشرة الأرضية ذات دلالة هامة دون شك مثل : ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)** ﴾ [**الغاشية** : ١٧ - ٢٠] .

وأيضا : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)** ﴾ [**النبأ** : ٦ ، ٧] . والأوتاد المشار إليها هنا هى الأوتاد التى تستخدم فى تثبيت الخيام بالأرض .

ويرى علماء الچيولوچيا المَحدثُون أن تعرجات الأرض تثبت الأجزاء البارزة منها التى تتنوع أبعادها من كيلو متر واحد إلى عشرة كيلو مترات . أى أن ظاهرة تعرج الأرض ينتج عنها ثبات القشرة الأرضية بالإضافة إلى وجود الجبال كسبب من أهم الأسباب لثبات الأرض .

ونقرأ أيضا بعض آيات القرآن الكريم التى تتضمن إشارات إلى الجبال :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : ٣٢] .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان : ١٠] .

وتتكرر نفس الفكرة ونفس الصياغة أيضا فى مواضع أخرى من القرآن الكريم كما هو الشأن فى الآية الحادية والعشرين من سورة الأنبياء وكذلك الآية الخامسة عشرة من سورة النحل ويقول الله فى سورة الأنبياء :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣١] .

إن الطريقة التى تكونت بها الجبال ملائمة تماما لتثبيت الأرض ، وهذه الحقيقة تتفق تماما مع معطيات علم الجيولوجيا فى أحدث المعطيات التى أقر صحتها علماء الجيولوجيا.

د - الغلاف الجوّىُ للأرض

D) The Earth's Atmosphere

بالإضافة إلى الأحكام المتعلقة بالسماء التى سبق أن عرضنا لها بالدراسة فى الفصل السابق من هذا الكتاب ، يتضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق ببعض الظاهرات الجوية . وعند مقارنة مضمون هذه الآيات بمعطيات العلم الحديث نجد اتساقا ولا نجد أى تناقض أبدا .

وتفاصيل ذلك نجملها فيما يلى :

الارتفاع نحو طبقات الجوّ العُليا *Altitude*

إن الشعور بالضيق feeling of discomfort الذى يشعر به الإنسان بصفة متزايدة كلما ارتفع صعوده فى الغلاف الجوّى تعبر عنه آية كريمة بالقرآن الكريم هى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

ويدعى بعض الناس أن مرض ضيق التنفس كان غير معروف عند العرب فى عصر محمد ﷺ ، ولسنا نعتقد أن هذا الرأى صحيح نظرا لوجود جبال شديدة الارتفاع يصل ارتفاع بعضها إلى ٣٥٠٠ متر فوق سطح البحر مما يجعل القول بجهل العرب لصعوبات التنفس فى الأماكن الشديدة الارتفاع قولا غير منطقى ، ويتهافت بعض المفسرين أيضا على القول بأن مجرد الإشارة لضيق التنفس لزيادة الارتفاع فيه إشارة إلى غزو الإنسان للفضاء ، ولا لزوم البتة لمثل هذا التهافت إزاء مثل هذه الآية . يكفى أن الآية القرآنية تشير إلى الارتباط الصحيح الموجود بين زيادة الارتفاع وضيق التنفس ، وليست هذه دلالة ضئيلة المغزى .

الكهرباء الجوية *Electricity in the Atosphere*

تشير بعض الآيات فى القرآن الكريم إلى وجود الكهرباء الجوية وإلى وجود بعض نتائجها مثل البرق lightning والبرد hail كما يتضح فى الآيات الآتية :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد : ١٢، ١٣] – وأيضا :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِن السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ [النور : ٤٣] .

فى هاتين الآيتين نجد تعبيرا واضحا عن علاقة واضحة بين تكوين سحب المطر الثقيلة أو البرد أو حدوث الصواعق . وسحب المطر موضوع يشتهيه الناس لما فى المطر من خير على حين يخشى الناس البرد والصواعق التى تحدث بأمر الله . وهكذا يكون الإنسان تحت سماء الله بين خوف ورجاء ، ويضاف إلى ذلك ما تؤكده الآيات من امتلاء الجو بشحنات من الكهرباء .

الظلال *Shadows*

ظاهرة وجود الظلال وحقيقة تحرك الظل وازدياده ونقصانه فى الامتداد أصبح سهل الفهم فى الوقت الراهن . وهذه الظاهرة تعتبر موضوعا للآيات الآتية بالقرآن الكريم :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً ﴾ [النحل : ٨١]. – وأيضا :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ [النحل : ٤٨] . وأيضا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٥، ٤٦] .

هكذا يشير النصّ القرآنى إلى العلاقات بين الظل والشمس فى سياق أن كل شىء خاضع بخشوع لقدرة الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء بما فى ذلك ظلال كل شىء ، وقدرة الله تشمل خلق الأشياء وظلالها واسترداد الأشياء وظلالها بنفس سهولة وتلقائية مد الظلال وبسطها أو انحسار الظلال وتلاشيها مما يدل على بالغ قدرة الله المطلقة . ولقد كان الناس يعتقدون فى عصر محمد ﷺ أن انتقال الظل مرتبط بانتقال الشمس من الشرق إلى الغرب وكانت المزولة الشمسية

التى حاولوا بها قياس الزمن أثناء النهار تطبيقا عمليا لهذه النظرية ولقد أشار القرآن الكريم إلى الظاهرة دون محاولة تعليلها متجنبا تماما مظان الخطأ الشائع عنها ، ولو أشار النص القرآنى إلى تعليل الظاهرة التعليل الذى كان شائعا فى وقت نزول القرآن لنال استحسان الناس المؤقت ثم يتضح الخطأ فى نهاية الأمر وهو ما تفاداه القرآن الكريم . إن القرآن الكريم يتحدث فقط عن دور الشمس كمؤشر[1] ودليل للظل متلافيا بذلك أسباب التناقض مع الحقائق العلمية الحديثة عن الظلال .

مملكة الحيوان ومملكة النبات
The Animal and Vegetable Kingdoms

كثير من آيات القرآن الكريم التى تصف أصول الحياة قد تم تجميعها فى هذا الفصل من هذا الكتاب ، وذلك بالإضافة إلى بعض جوانب عالم النبات وموضوعات أخرى متعلقة بعالم الحيوان . إن عملية تجميع هذه الآيات القرآنية المتناثرة فى القرآن الكريم تعطينا فكرة شاملة عن المعلومات الصحيحة The data التى يقدمها القرآن لنا فى مجالات هذه الموضوعات .

وستكون دراسة النص القرآنى فى هذا الفصل وفى الفصل التالى عسيرة بشكل خاص ، ومرجع ذلك هو صعوبة الوقوف على المعنى المقصود من بين عديد المعانى لبعض المفردات العربية ، وفى بعض الأحيان لم يتيسر معرفة المعنى الصحيح لبعض الألفاظ إلا بعد ظهور بعض الحقائق العلمية المتعلقة بالموضوع الذى تتحدث عنه آية من الآيات ؛ ومن هنا تبدو وتتضح أهمية المقارنة بين حقائق العلم ومفهوم وتفسير بعض الآيات بشأن الكائنات الحية من نباتات وحيوان وإنسان ، وذلك لكى ينكشف لنا معنى ربما كان غامضا فى غياب بعض حقائق العلم فى بعض ميادين العلم .

من هنا يمكن لنا أن ندرك لماذا يحكم رجل العلم على بعض أنماط الترجمة لبعض آيات القرآن ، السبب فى ذلك هو عجز المترجم عن إدراك المعنى العربى لكلمة ما ، أو عجزه عن الربط بين الحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية لغياب الحقيقة العلمية عن ذهن المفسر أو المترجم عندما لا يمتلك المفسر أو المترجم حقيقة من حقائق العلم تتحدث عنها آية من آيات القرآن الكريم .

أ- أصلُ الحياة *A- Orgins of Life*

شغلت هذه المسألةُ الإنسان فى كل العصور سواء كان الإنسان يسأل عن أصل حياته هو كإنسان أو عن أصل كل موجود من الموجودات فى الكون الذى يعيش فيه .وسندرس فى هذا الفصل أصل الموجودات عموما ، ثم سندرس فى فصل تالٍ حالة الإنسان الذى يشكل ظهوره على

(١) من البديهى أن الدليل غير السبب ، فوجود دماء القتيل على ثياب القاتل ليس هو سبب القتل ولكنه دليل عليه ، ولقد كان الرأى السائد خطأ هو أن الشمس هى «سبب» الظل وذكر القرآن أن الشمس مجرد دليل يبرز ظاهرة الظل . (المترجم) .

الأرض وتناسله موضوعات لدراسات مستفيضة على جانب كبير من الأهمية .

وهندما تشير آية من آيات القرآن الكريم إلى موضوع من موضوعات «أصل الحياة» نجد أن هذه الإشارات إشارات عامة وموجزة دون التعرض للتفاصيل والاستطراد فى بيانها ، كما هو الشأن فى قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

إن فكرة توقف حياة كائن حى على شىء من ضرورات الحياة فكرة مقبولة تماما من وجهة النظر العلمية البحتة . والتعبير القرآنى يعنى أن كل كائن «حى» تتوقف حياته على وجود الماء . ومن الثابت علميا أن الماء هو العنصر الأول اللازم والضرورى لحياة كل خلية حية ، وتستحيل الحياة لو انعدم الماء فى الكائنات «الحية»[1] . وعندما يناقش العلماء إمكانيات الحياة على سطح كوكب من الكواكب غير الأرض يكون أول سؤال يتم طرحه فى هذا الصدد هو سؤال: «هل توجد كمية من المياه تكفى للحياة فى هذا الكوكب؟» .

ويرجح العلماء فى العصر الحديث الاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمى إلى عالم النبات . ولقد اكتشف العلماء آثار نباتات وطحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبرى Pre-cambrian أى فى أقدم طبقات الأرض من الناحية الچيولوچية البحتة . ولابد أن بعض أنواع الحيوان قد ظهرت بعد وجود أنواع من النباتات لتتغذى عليها سواء فوق سطح الأرض أو فى أعماق المحيطات .

وتشير كلمة «الماء» إلى ماء السماء وماء المحيطات أو أى سائل آخر . وعندما نأخذ فى اعتبارنا المعنى الأول فالماء الذى مصدره المطر لازم لأى حياة نباتية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ..... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه : ٥٣] .

وهذا التعبير فى هذه الآية يشير إلى وجود الذكورة والأنوثة فى عالم النباتات، وسوف نناقش هذا

---

(١) قال طاليس Thales (٦٢٤-٥٤٦ ق.م) وهو أول فلاسفة المدرسة اليونانية الأيونية المعروفة باسم مدرسة الطبيعيين الأوائل فى القرن السابع قبل الميلاد :«الماء هو أصل الموجودات» وعندما نقارن مقولة هذا الفيلسوف بقول الله سبحانه وتعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ يتضح لنا الفرق بين كلام البشر الذى يجوز فيه الخطأ وكلام الله الصحيح المحكم الذى لا ريب فيه ولاخطأ البتة . لقد أشار إلى خطأ طاليس تلميذه أنكسيماندريس Anaximandres عندما قال : «وكيف يخرج اللامحدود من المحدود؟ الماء محدود الخواص ، وتوجد أشياء فى العالم بلاحصر صلبة وغير صلبة يستحيل أن يكون الماء أصلا لها.» ونادى بوجود مادة غير محدودة هى أصل الوجود فى نظره ، وعارضه على الفور تلميذه أنكسيمانس Anaximanes عندما تساءل :«كيف يخرج المحدود من اللامحدود ؟ إن الهواء غير محدود الصفات ولا تستطيع الموجودات الحياة بدونه فالهواء هو الأولى بأن يكون أصل الوجود» ولنتأمل الآن محكم كلام الله فى هذا الصدد بالقرآن الكريم . إن لفظة «حى» الموجودة فى آخر التعبير القرآنى تجعل هذا التعبير سليما كله صحيحا كله لا يستطيع أحد أن ينقده أو ينقضه إذ يستحيل وجود كائن «حى» دون ماء ، ولو كان طاليس قد قال: «الماء هو أصل الموجودات الحية» لكان قوله مستساغا ، ولكنه جعل الماء هو أصل الموجودات جميعا فناقضه تلميذه كما أشرنا. وهذا مثال للفرق بين كلام الله وكلام البشر . (المترجم) .

المفهوم فيما بعد .

وعندما يكون الماء مجرد أى سائل دون تحديد بالماء الذى مصدره المطر من السماء فهو يدل على أصل الحياة فى عالم الحيوان بصرف النظر عن مسألة شرب الماء لإرواء العطش ، أى أنه يدل على تناسل الحيوانات . إذا يقول القرآن الكريم :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : ٤٥] .

وسنرى فيما بعد أن كلمة «ماء» تنطبق أيضا على السائل المنوى .

وسواء كان المقصود بالماء أنه الماء اللازم للكائنات الحية ، أو الماء اللازم لحياة ولتكاثر النباتات، أو كان المقصود بالماء هو السائل المنوى اللازم لتوالد الحيوانات والناس نجد أن تعبيرات القرآن الكريم فى هذا الصدد بكل فروعه تتسق وتتفق تماما مع حقائق العلم الحديث التى أمكن للعلماء التحقيق من صحتها وثبوتها كحقائق ، ولامكان فى معطيات القرآن أبدا لأى خطأ أو خرافة من الأخطاء والخرافات التى كانت سائدة بين الناس سواء كانوا خاصة الفلاسفة والعلماء أو عامة الناس فى عصر نزول القرآن الكريم .

ب- مملكة النبات : *B- Vegetable Kingdom*

ليس من الممكن لنا أن نورد هنا كل الآيات التى وَرَدَتْ فى القرآن الكريم وتتحدث عن النعم الإلهية التى أنعم بها الله على الناس فيما يتعلق بالمطر الذى يجعل النباتات تنمو . سنختار ثلاث آيات منها فحسب وهى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل :١٠، ١١] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٩] .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾[ق : ٩ – ١١] .

ويضيف القرآن الكريم إلى هذه المعانى العامة فى الربط بين الماء وبين أفضال نمو النباتات معانى أخرى واعتبارات هامة أخرى تتصل بموضوعات أكثر تحديدا فيما يتعلق بشأن العقائد الدينية مثل الاستدلال بظواهر عالم النباتات على إمكانية البعث والنشور ، كذلك يشير القرآن الكريم إلى

التوازن الذى يحكم عالم النبات Balance in the Vegetable Kingdom كما يتبدى ذلك فى قول الله عز وجل فى القرآن الكريم :

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر : ١٩] .

تنويع المأكل : *The Different Qualities of Foods*

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

ومما هو جدير بالملاحظة فيما يتعلق بمثل هذه الآيات هد البساطة والوضوح ورزانة ودقة التعبير باستخدام كلمات وألفاظ لا تسمح بوجود أى خطأ يمكن ملاحظته واكتشافه مع استحالة الوقوع فى أى خطأ علمى من الأخطاء التى كانت شائعة فى زمن نزول القرآن . وسيتضح ذلك أكثر ما يتضح عندما ندرس الحقائق التى يذكرها القرآن فيما يختص بالتناسل فى عالم النباتات .

التناسل في عالم النبات

Reproduction in The Vegetable Kingdom

يلزم أن نضع فى اعتبارنا أنه توجد طريقتان للتناسل فى عالم النباتات : إحداهما طريقة جنسية Sexual ، والأخرى طريقة لاجنسية asexual والطريقة الأولى فقط هى التى تستحق أن تسمى بالتناسل الجنسى ، وهو العملية البيولوجية biological Process التى تهدف إلى إنجاب فرد جديد مطابق فى صفاته للفرد الذى أنجبه .

أما التناسل اللاجنسى فهو مجرد تكاثر Multiplication ينتج عن انقسام عضو من أعضاء النبات Fragmentation of an organism ويكتسب العضو المنفصل بعد انفصاله نمواً يجعله شبيها بالنبات الذى انفصل عنه . ويعتبر كل من جيارمون ومانجينو ، وهما من علماء النبات ، أن هذا التكاثر هو حالة نمو خاصة . والمثال البسيط الذى يوضح هذه الحقيقة هو الشتلات Cutting أى: قَطْعُ غصن من نبات ما ووضعه فى التربة مع ريه بالماء بطريقة مناسبة لتنمو من هذا الغصن المغروس فى التربة شجرة مماثلة للغصن الذى كان قد نزع من هذه الشجرة أو تلك . ولبعض النباتات أعضاء تكاثر من هذا النوع ولبعضها الآخر القدرة على إفراز حبوب لقاح فى عملية من عمليات التناسل الجنسى . ويتم التناسل الجنسى بتزاوج عناصر ذكرية مع عناصر أنثوية فى مكونات تجديد موجودة فى نفس النبات ، أو منفصلة عنه فى نبات آخر وتحملها الرياح من نبات

إلى آخر . والقرآن الكريم يشير إلى ذلك فى قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه : ٥٣] .

وكلمة «زوج» جمعها هو : «أزواج» وهى تطلق على كل ما يتكون من اثنين سواء كان جمادا أو كائنا حيا . وتطلق كلمة زوج على زوج من الأحذية أو الجوارب كما تطلق على الذكر والأنثى من نوع واحد .

ويقول القرآن الكريم بهذا الصدد أيضا : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان : ١٠] . وأيضا : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [الرعد : ٣] .

ومن المعروف أن الثمرة هى نتاج عملية تناسل النباتات العليا التى تمتلك نظاما مركبا فى التناسل ، والمرحلة التى تسبق الثمرة هى مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الإبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) . وبعد نَقْلِ اللقاح تعطى الأخيرة الثمار التى تعطى الحبوب والبذور بعد النضج . إن كل ثمرة تتضمن بالضرورة بناء على ذلك وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة ، وتؤكد هذه الحقيقة الآيات القرآنية التى أشرنا إليها .

ومع ذلك ينبغى أن نلاحظ أن الثمرات فى بعض الأنواع ربما تنتج زهورا غير ملقحة يطلق عليها علماء النبات تسمية الثمار عذرية التوالد Parthenocarpics كما هو الشأن فى ثمار الموز وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والأعناب ، ولا يعنى هذا أن هذه الثمار لا تأتى من نباتات ذات نشاط جنسى . إن نشاطها الجنسى مختلف يتم بطريقة أخرى .

وتتم عملية التناسل بعد أن تنضج الحبة وينفتح غطاؤها الخارجى بعد أن تكونت النواة الصلبة بداخلها . ويسمح هذا الانفتاح بخروج الجذور التى تتغذى من التربة بكل ما يلزم حياة النبات ، وعندما يكتمل نموها تعطى فردا جديدا من أفراد النبات . وتشير بعض آيات القرآن الكريم إلى عملية الإنبات هذه مثل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

وبالإضافة إلى أن القرآن الكريم يكرر وجود عنصرى الزوجية فى عالم النبات فى مواضع كثيرة كما أشرنا نجد أنه يسجل مفهوم التزاوج فى إطار أكثر عمومية عندما يقول القرآن الكريم :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦]

ويمكن أن ينطبق معنى العبارة الأخيرة من هذه الآية على طرق التناسل التى لم تكن معروفة فى عصر محمد ﷺ وأصبحت معروفة فى عصرنا ، أو ينطبق المعنى على ما لم يصل إليه علمنا وربما نعلمه فيما بعد فى مستقبل قريب أو بعيد . والمهم فى هذا الصدد هو أننا نلاحظ التوافق

والاتساق وعدم التناقض بين القرآن وبين معطيات العلم الحديث فيما يتصل بعمليات التناسل فى عالم النبات .

ج- عالم الحيوان C- The Animal Kingdom

يوجد بالقرآن الكريم مسائل كثيرة تتعلق بعالم الحيوان تمكننا من عمل مقارنة بينها وبين المعارف العلمية الحديثة المتصلة بعلوم الحيوان المعاصرة . وهنا أيضا لن نقوم بعمل حصر شامل لهذه الآيات فى هذا الموضوع ، بل سنقدم مجرد أمثلة لتوضيح بعض الحقائق المتصلة بعالم وعلوم الحيوان التى أشار إليها القرآن الكريم فى ثنايا حث الناس على تأمل نعم الله وأفضاله عليهم . ويشير القرآن إشارات قوية إلى ذلك التكيف والتوافق بين وجود كثير من المخلوقات غير البشرية وبين وجود البشر بحيث تحقق فوائد للبشر ويتم الوفاء باحتياجات الناس وخصوصا الفلاحين والمزارعين من الناس كما يتضح ذلك فى قول القرآن الكريم : ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [**النحل** : ٥ - ٨] .

وبالإضافة إلى هذه الموضوعات ذات الطابع العام نجد أن القرآن الكريم يعرض أيضا لبعض الموضوعات الأخرى التى تندرج فى مباحث علوم الحيوان الحديثة مثل :

- التناسل فى عالم الحيوان : - Reproduction in The animal kindgdom .
- وجود الجماعات الحيوانية : - Animal Communities .
- حقائق تتعلق بمجموعات حيوانية مثل النحل والعناكب والطيور .

- Bees , spiders and birds .

١- التناسل فى عالم الحيوان

1- Reproduction in Animal Kingdom

لقد ورد ذكر التناسل فى عالم الحيوان فى آيتين من آيات القرآن الكريم هما قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى** ﴾ [**النجم** : ٤٥ ، ٤٦] .

والتزاوج هو نفس التعبير الذى سبق أن وجدناه فى التناسل فى عالم النبات . ولكن الجنسين : الذكر والأنثى قد تمت الإشارة إليهما بوضوح هاهنا . ولكن التحديد الدقيق الرائع يتمثل هاهنا

فى ضآلة كم السائل اللازم للتناسل وقصره على نطفة وهى قدر صغير من السائل المنوى فيما يخص الإنسان . وسندرس فيما بعد هذه الملاحظة بشىء من التفصيل .

٢- وجود الجماعات الحيوانية

2- Animal Communities

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [**الأنعام** : ٣٨] .

ويوجد كثير من النقاط فى هذه الآية ويلزم إيضاحها والتعليق عليها . وأول هذه النقاط يتمثل فى أنه يبدو لأول وهلة أن القرآن يصف ما يحدث للحيوانات بعد موتها [١] ، وهذا فهم خاطئ وغير صحيح ولا يقول به القرآن الكريم أبدا . بل المعنى الذى يتسق مع المعتقدات الإسلامية هو أن هذه الجماعات الحيوانية يتصف أفرادها بمستوى معين من التنظيم الفطرى كأفراد فى نطاق جماعة معينة من الحيوانات أو الطيور ، وهو ما أثبت العلم الحديث صحته كحقيقة من الحقائق التى لا شك فيها .

ولقد ذكر «بلانشير» أن مفسرا قديما مثل الرازى قد ذكر أن هذه الآية لا تدل على معنى أكثر من وجود أفعال غريزية لدى أفراد مجموعات الحيوانات أو الطيور ذات تنظيم فطرى تتجلى فيه قدرة الله على الخلق ، ويمكن تمييز بعض مظاهر هذا السلوك كما لو كان تسبيحا من هذه المخلوقات غير العاقلة لله ، أو هى – على الأقل – مظاهر لقدرة الله فى خلقه من الحيوانات والطيور والبشر .

مما يدل على مطلق الحكمة والقدرة الإلهية إذ تجتمع كل هذه المخلوقات فى نظام معين للتناسل أو للانتقال من مكان إلى آخر بحيث يكون عمل الفرد فيها متسقا مع عمل الأفراد الآخرين مفيدا لهم ومستفيدا منهم .

ولقد أجريت دراسات لهذه السلوكيات الجماعية فى العقود الأخيرة من القرن العشرين . ولقد استخلص الدارسون وجود جماعات حيوانية ذات أنظمة دقيقة فى المعيشة ، ولكن لم يتم اكتشاف كل التنظيمات الموجودة لدى كثير من التجمعات الحيوانية ، ومجموعات الطيور ومجموعات الحشرات ، وربما كانت مجموعات النحل هى التى حظيت بأكبر قدر من الدراسات العلمية فى هذا الصدد . ولقد حاز كل من فون فريش ، ولورنز ، وتينبرجن على جائزة نوبل من أجل هذه الدراسات فى عام ١٩٧٣م .

---

(١) ربما كان المؤلف يشير هاهنا إلى المعتقدات الشاذة الخاطئة المتعلقة بتناسخ الأرواح كأن تكون بعض الحيوانات أو الطيور بشرا تم نسخهم فى صورة حيوانات أو طيور . وليس فى القرآن شىء من ذلك. (المترجم) .

٣- ملاحظات عن النحل والعناكب والطيور

3- Concerning Bees , Spiders And Birds

عندما يريد المختصون بالجهاز العصبى أن يعطوا أمثلة واضحة عن النظام المعجز المعقد الموجود بالجهاز العصبى المتحكم فى سلوك الحيوانات والبشر نجد أنهم يختارون الأمثلة من الأجهزة العصبية للنحل أو العناكب أو الطيور وخصوصا الطيور المهاجرة Migrating Birds وعلى أى حال يمكن لنا القول : إن هذه المجموعات الثلاث من المخلوقات تمثل عينات بالغة الدلالة على الجمال والنظام الدقيق فى سلوك هذه المجموعات من المخلوقات الحية .

ومن المدهش أننا نجد القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان قد اختار هذه المجموعات الثلاث من الكائنات الحية ليجعلها مضرب المثل فى بيان قدرة الخالق فيما خلق قبل أن يفطن علماء الجهاز العصبى إلى مدى رقى وتعقيد الجهاز العصبى لهذه الكائنات الحية ، إننا نجد أن القرآن الكريم يقول :

﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [**النحل** : ٦٨ ، ٦٩] .

ومن العسير أن نعرف بالتحديد المقصود باتباعها سُبُل الله ما لم يكن ذلك من وجهة نظر عامة، وكل ما يمكن أن يقال بالاعتماد على دراستنا لسلوك النحل أنه يوجد فى تكوين النحل نظام عصبى دقيق التكوين هو الذى يتحكم فى سلوك النحل على نحو معين بطرق معينة ثابتة على مر الزمان حتى الآن . ومن المعروف مثلا أن النحل يملك نظاما للتخاطب بين أفراده عن طريق الرقص مثلا. والنحل يستطيع أن يحدد الاتجاه الذى يلزم أن يطير إليه والمسافة التى يلزم أن يقطعها من الخلية إلى مكان زهرة معينة ومن الزهرة إلى الخلية مرة أخرى وبانتظام مطرد يتكرر كل يوم على امتداد فترة زمنية معينة ، ولقد أوضحت وأثبتت تجربة علمية أجراها «فون فريش» دلالات حركات الحشرة التى يتم بها نقل المعلومات بين بعض النحل العامل وبعضه الآخر .

حشرات العنكبوت *Spiders*

وَرَدَ ذِكْرُ العنكبوت وبيت العنكبوت فى مجال تأكيد ضَعْف كيد المشركين وضعف اعتمادهم على غير الله إذ يقرر القرآن الكريم أن منحاهم الذى يلجئون إليه أضعف وأوْهَى من بيوت العنكبوت ، وذلك فى قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ** ﴾ [**العنكبوت** : ٤١] .

إن بيت العنكبوت spider's web فى حقيقة الأمر يتكون من خيوط حريرية silken Threads تفرزها غُدَدُ العنكبوت ، ووهن هذه الخيوط لا يستطيع الإنسان أن يصنع ما هو أوهن منها . وعلماء علم الحيوان تعتريهم الدهشة من جراء إنجاز حيوان العنكبوت لهذا النسيج الذى يتكون منه بيت العنكبوت ولا يستطيع الإنسان بأى حال أن يقلد ما نسجه العنكبوت من خيوط بيت العنكبوت . ويتساءل العلماء عن خطة عمل العنكبوت الخارقة التى سجلتها خلايا جهازه العصبى لينتج نسيجا ذا هندسة بالغة الدقة من أنسجة بالغة الضعف والوهن ، ولكن القرآن قد أشار إلى المنتج الذى أنتجه العنكبوت ولم يفصح عن سر الصنعة .

الطيور *Birds*

لقد تَمَّ ذِكْرُ الطيور كثيرا فى القرآن الكريم إذ وَرَدَ ذكرها فى قصص سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف وسيدنا داود وسيدنا سليمان وسيدنا عيسى ابن مريم عليهم السلام . وورد ذكر الطيور أيضا فى مواضع أخرى تستعرض مظاهر ومجالات قدرة الله وبديع صنعه مثل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

إن تفسير معنى كل كلمة من هذه الكلمات فى هذه الآيات أمر عسير ، والتفسير الذى أعطيناه باعتبار أن هذه الإشارات إلى الطيور وأسرار حياتها إنما هو مجرد تعبير عن مظاهر قدرة الله فى خلقه وبديع صنعته فى مخلوقاته ، وخضوع هذه المخلوقات لسلطانه وللنظام الذى سنّه الله لحياة هذه الطيور سواء كانت تطير محلقة أو ثابتة فى السماء أو كانت تمشى على الأرض . وفعل «يمسك» المستخدم فى هذه الآيات إنما يدل على وضع الشىء فى اليد دلالة على الامتلاك والتحكم التام .

ويمكن أن نفهم الاتصال الوثيق فى المعنى بين خضوع هذه الطيور فى حياتها لإرادة الله ولنظامه وبين النظام الدقيق الذى تتبعه بدقة بالغة الطيور المهاجرة وفقا لبرنامج محدد يتكرر فى وقت معين فى مسار معين كل عام من مكان فى العالم إلى مكان آخر يبعد عنه مئات الكيلو مترات . ولقد تمكن العلماء من عمل جداول دقيقة لتحديد المسارات المعقدة والطويلة جدا التى تقوم بها طيور حديثة السن دون أى تجربة سابقة لتعود بعد ذلك إلى موطنها الأصلى الذى هاجرت منه بالعودة من نفس الطريق وفى نفس الموعد المحدد لعودتها على توالى أجيالها . ويذكر

الأستاذ هامبورجر على سبيل المثال فى كتابه المعنون بعنوان :«القوة والوهن "Power and Fragility" الصادر عن دار فلاماريون فى باريس عام ١٩٧٢م ، يذكر المثل الشهير جدا لطائر المحيط الهادى المعروف باسم طائر موتون Mutton - bird الذى يتخذ خط رحلة هجرته شكلا معينا هو شكل رقم ٨ اللاتينى فى وضع أفقى (∞) ويقوم الطائر بهذه الرحلة فى ستة أشهر ليعود إلى المكان الذى انطلق منه دون تأخير أو بتأخير لا يزيد على أسبوع واحد ، ويقطع فى رحلته مسافة خمسة وعشرين ألف كيلو متر (٢٥٠٠٠ كم) . إن التوجيهات والخطط المعقدة التى يتطلبها تنفيذ مثل هذه الرحلة الطويلة جدا فى مثل هذا المسار المحدد مع بلوغ مكان محدد والعودة إلى ذات المكان الأول فى توقيت معين من الضرورى أن تكون مبرمجة ومخططة داخل الجهاز العصبى لهذا الطائر . فمن المخطط ؟

٤- مكونات لبن الحيوان

4 - Constituents of animal milk

يتفق ما أورده القرآن الكريم عن مكونات اللبن مع معطيات العلم الحديث ، ولقد وَرَدَ ذِكْرُ مكونات لبن الحيوان فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ [**النحل** : ٦٦] .

ولقد أخفقت بالفعل ترجمة معانى القرآن الكريم التى قام بها «ر . بلاشير» وكذلك الترجمة التى قام بها الأستاذ حميد الله فى نقل المعنى الدقيق لكيفية تكوين لبن الحيوان إلى اللغة الفرنسية مثلا . ولا نود الدخول فى تفاصيل المقارنة بين كل منهما ، والمعنى والتفسير الصحيح الذى نجده مثلا فى التفسير المسمى بتفسير «المنتخب» باللغة العربية . إن الترجمة المشار إليها لم تراع نظريات العلم الحديث فى كيفية تكوين لبن الحيوان كما تم لتفسير المنتخب باللغة العربية مراعاة هذه الحقائق العلمية بشأن تكوين لبن الحيوان .

ودون الدخول فى تفاصيل كثيرة عن الترجمة وعدم دقتها فى نقل المعنى الصحيح للآية(٦٦) من سورة النحل نكتفى أن نشير إلى أن تعبير «مما فى بطونه» قد ترجمه ر . بلاشير بتعبير يعنى : «مما فى جوفه» وهو غير صحيح . كما أن تعبير من «بين فرث ودم» قد نقل معناه ر . بلاشير بتعبير : «ما بين الطعام المهضوم والدم» وهو أيضا غير دقيق وغير صحيح ، ولا يتفق مع حقائق العلم الحديث فى هذا الشأن . وتعبير «سائغ للشاربين» قد ترجمه الأستاذ حميد الله إلى تعبير يعنى «سهل المشرب على الشاربين» والفرق واضح بين الاستساغة للشراب وبين سهولة المشرب . و«ما فى داخل الأجسام ليس هو بالضبط» ما «فى داخل الجوف» . الفرق كبير بين هذا وذاك .

ولكى نفهم المعنى الدقيق الذى تتضمنه هذه الآية من القرآن بشأن «مصدر تكوين لبن

الحيوان» يلزم أن نستعين بحقائق علوم الحيوان فى تخصص «الألبان» وأن نستعين أيضا بحقائق علم وظائف الأعضاء .

وتقول لنا حقائق هذه العلوم الحديثة : إن المواد الأساسية التى تتكفل بتغذية الجسم عموما تنتج عن تفاعلات كيميائية تحدث فى القناة الهضمية التى تدخل إليها هذه المواد من عناصر موجودة بالأمعاء لتختلط بالمواد الغذائية . وعندما تصل هذه المواد الموجودة بالأمعاء إلى مرحلة معينة من التفاعل الكيميائى تمر داخل جدران الأمعاء نحو الدورة العامة . ويتم هذا الانتقال بإحدى طريقتين : الانتقال مباشرة بواسطة الأوعية الليمفاوية ، أو الانتقال بطريقة غير مباشرة عن طريق الكبد حيث يلزم أن تطرأ عليها بعض التغييرات الناتجة عن إفرازات الكبد ، ثم تخرج من الكبد إلى الدورة الدموية . ومن خلال هاتين الطريقتين يمر كل شيء ليدخل فى الدورة الدموية .

والغدد الثديية هى التى تفرز مكونات اللبن . ومن الضرورى أن تتغذى هذه الغدد الثديية لتقوم بوظيفتها فى إفراز مكونات اللبن بمنتجات هضم الأغذية كما سبق أن أوضحناه ، وهى تأتى إلى الغدد الثديية بواسطة الدورة الدموية ، وهكذا يلعب الدم فى الدورة الدموية دور المحصل والناقل للمواد المستخرجة من الأغذية بالنسبة للغدد الثديية كما هو الشأن فى تغذية الدم لأى عضو آخر من الأعضاء ذات الوظائف الحيوية فى الجسم .

كل شيء يحدث إذن بدءا من التقاء محتوى الأمعاء مع الدم فى جُدُرِ الأمعاء نفسها . وهذه الحقيقة تعتبر اليوم من أهم اكتشافات علوم الكيمياء البيولوچية وعلوم وظائف الأعضاء الهضمية وهى لم تكن معروفة على الإطلاق فى عصر النبى محمد ﷺ . إن معرفتها قد تحققت فحسب فى العصر الحديث. أما اكتشاف الدورة الدموية ذاتها ووظائفها فقد بدأ على يد «هارفى Harvy» بعد عشرة قرون تقريبا من تنزيل القرآن الكريم وَحْيًا من الله إلى النبى ﷺ . وها هو ذا القرآن الكريم فى الآية المشار إليها يربط بين إدرار اللبن وبين المكونات الغذائية وبين الدورة الدموية منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .

إننى أعتقد اعتقادا جازما أن هذا القرآن يستحيل أن يكون من إنشاء إنسان كان يعيش منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان . إنه كلام الله .

التناسل الإنسانى *Human Reproduction*

منذ بدأت كتابات البشر عن التناسل بشيء من التفصيل مهما كان ضئيلا بدأت هذه الكتابات تتخبط وتتعثر فى كثير من الأخطاء . وفى العصور الوسطى على سبيل المثال ، بل وفى عصر لا يبعد عنا كثيرا ، كانت ضروب كثيرة من الخرافات تحيط بموضوع التناسل . وكيف لا تقع هذه الأخطاء بشأن التناسل والقدرة على فهم عملياته المعقدة تتطلب أن يكون الإنسان ملمًا بعلم التشريح ، وأن يكون استخدام المجهر متاحا ، وأن تكون المعلومات التى أمكن لعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة وعلم التوليد متاحة للباحث الذى يريد أن يدلى بدلوه فى الكلام عن موضوع مثل موضوع التناسل ؟!

ولكن الأمر مختلف تماما بالنسبة إلى القرآن الكريم عندما تَحدَّثَ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا عن التناسل فذكر فى مواضع كثيرة كثيرا من الحقائق التى تتصل بمراحل التناسل على نحو بالغ الصحة والدقة والكمال ودون أى خطأ يمكن اكتشافه بالغا ما بلغ التحقيق العلمى والتدقيق فى المعلومات . ولقد عبَّرَ القرآن الكريم عن هذه الحقائق المتصلة بموضوع التناسل فى عبارات سهلة بسيطة يسهل على الإنسان العادى فهمها ، وهى مع ذلك تتفق تماما مع حقائق العلم الحديث فى موضوع علمى بحت مثل موضوع التناسل.

وعلى الرغم من أننا نجد التناسل الإنسانى قد أشارت إليه آيات متعددة متفرقة من القرآن الكريم، فإننا نجد أن القرآن الكريم يطلق أحكاما بشأن التناسل يتضمن كل منها حقيقة معينة أو مسألة خاصة من مسائل علم التناسل. ولابد لنا من متابعة القرآن الكريم فى هذا الموضوع لتتكون لدينا فكرة شاملة عنه كما فعلنا فى الموضوعات الأخرى التى سبق لنا أن عالجناها فى هذا الكتاب

مبادئ أساسية : *Basic Concepts*

من الضرورى لنا فى معالجتنا لهذا الموضوع أن نستعيد بعض التصورات العلمية التى توصل إليها العلم الحديث ولم تكن معروفة فى عصر تنزيل القرآن الكريم ، وفى القرون التالية إلى أن تم اكتشافها فى العصر الحديث .

يتأثر التناسل البشرى بسلسلة من العمليات التى يوجد مثيل لها عند كل الثدييات . وتبدأ هذه السلسلة من العمليات التناسلية بالإخصاب فى البوق لبويضة منوية انفصلت عن المبيض فى منتصف الدورة الحيضية . والعامل المخصب فى هذه العملية المتعلقة بالإخصاب هو مَنِىُّ الذكر ، أو بالتحديد هو الحيوان المنوى . ووجود خلية منتجة واحدة يكفى للإخصاب . ويتضح من ذلك أنه لكى يتم الإخصاب فإن كمية ضئيلة جدا من السائل المنوى تكون كافية للإخصاب (مع أن

عملية قذف واحدة تحوى عشرات الملايين من الحيوانات المنوية) . والخصيتان تنتجان السائل المنوى ويتم تخزينه بعد إنتاجه فى جهاز خاص للتخزين فى القنوات التى تؤدى فى النهاية إلى المسالك البولية ، وتوجد غدد متفرقة على طول هذه المسالك تضيف إلى السائل المنوى إفرازا إضافيا لا يحتوى على عناصر مخصبة .

وفى نقطة معينة من الجهاز التناسلى للأنثى تعشش البويضة المخصبة التى تهبط من أحد بوقى الرحم وتعشش فى الرحم نفسه ثم لا تلبث أن تعلق به تماما وتدخل فى ثنايا عضلته بعد تشكل المشيمة وبمساعدتها ، ولو بقيت لأى سبب البويضة فى البوق بدلا من الرحم ينقطع الحمل ولا يتم .

وعندما يتم الحمل ويصبح من الممكن رؤية الجنين بالعين على شكل كتلة لحمية صغيرة لا يمكن فى البداية أن نميز فيها مظهر الكائن الإنسانى . ويتكون داخل هذه الكتلة اللحمية الصغيرة بالتدريج عبر مراحل محددة معروفة الهيكل العظمى تحيط به بعض العضلات وأجزاء الجهاز العصبى وأعضاء الدورة الدموية والأحشاء وغير ذلك .

هذه هى المعلومات الحديثة الرئيسية اللازمة لمقارنة محتوى الآيات القرآنية مع هذه الحقائق العلمية الأساسية فى موضوع التناسل عموما .

التناسل الإنسانى فى القرآن

Human Reproduction in the Our'an

ليس من السهل تكوين فكرة عما يتضمنه القرآن الكريم بشأن التناسل الإنسانى . وأول الصعوبات كما هو الشأن فى الموضوعات الأخرى هو تَفَرُّق الآيات القرآنية التى تشير إلى الموضوع فى القرآن الكريم كله ، وليست هذه الصعوبة هى أكبر الصعوبات بل إن أكبر الصعوبات هى تلك التى تكمن فى إدراك المعنى الدقيق الصحيح للمفردات المستخدمة فى شتى الآيات .

إن بعض التفسيرات العربية ، وبعض محاولات ترجمة معانى القرآن[1] إلى لغات أجنبية التى ما تزال منتشرة فى عصرنا تعطى لرجال العلم فكرة مغلوطة غير صحيحة وقد تكون مضللة لمعانى «بعض» المفردات الموجودة فى «بعض» الآيات المتصلة بهذا الموضوع . وعلى سبيل المثال فى هذا الصدد تقول معظم التفاسير : إن الإنسان يبدأ فى التشكيل والتكوُّن ابتداء من «تكوينه كجلطة دم» وهذه المقولة لم يقلها أى نص من القرآن ، ولكنها رأى يراه المفسر. ومثل هذه المقولة لا يقبل بها أبدا العالم المتخصص فى هذا الميدان من ميادين العلم . وسنرى فى الفقرة التالية التى تعالج مسألة

(١) قد يخطئ المفسِّر ، أى مفسر ، لأى نصٍّ من النصوص ،وقد يصيب وقد يخطئ المترجم . أى مترجم لأى نص من النصوص ، وقد يصيب . والتمحيص المستمر لتفسير المفسر ، أو ترجمة المترجم مطلوب . (المترجم) .

نعشيش البويضة فى رحم الأم الأسباب التى من أجلها يقع علماء مستشرقون بارزون فى مثل هذه الأخطاء لافتقادهم إلى الثقافة اللغوية أو الثقافة العلمية أو كلتيهما بصدد مسألة ما . وليس كل الناس ملمين كل الإلمام بكل مسائل الدين واللغة والعلوم الحديثة بفروعها المتعددة .

ومثل هذه الملاحظة تجعلنا ندرك الأهمية الكبرى لضرورة الاقتران بين المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى إدراك صحيح إلى أكبر حد لمعانى النصوص القرآنية فى موضوع التناسل .

والقرآن الكريم يركز أولا وقبل كل شيء على التحوُّلات المتتالية التى يمر بها الجنين فى رحم الأم حتى يتم الحمل ، وذلك فى مثل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ **يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ (٦) الَّذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أيِّ صُورَةٍ مَّا شاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [**الانفطار** : ٦ - ٨] .

﴿ **وقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَارًا** ﴾ [**نوح** : ١٤] .

وبالإضافة إلى التحولات التى يمر بها الجنين فى الرحم تلفت نصوص القرآن الكريم فى هذا الموضوع الانتباه نحو بعض النقاط الهامة المتصلة بموضوع التناسل البَشَرِىّ ، ويمكن تصنيفها كما يلى لتحدث عنها بشيء من التفصيل :

١ - ضآلة كمية السائل المنوى اللازم للإخصاب .

٢ - طبيعة السائل المنوىّ المخْصِب .

٣ - تعشش البويضة المخْصَبة .

٤ - تطور الجنين . ونتحدث فيما يلى عن كل منها بشيء من التفصيل .

١- ضآلة كمية السائل المنوي اللازم للإخصاب

A small volume of fertilizing liquid

يكرر القرآن الكريم هذه المعلومة ١١ مرة مستخدما مثل هذا التعبير الذى نجده فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **خَلَقَ الإنسانَ من نُطفةٍ .....** ﴾ [**النحل** : ٤]

وكلمة «نطفة» مشتقة من أحد الأفعال بمعنى : سال مما يدل على أنها «سائل» وهى تستخدم فى الإشارة إلى ما يمكن أن يبقى بالدلو بعد تفريغه على شكل قطرات عالقة بجدار الدلو . وهى إذن تشير إلى كمية ضئيلة جدا من السائل . ومن هنا يمكن تشبيهها من حيث الحجم بقطرة واحدة من قطرات الماء ، ولكنها فيما يتعلق بالتناسل البشرى «قطرة من مَنِىٍّ» ، ذلك أننا نجدها

فى آية أخرى مقترنة بتعبير «من منى» كما فى قول الله سبحانه وتعالى :﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ ﴾ [القيامة : ٣٧] .

وبالقرآن الكريم آية أخرى تشير إلى أن النطفة المقصودة تستودع فى «قرار مكين» وهو ما يدل بوضوح على «الجهاز التناسلى» وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٣] .

ويعنى القرار المكين أيضا المكان المعد المجهز تجهيزا تاما يفى بالغرض الذى تم تجهيز المكان من أجله ، وهو الجهاز التناسلى للأم فى هذا الصدد ، ولا ريب فى أن الله قد خلقه على نحو معين بطريقة معينة بحيث يكون ملائما وحافظا وصالحا لنمو النطفة التى تستودع فيه وفقا لإرادة الله وبمشيئته . ولكن أهم ما يلزم أن نؤكده فى هذا الصدد هو إشارة القرآن الكريم إلى ضآلة كمية السائل المنوى اللازم للإخصاب إلى حد أن «النطفة» تكون كمية مناسبة لهذا الإخصاب ، وهو ما استقر عليه الرأى فى العلم الحديث فى عصرنا الراهن .

٢- طبيعة السائل المنوى المخصب

2- Constituents of the fertilizing Liquid

يصف القرآن الكريم هذا السائل الذى يسبب الإخصاب بصفات تستحق الدراسة ، ومن هذه الصفات أنه .

(أ) «مَنِىٌّ» كما وَرَدَ فى الآية ٣٧ من سورة القيامة .

(ب) «ماء دافق» كما ورد فى الآية السادسة من سورة الطلاق .

(جـ) «ماءٌ مَهِينٌ» كما وَرَدَ فى الآية العشرين من سورة المرسلات والآية الثامنة من سورة السجدة . وربما كان وصف هذا السائل بصفة أنه «مهين» بسبب أنه يخرج فى النهاية من طرف الجهاز البولى شأنه فى هذا الخروج شأن البول .

(د) «أمشاج» كما وَرَدَ فى الآية الثانية من سورة الإنسان . والأمشاج تعنى : الخليط ، المخلوط .

ويرى بعض المفسرين مثل الأستاذ حميد الله أن المقصود بالأمشاج هو عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة ، وقد ذهب هذا المذهب فى التفسير كثير من المفسرين القدماء الذين لم يكن لديهم أى معلومات عن فسيولوچيا الإخصاب ولا عن الظروف البيولوچية التى يتم فيها الإخصاب من جانب الأنثى ، وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير إلى مجرد اجتماع عنصرين .

أما المفسرون المحدثون مثل أصحاب تفسير «المنتخب» الذى نشره المجلس الأعلى للشئون

الإسلامية بالقاهرة فيبدو أنهم قد اطلعوا على نتائج هذه الأبحاث الفسيولوجية والبيولوجية أو أخذوا رأى العلماء بصدد هذه المسائل ، وكذلك قاموا بتعديل التفسير باعتبار أن نقطة المنى ذاتها «ذات عناصر شتى» . ولم يعط تفسير المنتخب تفصيلات أخرى ، ولكن ضبطه لمعنى اللفظ ليتسق مع حقائق العلم عظيم القيمة والأهمية وهو تصويب سديد تماما .

ما هى إذن عناصر المَنِىّ المختلفة التى تدخل فى تكوين «الأمشاج» ؟

يتشكل السائل المنوى من إفرازات مختلفة تأتى من الغدد التالية :

(أ) الخُصيتان (وفيهما الغدد التناسلية للذكر) تفرز إفرازا يحتوى على الحيوانات المنوية، وهى خلايا مستطيلة مزودة بأهداب طويلة ، وهى تسبح فى سائل ذى طبيعة مصلية ، له قوام خاص ورائحة خاصة مميزة .

(ب) الحويصلات المنوية وهى تخزن الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا وهى أيضا تفرز إفرازات خاصة بها ، ولكنها لا تحتوى على عناصر مخصبة .

(ج) البروستاتا : وهى تفرز سائلا يعطى للسائل المنوى قوامه ورائحته .

(ء) الغدد الملحقة بالمسالك البولية وهى الغدد المعروفة باسم الغدد الكوبرية وغدد «ميرى» وهى تفرز سائلا رقيق القوام ، وغدد «ليترى» وهى تفرز إفرازا ذا طبيعة مخاطية .

هذه هى أصول تلك «الأمشاج» التى يتحدث عنها القرآن الكريم على سبيل الإجمال، بل إن القرآن الكريم يشير بخصوص التناسل إلى معنى آخر وحقيقة أخرى أكثر دقة وتحديدا وأهمية عندما يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن الإنسان يمكن له الإنجاب ليستمر نسله بواسطة شىء يمكن استخراجه من هذا السائل المنوى للإنسان دون اشتراط اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة كما نجده فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ** ﴾ [**السجدة** : ٨] .

والسلالة تعنى : الشىء المستخرج من شىء آخر أو هى تعنى : أحسن جزء من شىء . أيًا ما يكون معنى السلالة فهى تعنى: جزءًا من كل.

إن السبب فى إخصاب البويضة الذى يفضى إلى بدء عملية التناسل هو خلية شديدة الاستطالة بالنسبة إلى حجمها الضئيل ويقاس طولها بما لا يزيد على ٠,٠٠١ مم . وعندما تصل خلية واحدة من هذه الخلايا الضئيلة الحجم المستطيلة الشكل الصادرة عن الرجل فى الظروف العادية إلى البويضة تبدأ عملية التناسل . هذا ولا أهمية لتخلف ملايين الحيوانات أو الخلايا المنوية الأخرى فى الطريق حيث إنه لا يوجد فى تجويف الرحم إلا بويضة واحدة فى العادة . إنه إذن جزء متناه فى الصغر صادر من سائل منوى معقد التركيب هو الذى يبدأ عملية التناسل .

وكيف لا نندهش أمام هذه الدقة فى التعبير القرآنى عندما تكشف صوابها وصحتها حقائق العلم الحديث ؟

٣- تعشش البويضة المخصبة ..

3- The Implantation of the Egg ..

تنزل البويضة المخصبة لتُعَشِّش فى تجويف الرحم . ويسمى القرآن الرحم الذى تعشش فيه البويضة بعد إخصابها بالمكان المكين فى بعض الأحيان ، ويستخدم تعبير الرحم والأرحام فى أحيان أخرى ، وذلك كما فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ [**الحج** : ٥] .

ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية تشبه عملية استقرار البذور فى الأرض، وتنهل البويضة من جدار الرحم كل ما يلزم لنمو الجنين . ولم يتم الكشف عن هذه الامتدادات فى البويضة مما تجعلها تلتصق وتعشش فى جدار الرحم إلا فى العصر الحديث . ولقد أشار القرآن الكريم خمس مرات إلى هذا التعلق الذى يتمثل فيه بدء عملية التناسل كما هو الشأن فى آيتين من سورة العلق وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ [**العلق** : ١، ٢][(١)] .

وكلمة «العَلَق» تعنى : «الشىء يعلق بشىء آخر أو يتشبث به» وتجلط الدم يشبه العلوق ولذلك وجدنا المفسرين ينساقون إلى اعتبار وجود الجنين كجلطة دم هو بداية النسل . وهو تفسير غير صحيح كما سبق أن أشرنا ، ومن الخطأ أيضا اعتبار أن العلق هو مجرد التصاق شىء بآخر . إن للعلق فى عملية التناسل معنى أكثر من معنى مجرد الملاصقة . إنه ملاصقة ذات تغلغل لشىء فى شىء مع وجود حيوية ، وهذا بالطبع غير ملاصقة جماد لجماد آخر . إن الجماد لا يتحول من مرحلة إلى مرحلة أخرى وليس الجماد قابلا للنمو . وإلى هذه المراحل فى النمو يشير القرآن الكريم فى آيات متعددة كما يلى :

﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [**الحج**[(٢)] : ٥]

وأيضا : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ**

---

(١) من الغريب فعلا أن يكون اسم السورة التى أنزل الله فيها أول خمس آيات من القرآن الكريم هو سورة «العلق» ، وأن يكون «العلق» هو أول مراحل خلق الإنسان فى الرحم . (المترجم) .

(٢) كما فى مواضع أخرى ، واكتفى المؤلف بجزء من الآية وأكملنا نص الآيه الكريمة . (المترجم).

خلقنا النُّطفة علقةً فخلقنا العلقة مُضغةً فخلقنا المُضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] .

﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ [غافر: ٦٧]

﴿ ألم يك نطفةً من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقةً فخلق فسوى ﴾ [القيامة: ٣٧ ، ٣٨] .

ويصف القرآن الكريم العضو الذى يحدث فيه الحمل باعتبار أنه «الرحم» فى مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ [الحج: ٥] . كما يسميه القرآن الكريم فى مواضع أخرى باعتبار أنه «قرار مكين» كما فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ [المؤمنون: ١٣] وهكذا الشأن أيضا فى الآية الحادية والعشرين من سورة المرسلات .

٤- تطوُّرُ الجنين فى الرَّحِم

4 - Evolution of the Embryo inside the uterus

يتفق تَطوُّرُ الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن الكريم تمام الاتفاق مع ما يقرره العلم الحديث فى هذا الصدد ، ولا يحتوى وصف القرآن الكريم لمراحل تَطوُّر الجنين على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن يعارضها أو ينقدها أو ينقضها من حيث تحديد هذه المراحل أو تتابعها .

يطلعنا القرآن الكريم على أن الجنين بعد مرحلة العلوق أو التشبُّث أو التعشُّش التى سبق أن أشرنا إليها ، وهى مرحلة حقيقية فى ضوء معلومات العلوم الحديثة يمر لجنين وينتقل إلى مرحلة أخرى هى مرحلة تكوين «المضغة» يكون فيها الجنين قوامه كقوام «اللحم الممضوغ chewed flesh" ثم يتكون داخل هذا اللحم الممضوغ أو «المضغة» النسيج العظمى (أكثر صلابة من لحم المضغة وأكثر ليونة من العظام المكتملة النمو) . وتعبر عن ذلك سورة « لمؤمنون» فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مُضغةً فخلقنا المُضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ﴾ [المؤمنون: ١٤] .

وإذا كانت «المضغة» تشبه اللحم الممضوغ نجد أن «اللحم» المشار إليه هنا يشبه اللحم «غير الممضوغ» أى اللحم الذى لم يمضغ ولم يطبخ ، له قوام آخر غير قوام المضغة . وهذا التمييز بين هذين النوعين من اللحم فى أول مراحل تكوين الجنين يستحق الالتفات . تؤكد الدراسات العلمية الحديثة أن الجنين فى المرحلة الأولى من مراحل تطوره يكون عبارة عن كتلة صغيرة من اللحم يمكن رؤيتها بالعين المجرد مثل قطعة من اللحم الممضوغ ، ويتكون الهيكل العظمى فى هذه الكتلة من اللحم الممضوغ ، ثم تتشكل العظام ، ثم تتغطى العظام بالعضلات التى تكسو العظام بطبقة من اللحم .

ومن المعروف أن بعض أجزاء جسم الجنين تتغير وأن بعضها الآخر يظل ثابتا لا يتغير . وهذا هو المقصود بتعبير «مخلقة وغير مخلقة» الموجود بالآية الخامسة من سورة الحج ، أى أنه يكون فى هذه المضغة صفات تظل موجودة فى خلقة الجنين مستمرة فى مراحل نموه التالية وصفات أخرى تزول وتتلاشى بعد أداء وظيفتها فى نمو الجنين .

ويذكر لنا القرآن أيضا ظهور الحواس والأحشاء ، وذلك فى مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .... ﴾ [السجدة : ٩] .

كما يشير القرآن الكريم أيضا إلى تحديد جنس الجنين بين الذكورة والأنوثة فى مثل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم : ٤٥ ، ٤٦] .

وتشير الآية الحادية عشرة من سورة فاطر ، وكذلك الآية التاسعة والثلاثون من سورة القيامة إلى أن الله يخلق الذكورة والأنوثة فى الأجنّة .

وعند مقارنة هذه الحقائق القرآنية مع حقائق العلوم الحديثة تتوافق وتتسق حقائق القرآن مع حقائق العلوم الحديثة . ولكن الاعتبار الأكثر أهمية هو ضرورة أن نأخذ فى اعتبارنا المعلومات التى كانت سائدة قبل وأثناء عصر نزول القرآن وربما بعده بقرون كثيرة وكيف أنه لم تتسلل أى معلومات خاطئة من تلك المعلومات الخاطئة الكثيرة التى كانت شائعة فى عصر نزول القرآن الكريم إلى آية واحدة من آيات القرآن الكريم سواء فى هذا الموضوع أو ذاك، سواء فى هذا المبحث من مباحث العلوم المختلفة أو ذاك . إن معاصرى سنى نزول القرآن الكريم لم يكونوا يمتلكون معرفة كثير من الحقائق العلمية التى أشار إليها القرآن الكريم فى مثل هذه الموضوعات العلمية . وليس هنالك أى شك فى أن المعاصرين لزمن تنزيل القرآن الكريم من أوائل المفسرين لم يكونوا يستطيعون تفسير الوحى الإلهى المتعلق بهذه الموضوعات العلمية كما تيسر لنا ذلك بفضل الحقائق العلمية التى أصبحت متاحة معروفة لنا فى العصر الحديث الذى نعيش فيه ، وهى ميزة لم تتحقق إلى حد كبير إلا بدءا من القرن التاسع عشر .

طيلة القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار الأسطورية التى لا تقوم على أى أساس علمى هى التى تسود مختلف المعتقدات فى هذه الموضوعات التى تعتبر موضوعات علمية، بل لقد ظلت هذه الخرافات والأفكار الأسطورية سائدة شائعة بين الناس طوال قرون عديدة بعد العصور الوسطى . إن المرحلة الحاسمة فى تطور وتقدم علم الأجنّة بدأت على يد «هارفى Harvey" الذى أعلن فى عام ١٦٥١م أن كل مولود يبدأ تكوينه ويتأتى من «بويضة» وأن الجنين يتم تخليقه تدريجيا فى مراحل ، مرحلة بعد مرحلة ، ولا يتم تخليقه دفعة واحدة فى مرحلة واحدة . ولقد أصبح التحقق من هذه الحقائق متاحا ممكنا فحسب بعد اختراع المجهر microscope الذى تم اختراعه واستخدامه

قبل هارفى بوقت قصير، وعلى الرغم من ذلك ظل النقاش مستمرا لوقت طويل بين علماء الأجنة عن دور الحيوان المنوى ودور البويضة فى عملية الإخصاب وبدء الحمل. كان بوفون Buffon عالم الطبيعيات المشهور على رأس فريق من العلماء يرون أن البويضة هى التى تسبب الإخصاب . وكان «بونى Bonnet" على رأس فريق آخر من العلماء يرون أن مبيض الأنثى يحتوى على بذور كل الكائنات البشرية ذكورا وإناثا يختلط بعضها بالآخر . واستمر الجدل بين مختلف وجهات النظر بين العلماء فى هذه المسائل وأمثالها طوال القرن الثامن عشر ، حتى استقرت الحقائق بفضل تقدم العلم ووسائل وأدوات العلم فى عصرنا الراهن .

ولقد عرف الناس القرآن منذ أكثر من ألف عام ، وكانت الخرافات والأساطير سائدة فى العصر الذى نزل فيه القرآن . ولكننا نجد بالفعل أن الحقائق التى يذكرها القرآن بشأن موضوع علمى مثل موضوع التناسل البشرى يعبر بألفاظ سهلة بسيطة عن حقائق علمية قضت البشرية مئات السنين لتصل إلى معرفتها بالوسائل البشرية العلمية الخاصة بالبشر .

القرآن ومعلومات الجنس

The Our'an and Sex

يعتقد الناس فى عصرنا أنهم قد تحقق لهم كم هائل من الاكتشافات التى لم تكن موجودة لدى البشر فى العصور السابقة . ويظن الناس بوجه خاص أنهم قد توصلوا إلى مفاهيم جديدة فى مجال التربية الجنسية Sex Education وأن فتح أبواب المعارف الجنسية للشباب لمعرفة مشاكل الحياة الجنسية إنما هو كسْبٌ كبير من مكتسبات الشباب فى العصر الحديث ، وأن القرون الماضية فى العصر الوسيط وما قبله كانت تتميز فى مثل هذا الموضوع بظلام دامسٍ .ويؤكد المشتغلون بمسائل التربية الجنسية فى عصرنا أن الأديان دونما تحديد كانت هى المسئولة عن هذا الظلام وذلك التعتيم على المعارف المتصلة بحقائق الحياة الجنسية !

وما سبق لنا أن عرضناه يعتبر دليلا قاطعا على أن بعض نصوص القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان كانت تقدم للناس من خلال كلمات واضحة بسيطة كثيرا من حقائق الحياة الجنسية عموما ، وعن التناسل الإنسانى خصوصا ، حيث إنه لم تكن المعلومات التشريحية والفسيولوجية متاحة للناس آنذاك ، ومن ثم كان استخدام القرآن الكريم لغة بسيطة تذكر الحقائق دون الخوض فى التفاصيل لتكون الحقائق سهلة الاستيعاب لدى مستمعيها أو قارئيها حتى يمكن لهم أن يفهموا ما يقال من حقائق عن الحياة الجنسية والتناسلية ونظام النكاح والطلاق ، وغير ذلك من موضوعات جنسية فى صميم مسائل التربية الجنسية .

ولم تمر الرسالة التى يوجهها القرآن الكريم فى هذا الصدد بالمسائل مرور الكرام ، بل إننا نجد القرآن الكريم بالفعل يقدم لنا حشْداً من التفاصيل عن الحياة العملية فيما يختص بالسلوك الذى يجب أن يتبعه الناس فى عديد من ممارسات حياتهم ولتحقيق التناسل فيما بينهم ، ولم يستبعد القرآن الكريم إطلاقا الحياة الجنسية للناس ، بل عمد إلى إبراز حقائقها وتنظيم شئونها ، ويلزم استثناء القرآن من القول بأن الكتب السماوية والأديان قد تسببت فى التعتيم على حقائق الحياة الجنسية ليسودها الظلام طوال القرون الماضية .

ويوجد بالقرآن الكريم آيتان تتحدثان مباشرة عن الحياة الجنسية وذلك باستخدام ألفاظ تجمع بين الدقة والاحتشام Precision & decency وعندما نراجع التفسيرات وترجمة المعانى لهاتين الآيتين نفاجأ بالاختلاف فى وجهات النظر إليهما مما جعلنى مترددا بشأن المقصود منهما ، ولكننى أدين بالفضل للأستاذ الدكتور عبد الكريم جيرو ، الأستاذ السابق بكلية طب بيروت لإدراك المعانى الدقيقة فى هاتين الآيتين من القرآن الكريم ، وهما : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٦ ، ٧] .

لقد أشار النص القرآنى فى هاتين الآيتين إلى المنطقة الجنسية الأولى عند الرجل باعتبار أنها «الصُّلْب» وهى مفرد . أما المنطقة الجنسية عند المرأة فقد أشار إليها باعتبار أنها هى «الترائب» ، وهى فى صيغة الجمع .

ولقد دأب المترجمون أن ينقلوا المعنى الموجود فى هاتين الآيتين بما يعنى أن الإنسان قد خُلِقَ من سائل منتشر يخرج من بين «العمود الفقرى وعظام الصدر» وليس هذا التفسير ونقل المعنى وفْقاً له صحيحا ولا دقيقا ولا مفهوما والمسئول عن كل ذلك هو خطأ التفسير وإدراك المعنى وخطأ الترجمة بالتالى فى نقل المعنى المقصود[1] فى هاتين الآيتين .

وتشير آيات من القرآن الكريم إلى ما ينبغى أن يكون عليه سلوك الرجال مع نسائهم فى ظروف متنوعة وخاصة تلك التى تتصل بالناحية الجنسية مثل مدة الحيض وفى أعقاب وفاة الزوج وفى أعقاب الطلاق ، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢ ، ٢٢٣] .

ولبداية هذا النص القرآنى معنى واضح تماما هو نَهْىٌ عن ممارسة العملية الجنسية مع المرأة أثناء فترة حيضها بشكل قاطع مع التنبيه على وجود أذى يصيب من لا يمتثل لهذا النهى وهو حقيقة

(١) سبق أن أشار المؤلف إلى المعنى الصحيح باعتبار أن الصلب خاص بالرجل ، وأن الترائب خاصة بالأنثى وأخطأت الترجمة فى نقل المعنى حين جعلت هذا السائل المتسبب فى التناسل يخرج من بين عموده الفقرى وعظام صدره . (المترجم).

علمية مؤكدة . وتحث الآية (٢٢٢) أيضا النساء على أن يتطهرن من آثار الحيض ، وتجعل هذا التطهر شرطا لاستئناف ممارسة العملية الجنسية بعد الحيض . أما صدر الآية (٢٢٣) فهو يحث الناس على ممارسة العملية الجنسية مع زوجاتهم دون حرج أو غضاضة فى ذلك باعتباره مسألة طبيعية مادامت تتم وفقا للنظام الذى حدده الله . وتعبير «نساؤكم» يعنى زوجة الرجل، لأن امرأة لم يتزوجها الرجل لا تعتبر شرعا من «نسائه» ويلاحظ اللطف فى التعبير عن العملية الجنسية باستخدام لغة المجاز وتوظيفها فى بيان الغرض من ممارسة الجنس بشكل طبيعى وفقا للنظام الذى شرعه الله فى هذا الصدد وهو التعبير بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم﴾ وهو تعبير يجعل الهدف والغرض من العملية الجنسية ليس هو الاستمتاع باللذة السريعة العابرة أثناء ممارسة العملية الجنسية ، ولكن الغرض منها هو إنجاب الأولاد – البنين أو البنات –لحفظ النوع وتعمير الكون كما أن الغرض من الحرث للأرض هو إعداد الأرض لبذر البذور وإنبات النبات . وكما أن حرث الأرض هو بداية عملية الزراعه . فالعملية الجنسية هى بداية الإنجاب والتناسل .

وهكذا تبدو التوجيهات الإلهية هنا ذات طابع عام يشمل الناس جميعا . وقد تساءل بعض الناس ما إذا كان القرآن الكريم قد تعرض لمسألة منع الحمل . والحقيقة هى أن القرآن الكريم لم يتعرض هنا ولا فى أى موضوع آخر لمشكلة منع الحمل بالتحريم ولا بالإباحة .

ولم يشر القرآن أيضا بالتحريم ولا بالإباحة لمشكلة الإجهاض ، ولكن حديث القرآن عن مراحل الحمل المتعددة تدل بوضوح على أن بداية الحمل من أول مراحله تعنى بدء وجود إنسان جديد ، ومن الضرورى بناء على ذلك احترام ذلك الإنسان الجديد بحيث يكون له ضرورة الحماية بنفس القدر المقدر للإنسان عموما مما يقطع بأن الإجهاض ممنوع شرعا وهو منع تجمع عليه كل أديان التوحيد فى عصرنا .

وأثناء الصيام فى شهر رمضان أباح الله للمسلمين ممارسة العلاقة الجنسية «مع نسائهم» أثناء الليل حتى الفجر ، وتعتبر هذه ميزة خاصة أباحها الله للمسلمين ونصّ عليها القرآن الكريم صراحة فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ** ﴾ [**البقرة** : ١٨٧] .

على حين أن القرآن الكريم قد نهى عن ذلك أثناء الحج فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَمَن فرض فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ [**البقرة** : ١٩٧] . والتحريم هنا قطعى كتحريم الصيد والخصام وغير ذلك أثناء الحج .

ويشير القرآن الكريم إلى حالة المطلقة ومتى يجوز لها الزواج من آخر منعا لاختلاط الأنساب ، مع ربط ذلك بالحيض للعلاقة بينهما ولاختلاف مدة الحيض والطهر من الحيض بين النساء وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] والفترة المشار إليها إليها هنا هى الفترة التالية لوقوع الطلاق للتأكد من عدم وجود حمل من الزوج الذى صدر منه الطلاق حتى لا ينسب ابنه أو ابنته إلى رجل آخر تتزوجه مطلقته . وهنالك أيضا فترة محددة أوصى القرآن أن تنتظرها من مات عنها زوجها فلا تتزوج حتى تمر هذه الفترة وهى فترة تكفى وبالضبط لبيان ما إذا كان هنالك إنجاب وحمل من الزوج المتوفى من عدمه . وهذه أحكام دقيقة بالغة الدقة والسداد .

ويلاحظ أنه ليس فى هذه الحقائق والأحكام بشأن الحياة الجنسية للبشر الورادة فى القرآن الكريم أى خطأ علمى أو منطقى بمعايير العلوم الحديثة .

الروايات القرآنية والروايات التوراتية

Qura'nic and Biblical Narrations

مبادئ عامة *General outlines*

كثير من الموضوعات التى ذكرتها التوراة موجودة أيضا فى القرآن الكريم . إنها روايات تتعلق ببعض الأنبياء مثل : نوح وإبراهيم وإلياس ويونس وأيوب وموسى وطالوت وداود وسليمان عليهم السلام . ولا يهم فى هذا الصدد إلا الروايات الرئيسية المشتركة بين القرآن الكريم والتوراة بصرف النظر عن الإشارات العابرة إلى أشخاص أدوارهم صغيرة ومحدودة . ثم ننتقل إلى موضوعات الأحداث الكبرى الحافلة بالخوارق مثل خَلْق السموات والأرض والطوفان وخروج موسى ببنى إسرائيل من مصر . وأخيرا هنالك كل ما يتصل بالمسيح عليه السلام وأمه العذراء مريم عليها السلام ونكون قد انتقلنا بهذا إلى إطار العهد الجديد أيضا .

ما هى خلاصة ما يمكن أن نستنجه بشأن هذه الموضوعات المشتركة بين الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة التى نثق بصحتها خارج نطاق النصوص المقدسة ؟

موازنة بين القرآن والإنجيل والمعارف الحديثة

Parallel : Qur'an , Gospel & modern Knowledge

فيما يتعلق بالتوازى بين القرآن والأناجيل ، يجب أن نلاحظ أولا وقبل كل شيء أن كل الموضوعات التى تم انتقادها ونَقْضها فى الأناجيل من وجهة النظر العلمية وفى ضوء المعارف الحديثة والمعقولية والمنطق (كما أوردنا نماذج منها فى الجزء الثانى من هذا الكتاب) لم يتسلل شيء منها بتاتا إلى نصوص القرآن[1] الكريم .

وفى القرآن الكريم إشارات عديدة إلى المسيح عليه السلام وإلى أمه العذراء مريم وكيف وضعتها أمها ، امرأة عمران أنثى ، ونذرتها لخدمة المعبد ، وكذلك كيفية ميلاد المسيح دون أن يَمسَّ أمه العذراء بشر من الرجال ، وكذلك طبيعة المسيح وأنه كان بشرا رسولا ونبيا من أولى العزم، ويعترف القرآن الكريم أن عيسى ابن مريم هو المسيح أنزل الله عليه الإنجيل مؤكدا للتعاليم الصحيحة للتوراة ، مصححا ماحرفه اليهود من نصوصها ، وما ابتدعوه من مخالفات فى تطبيقها متمسكين بظاهر النصوص مهدرين لجوهرها . كما تحدث القرآن الكريم أيضا عن الحواريين أتباع المسيح ، وعن نهاية شأن المسيح مع قومه ، وعما سيقوله المسيح يوم القيامة من أنه لم يقل لقومه إلا ما أمره الله به أن يعبدوا الله رب المسيح وربهم ... إلخ ... والسورة الثالثة من القرآن الكريم هى سورة «آل عمران» وهم أجداد المسيح لأمه . والسورة التاسعة عشرة من القرآن الكريم هى سورة «مريم» وبها آيات كثيرة عن العذراء مريم ، وعن المسيح وعن مولده . ويشير القرآن الكريم إلى المسيح فى مواضع كثيرة باعتبار أنه المسيح عيسى ابن مريم . وهكذا يجعل القرآن الكريم نسب المسيح نسبة إلى أمه ، وهذا منطقى تماما إذ أنه مما لا جدال فيه أنه لم يكن للمسيح أب من الناحية البيولوجية البحتة مثل كل البشر . ويختلف القرآن الكريم فى هذه المسألة اختلافا تاما عن إنجيل متّى وعن إنجيل لوقا اللذين يجعلان للمسيح كما رأينا نسبا فى كل منهما يختلف عن الآخر من ناحية الأب ، مع أنه من المعروف أن المسيح لم يولد نتيجة إنجاب أب للمسيح عليه السلام .

القرآن الكريم يلحق نسب المسيح بآل عمران من جهة أمه مريم بنت عمران دون مواربة فى ذلك ودون أى لبس ، ليتصل نسب المسيح عن طريق أمه بسلسلة نوح وإبراهيم وآل عمران ، وذلك فى مثل قول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) هذه الملاحظة التى أبداها المؤلف على جانب كبير من الأهمية إذا إنها تدحض فرية أن نبى الإسلام ﷺ قد كتب القرآن الكريم من تلقاء نفسه ومن إنشائه ولم يوح الله إليه شيئا، ولكن محمدا ﷺ – فى زعمهم – قد كتب القرآن الكريم بتقليد نصوص الأناجيل أو التوراة أو علم رجل من أهل الكتاب . (المترجم) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤] .

المسيح عليه السلام فى القرآن الكريم هو سليل نوح وإبراهيم عن طريق أمه مريم وأبيها عمران. ولا يجد القارئ فى القرآن الكريم أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل فيما يتعلق بأسلاف المسيح مما يضفى المصداقية على العكس مما نجده فى الأناجيل من تضارب فى سلسلة نسب المسيح بين رواية إنجيل ورواية إنجيل آخر ، وهى مسألة بحكم طبيعتها لا مجال فيها للتضارب والتناقض كما سبق أن شرحنا بالتفصيل فى الجزء الأول وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

ومرة أخرى تقتضينا الموضوعية أن نشير إلى افتراء وادعاء أولئك الذين يقولون كذبا ودون أى أساس أو مستند صحيح إن محمدا ﷺ هو مؤلف القرآن الكريم، وقد نقل كثيرا من نصوص التوراة ونقل من الأناجيل . ولو كان ذلك صحيحا فلماذا لم ينقل محمد ﷺ سلسلة نسب المسيح كما وردت فى الأناجيل ؟ وما الذى جعل محمدا لا يدخل فى نصوص القرآن الكريم كل الأخطاء التى لاحظنا نماذج كثيرة منها فى هذا الكتاب على حين أن نصوص التوراة ونصوص الأناجيل تعج بالأخطاء غير المقبولة منطقيا وعلميا[1] ولا يمكن الدفاع عنها بأى حال بينما القرآن الكريم يخلو تماما من هذه الأخطاء ؟!

موازنة بين القرآن وبين العهد القديم والعلم

Parallel : Our'an , old Testament & Modern Knowledge

فيما يتعلق بشأن العهد القديم (التوراة) ، فلقد تَمَّتْ مناقشة جوانب معينة منها فى هذا الكتاب من قبل . ولقد كانت قصة خلق الله للعالم على سبيل المثال موضوعا لدراسة نقدية مطوَّلة فى الجزء الأول من هذا الكتاب . كما أننا قد ناقشنا هذا الموضوع نفسه فى ضوء نصوص القرآن الكريم . ولقد سبق لنا أن أجرينا بعض المقارنات ولا حاجة بنا إلى العودة إلى مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى .

إن المعارف التاريخية الراهنة شديدة الغموض ومتضاربة ، ومعطيات علم الآثار فقيرة فى مضمونها حتى الآن وقاصرة عن أن تعطينا صورة صحيحة عن أحداث التاريخ الماضية ، لذلك لا

(١) الفرق شاسع وواضح بين معقولية ما يقصه القرآن فى هذا الصدد وبين لامعقولية ماترويه التوراة . تخبرنا التوراة مثلا أن نبى الله سليمان وهو أحد ملوك بنى إسرائيل ، جمع بين الملك والنبوة ، كان يستخدم السحر فى تصريف شئون مملكته وفى السيطرة على رعيته ، بينما يخبرنا القرآن الكريم أنه جمع كتب السحر ليمنع السحرة عن ممارسة السحر ، أيهما يليق بنبى من أنبياء الله : يمارس السحر أم يمنع السحرة من ممارسة السحر ؟ (المترجم) .

نستطيع مناقشة المسائل المتعلقة بتاريخ ملوك بنى إسرائيل . وهى موضوعات مشتركة بين التوراة والقرآن الكريم .

وبالنسبة للأنبياء ، فهذه موضوعات يمكن أو لايمكن التعرض لها وفقا لمعايير العلم الحديثة بقدر ما للأحداث المروية (أو بقدر ما ليس لها) ترجمة تاريخية تركت آثارا من الممكن أن تكون قد وصلت إلينا[1] .

وهنالك موضوعان نموذجيان – لو شئنا المقارنة بين رواية التوراة ، ورواية القرآن – وهذان الموضوعان لهما روايات مشتركة بين التوراة وبين القرآن مما يجعلهما يستحقان الدراسة بشئ من التفصيل .

وهذان الموضوعان هما :

– الطوفان . - The Flood.

– خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر . - The Exodus.

الطوفان *The Flood*

رواية التوراة عن الطوفان

لقد سبق أن أفْضَتْ دراستُنا لرواية التوراة عن الطوفان فى الجزء الأول من هذا الكتاب إلى الملاحظات الآتية :

لاحظنا أولا أنه ليس فى التوراة رواية واحدة عن الطوفان ، بل وجدنا روايتين مختلفتين تم تحرير إحداهما فى عصر تاريخى غير العصر الذى تم فيه تحرير الأخرى ، وهاتان الروايتان هما :

– الروايةُ اليَهويَّة Yahvist version وهى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

– الرواية الكهنوتية Sacerdotal version وهى ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد . وقد عرفت بهذا الاسم لأنها من إنشاء كهنة المعابد من اليهود .

ولم تأت كُلٌّ من هاتين الروايتين على نحو تستقل فيه إحداهما عن الأخرى، بل نجد إحداهما

(١) فيما يتعلق بموضوع الأنبياء عبَّرَ المؤلف عن وجهة نظره الخاصة به ، ومن جهة نظرى المتواضعة ككاتب مسلم ، أرى أن موضوع قصص الانبياء فى أى كتاب سماوى يمكن أن نحدد موقفنا منها على أساس مدى مصداقية هذا الكتاب السماوى أو ذاك . وعلى أساس ما إذا كان ذلك الكتاب السماوى يحوى كلام الله بحق فقط ، ولم يتداخل فيه كلام البشر أم لا ، وعلى هذا الأساس يؤمن الإنسان المسلم مثلى بصحة كل قصص الأنبياء ومعجزاتهم «كما وردت بالقرآن» ودون تكذيب لأى جزئية فيها سواء كانت لها آثار تاريخية باقية أو لم يكن لها آثار تاريخية باقية تأسيسا على المصداقية التامة للقرآن الكريم وعلى أساس أنه كلام الله وليس كلام بشر . (المترجم) .

تتداخل فى[1] نصوص الأخرى .

وتشير ملاحظات وتعليقات الأب ديفو R . P de vaux فى مقدمة ترجمته لسفْر التكوين، وهو أستاذ بمدرسة الكتاب المقدس بالقدس إلى هذا التداخل بين الروايتين ، ويحدد لنا أنه يوجد فى قصة الطوفان بين الروايتين ١٠ فقرات يهوية وهناك بالإجمال ٩ فقرات كهنوتية مع تداخل واحدة من هنا مع واحدة من هناك . وهذه النصوص إجمالا متعددة الأصول ، ولا تتمتع بالوضوح إلا فى بعض الأحداث الكبرى ، ولكن وصف هذه الأحداث مختلف أشد الاختلاف بين الروايتين ، ويقول الأب ديفو بالحرف الواحد ما نصه كما يلى : «إنهما حكايتان للطوفان تختلف فيهما العوامل التى أدت إلى الطوفان ، كما يختلف زمن وقوعه ، وتختلف عدد الحيوانات التى أخذها نوح معه فى السفينة» .

إن رواية الطوفان فى التوراة غير مقبولة فى إطارها العام وذلك لسببين يتضحان بجلاء فى ضوء العلوم الحديثة ، وهما :

(أ) يعطى العهد القديم للطوفان طابعا عالميا .

(ب) على حين لم تعط فقرات المصدر اليهوى للطوفان تاريخا محددا ، تحدد الرواية الكهنوتية للطوفان وقتا محددا فى عصر من المستحيل أن يكون قد وقعت فيه كارثة عالمية من هذا النوع ، وذلك للأسباب القوية الآتية :

تقول الرواية الكهنوتية إن الطوفان قد حدث عندما كان عمر سيدنا نوح ٦٠٠ سنة ، ومن المعروف وفقا لتحديد الأنساب المذكور فى الأصحاح الخامس من سفر التكوين أن سيدنا نوحا قد وُلدَ بعد سيدنا آدم بزمن قدره (١٠٥٦ سنة) . وهذه الأنساب كهنوتية المصدر وقد ذكرناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب . وينتج عن ذلك أن الطوفان يكون قد حدث بعد مولد سيدنا نوح بـ ٦٠٠ سنة وأن عام حدوث الطوفان يمكن تحديده على هذا الأساس بأنه عام ١٦٥٦ ق.م (١٠٥٦ ق.م سنة مولد سيدنا نوح + ٦٠٠ سنة عمر سيدنا نوح عند حدوث الطوفان = ١٦٥٦ق.م) ومن ناحية أخرى نجد أن جدول أنساب سيدنا إبراهيم الذى تذكره التوراة أيضا فى الأصحاح (١١ : ١٠-٣٢) يسمح لنا بتقدير أن سيدنا إبراهيم قد وُلد «بعد» الطوفان بزمن قدره هو (٢٩٢ سنة) . ولما كنا نعرف حسب نفس المصدر وهو التوراة أن سيدنا إبراهيم كان يعيش فى عام (١٨٥٠ق.م) ، يتحدد إذن زمن آخر للطوفان هو[2] (٢١٠٠-٢٢٠٠ سنة ق.م) .

---

(١) بما أن الرواية اليهوية لقصة الطوفان أسبق من الرواية الكهنوتية كما قرر المؤلف فالأقرب إلى التصور أن يـ ـن الكهنة قد أدخلوا أجزاء من الرواية اليهوية فى روايتهم الكهنوتية والعكس مستحيل بطبيعة الحال . (المترجم) .

(٢) يضيف المؤلف ملاحظة هامشية مؤداها أن الباحثين فى الكتاب المقدس من علماء المسيحية قد اكتشفوا هذه الأخطاء وأشاروا بحذف النصوص المتضمنة لها عند إعادة طبع التوراة دون إشارة إطلاقا لوجود هذه الأخطاء اكتفاء بعملية الحذف . (المترجم) .

وبالإضافة إلى هذا التناقض بشأن وقت حدوث الطوفان هنالك تناقض آخر أكثر خطورة ولايحتاج إلى مناقشة تحديد زمن حدوث حدث من الأحداث التاريخية الكبرى ذات الشهرة فى تاريخ العالم . تزعم التوراة أن هذا الحدث الجلل ، الطوفان ، قد دمر البشرية ، ومن الثابت أنه فى الوقت الذى حددوه لحدوث الطوفان كانت حياة شعوب ذات حضارة آثارها باقية مستمرة فى بلد[1] مثل مصر مثلا . إن تحديد التوراة لزمن الطوفان يتوافق مع الفترة التاريخية التى تنحصر بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى . ومن المضحك استنادا إلى المعلومات التاريخية والآثار التى لا تزال موجودة أن يتصور أحد أن الطوفان قد أهلك عند حدوثه كل الحضارات فى كل بلاد العالم مثل مصر وبلاد اليونان .

ومنه يتضح أن رواية التوراة عن الطوفان تتناقض بشكل واضح مع المعلومات العلمية التاريخية الحديثة ومع المعقولية أيضا .

رواية القرآن عن الطوفان

Narration of The Flood in the Qur'an

يعطينا القرآن الكريم عن الطوفان رواية عامة مختلفة عن رواية الكتاب المقدس ، وراوية القرآن عن الطوفان لاتسمح بأى نقد أو نقض لمحتوياتها من وجهة النظر التاريخية وفقا لمعايير علم التاريخ الحديث .

والقرآن الكريم لايعطينا عن الطوفان رواية متصلة تقع فى سطور وصفحات متتالية من القرآن الكريم من بداية الرواية حتى نهايتها بل تتناثر الأخبار بشأن الطوفان كما تتناثر بشأن غيره من قصص القرآن فى مواضع متفرقة وفى سورٍ متعددة من القرآن الكريم . ونجد أكبر قسْطٍ من قصة الطوفان بالقرآن فى سورة «هود» بالآيات (٢٥ – ٤٩) . أما سورة «نوح» فالغالب على نص القرآن فيها هو أنه ينصب على جدل سيدنا نوح مع قومه بشأن دعوته لهم إلى عبادة الله ونبذ الأصنام ، وينصب على مواعظه لهم فى هذا الصدد ، وهكذا الشأن أيضا فى سورة «الشعراء» بالآيات (١٠٥ – ١١٥) .

وقبل مناقشة أحداث الطوفان كما أوردها القرآن يجدر بنا أن نحدد طبيعة «الطوفان» ومفهومه كما يحدده القرآن الكريم ، إن القرآن الكريم يحدد مفهوم الطوفان باعتبار أنه عقوبة من الله للكافرين «من قوم نوح» لعنادهم وعدم قبولهم دعوة سيدنا نوح لهم للإيمان وتمسكهم بعبادة الأصنام . هذا ، على حين تحدثنا التوراة عن الطوفان كعقوبة من الله دمّرتْ العالم كله كعقاب

(١) معنى ذلك أنه يجوز لنا أن نسأل : هل دمر الطوفان حياة الناس فى بلد مثل مصر أيضا ؟

لكل البشرية الكافرة . والقرآن الكريم أيضا يشير إلى عقوبات مماثلة عديدة نزلت وأحاقت بجماعات محددة تحديدا تاما ، وذلك في مثل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)** ﴾ [**الفرقان** : ٣٥ - ٣٩]

وكذلك أيضا نجد أن الآيات (٥٩ - ٩٣) من سورة الأعراف تقدم لنا العقوبات التى أنزلها بالكافرين من قوم نوح وبالكافرين من قوم عاد ، وبالكافرين من ثمود ، وبالكافرين من مدين ، كل على حدة .

ونستطيع أن نخلص من ذلك بكل ثقة واطمئنان إلى أن القرآن الكريم يقدم لنا كارثة «الطوفان» باعتبار أنها عقاب أنزله الله بشكل خاص على الكافرين من قوم سيدنا نوح عليه السلام، وهذا الاعتبار المهم يشكل الفرق الأساسى بين رواية التوراة عن الطوفان ورواية القرآن عن الطوفان .

أما الفرق الجوهرى الثانى بين الروايتين فهو يتمثل فى أن القرآن الكريم لايصرح ولايفصح أبداً عن تاريخ ووقت محدد[1] لوقوع كارثة الطوفان لنستطيع أن نصف هذا التوقيت بالصدق أو بالكذب كما تورطت التوراة بتقديم أكثر من تحديد لزمان حدوث الطوفان يستحيل أن يكون أى تحديد منها دقيقا .

أما كيفية حدوث الطوفان وأسبابه فهى واحدة فى رواية التوراة وفى رواية القرآن الكريم عن كيفية حدوث الطوفان على وجه التقريب .

تذكر لنا التوراة وفقا للرواية الكهنوتية فى سفر التكوين (٧ : ١١) سببين للطوفان إذ تقول التوراة فى الموضع المشار إليه : «فى ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة وانفتحت هواويس السماء» .

أما القرآن الكريم فهو يصف لنا كيفية حدوث الطوفان في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)** ﴾ [**القمر** : ١١، ١٢]

---

(١) المهم فى حدث مثل الطوفان من الناحية الدينية هو دلالته والعبرة المستخلصة منه وليس زمن حدوثه . وهذا هو الذى نلاحظه فى رواية القرآن الكريم عن الطوفان ، وبعدم ذكر توقيت محدد لحدوث الطوفان يستحيل أن يتهم أحد القرآن بالكذب فى هذا الصدد . (المترجم) .

والقرآن الكريم يحدد أيضا محتوى سفينة نوح على نحو دقيق فى رواية واحدة دون تذبذب بين أكثر من تحديد فى أكثر من رواية كما هو الشأن فى رواية التوراة عن محتوى سفينة نوح . ويقول القرآن إن الله قد أعطى سيدنا نوح أمرا محددا بشأن من يحمله معه فى السفينة وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** (٤٠) ﴾ [**هود** : ٤٠]

وتعبير «من سبق عليه القول» يذكر المفسرون أنه يعنى استبعاد «ابن سيدنا نوح» من ركوب السفينة وذلك لكفره وعناده . وتخبرنا الآيتان (٤٥ و ٤٦) من نفس هذه السورة (هود) أن سيدنا نوح قد تضرع إلى الله أن يأذن له فى أن يأخذ ابنه معه فى السفينة ، ولكنّ تَضَرُّعَ سيدنا نوح فى هذا الشأن لم يلق استجابة مما يدل على صرامة الأمر الإلهى وعدم استثناء كافر معاند من العقاب الذى قرره الله للكفار . ويتضح ذلك من قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** (٤٥) **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** (٤٦) ﴾ [**هود** : ٤٥، ٤٦]

محتوى سفينة نوح كما حدده القرآن الكريم وحدده الأمر الإلهى لسيدنا نوح أن يأخذ معه فى السفينة من كل زوجين اثنين وأهل سيدنا نوح إلا من سبق عليه القول مما يعنى استبعاد ابن سيدنا نوح العاق المُصر على الكفر والعناد ، ومَن آمَنَ مع سيدنا نوح من قومه، ويشير القرآن الكريم إلى أن عددهم كان قليلا ، بينما لا تذكر التوراة عَمَّنْ آمَنَ بسيدنا نوح من الناس من قومه أى شىء كما لو كان قد أركب معه فى السفينة بعض المؤمنين وترك بعضهم الآخر ليهلكهم الطوفان فيمن أهلكهم ، وعلى العكس من التوراة نجد الله قد أمر سيدنا نوحا أن يحمل معه فى السفينة من آمن معه من الناس ولا يتركهم للهلاك فى الطوفان مهما كان عددهم ولو كان عددهم قليلا .

إن التوراة فى الواقع تقدم لنا ثلاث روايات مختلفة عن محتوى سفينة سيدنا نوح :

– محتوى السفينة وفقا للرواية الكهنوتية : نوح وأسرته دون استثناء وزوج واحد من كل نوع .

– ومحتوى السفينة وفقا للرواية اليهوية : نجد فيه التمييز بين الحيوانات والطيور الطاهرة والحيوانات والطيور النجسة . وتحتوى السفينة على «سبعة أزواج» ذكر وأنثى من كل نوع من الحيوانات والطيور الطاهرة ، وعلى زوج واحد من كل نوع من الحيوانات والطيور النجسة .

– وتوجد رواية ثالثة يهوية معدلة موجودة بسفر التكوين (٧ : ٨) تحدد ركاب السفينة باعتبار أنهم زوج واحد من كل نوع طاهر أو نجس .

وعلى حين نجد تعددا فى الروايات بالتوراة عن محتوى السفينة لا نجد إلا رواية واحدة فى القرآن الكريم تتعرض لذكر من أمر الله سيدنا نوحا أن يأخذهم معه بالسفينة على الرغم من تعدد

المواضع التى تعرض فيها القرآن لذكر قصة سيدنا نوح وقصة الطوفان كما سبق أن أشرنا ، إلا أنه لا توجد إشارة إلى ركاب سفينة سيدنا نوح إلا الإشارة التى سبق أن ذكرنا ، فلا تعدد ولا تضارب ولاتناقض فى القرآن الكريم عن ركاب سفينة نوح عليه السلام .

وتقول لنا التوراة إن المكان الذى جنحت إليه السفينة هو جبل أرارات ، وذلك فى سفر التكوين (٨ : ٤) أما القرآن الكريم فهو يقول إنه «الجودىُّ» (سورة هود : ٤٤) : وهذا الجبل موجود بأعلى قمم جبال أرارات بأرمينيا ولكن من العسير الاطمئنان إلى أن [illegible] بشروا الأسماء للتوفيق بين الروايتين كما يؤكد ذلك ر . بلاشيرR . Blachere الذى يذهب إلى أن هناك كتلة جبلية بهذا الاسم فى شبه الجزيرة العربية . وربما كان اتفاق الأسماء مصطنعا .

وهكذا يمكن لنا أن نخلص فى نهاية الأمر إلى وجود وجوه مهمة للاختلاف بين رواية القرآن عن الطوفان وروايات التوراة عن الطوفان ، وذلك فى أمور أساسية مهمة . وبعض هذه الاختلافات لايمكن الفصل فيه بالوسائل التى يمكن أن نطمئن إليها بحيث تكون متاحة لنا ، ولكن هذه الوسائل التى نطمئن إليها تطلعنا على تناقض روايات التوراة بشأن الطوفان بعضها مع بعض عند مقارنة النصوص المتعلقة بالتوراة فى هذا الصدد ، بينما لايوجد مثل هذا التناقض فى نصوص القرآن عن الطوفان . وهنا يبرز سؤال مهم هو : هل حصل الناس فى أى وقت بين نزول التوراة ونزول القرآن على معلومات من شأنها تصويب رواية القرآن عن الطوفان بحيث تتفادى تماما التناقضات الموجودة فى رواية التوراة عن الطوفان ؟

لا جواب لهذا السؤال سوى إجابة واحدة محددة هى أن التوراة قد صاغ نصوصها وأضاف إلى نصوصها بشأن الطوفان بَشَرٌ ، أما نصوص القرآن فهى كلام الله وحده أوحاه إلى محمد ﷺ.

الخروج The Exodus

بخروج موسى مع أتباعه من مصر (فى المرحلة الأولى من تحركهم نحو أرض كنعان) نأتى إلى حَدَثٍ ذى أهمية عظيمة . إن هذا الخروج حدث تاريخى أكيد يتبدى لنا فى نصوص معروفة على الرغم من وجود بعض وجهات النظر القليلة تنحو نحو إضفاء صبغة أسطورية على هذا الحدث .

ويشكل الخروج مع مسيرة موسى وقومه فى الصحراء بعد خروجهم من مصر ورواية العهد الذى عاهد الله بنى إسرائيل عليه عند جبل سيناء Covenant السِّفْرَ الثانى من أسفار التوراة المعروفة بتوراة موسى The Pentateuch ومن الطبيعى أن يخصص القرآن الكريم قدرا كبيرا من آيات القرآن الكريم للحديث عن خروج موسى وقومه من مصر أيضا وعن تفاصيل ذلك الخروج مثل : سرد تصرفات موسى وأخيه هارون مع فرعون مصر ، وكيفية خروج موسى وقومه من مصر ، وهى موجودة ، فى

عديد من سُوَر القرآن الكريم مثل سورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة طه ، وسورة الشعراء فى روايات ذات تفاصيل فى بعض الأحيان، وفى لمحات سريعة فى أحيان أخرى ، ويتكرر اسم «فرعون» وهو الشخصية الرئيسية فى الجانب المصرى أربعا وسبعين مرة فى القرآن الكريم موزعة فى سبع وعشرين سورة من القرآن الكريم (فيما عدا السهو فى الإحصاء من جانبنا) .

ودراسة رواية الخروج فى القرآن الكريم وقصة الخروج فى التوراة دراسة مشوقة فى هذين المصدرين ، لأنه مع اختلاف الشأن فيهما عن شأن قصة الطوفان التى اختلف فيها المصدران خلافات رئيسية سبق أن أشرنا إليها ، نجد أن رواية المصدرين عن قصة الخروج متفقة إحداها مع الأخرى فيما يتصل بالمحاور الأساسية لقصة الخروج فى المصدرين كليهما. وهناك بالتأكيد بعض الاختلاف بين الروايتين ، ولكن لرواية التوراة عن قصة الخروج قيمة تاريخية عظيمة ، كما سنرى، لأنها تضعنا على طريق اكتشاف شخصية فرعون أو بالأحرى شخصية الفرعونين المعنيين بالأمر . ويعطى القرآن الكريم معلومات إضافية بشأن قصة الخروج بطبيعة الحال . ويمكن لنا إضافة المعلومات الحديثة التى يمدنا بها علم دراسة الآثار المصرية . وبهذا ، وبالمقارنة بين التوراة والقرآن ومعارف عصرنا التاريخية والمستمدة من علم الآثار المصرية نستطيع أن نصل إلى تحديد واقعة خروج موسى وقومه من بنى إسرائيل من الكتب المقدسة وفى إطار تاريخى أيضا .

الخروج حسب رواية التوراة
The Exodus According to the Bible

تبدأ التوراة روايتها للخروج بالتذكير بدخول اليهود[1] Jews إلى مصر مع يعقوب لملاقاة يوسف . وتقول التوراة «ثم صعد ملك جديد إلى الحكم فى مصر ولم يكن يعرف يوسف» (سفر الخروج ١ :٨) .

إنها فترة الاضطهاد[2] عندما فرض فرعون على اليهود بناء مدينتين تعطى التوراة اسم بيتوم Pitom لإحداهما واسم رمسيس Ramses للأخرى . ولكى يتجنب ملك مصر الجديد التزايد السكانى عند العبريين Hebrews فقد فرض عليهم أن يلقوا إلى النهر بكل طفل ذكر يولد لهم (يذكر القرآن الكريم أن وسيلة التخلص من أطفال بنى إسرائيل كانت هى الذبح وليس الإلقاء فى النهر. وكان سيدنا موسى هو الوحيد الذى أوحى الله إلى أمه أن تلقيه فى النهر وفقا لتدبير إلهى معين . ولم تحتفظ به أمه مدة ثلاثة أشهر كما تقول التوراة بل تم إلقاؤه فى النهر فور ولادته حتى لا يكتشف أمر ولادته ويتعرض للذبح كشأن أطفال بنى إسرائيل الآخرين فى مصر آنذاك) .

(١) تعبير «بنى إسرائيل» أصح هنا من تعبير اليهود . وكيف لم يعرف الملك الجديد «يوسف» كما تقول التوراة ، وكان «يوسف» وزيرا مشهورا فى عهد سلفه ؟ (المترجم) .

(٢) لقد استغرق تزايد عدد الإسرائيليين فى مصر وقتا طويلا حتى أصبحوا كتلة سكانية ذات تأثير يعمل لها أهل البلاد الأصليون شيئا من الحساب ، ويختط فرعون مصر سياسة معينة للتعامل مع هذه الكتلة السكانية الإسرائيلية فى مملكته، أما الاضطهاد وتسخير الإسرائيليين فمرجعه إلى تمايز الإسرائيليين عن المصريين فى التفكير وطرق المعيشة وعدم ملكية اليهود للأراضى أساس الثروة . (المترجم).

وتقول التوراة إنه بالرغم من ذلك استطاعت أم موسى أن تحتفظ به لمدة ثلاثة أشهر بعد ميلاده، ولكنها تقرر فى نهاية الأمر أن تضعه فى سلة ذات إعداد خاص وتلقيه فى النهر . وتكتشفه ابنة فرعون وتلتقطه لتضعه بالتحديد بين يدى أمه لترضعه ذلك أن أخت موسى كانت تراقب السلة لتعرف من سيلتقطها متظاهرة أنها لا تعرفه ، وأوصت أخت سيدنا موسى الأميرة أن ترضع أم سيدنا موسى الطفل الرضيع لعزوف سيدنا موسى عن الرضاعة من سائر المرضعات ، وينمو الطفل ويلقى معاملة وتربية أبناء الفراعنة ويُعطى له اسم «موسى» .

ويسافر موسى شابا إلى أرض مدين[1] حيث يتزوج ويمكث طويلا . وهنا أيضا نجد معلومة مهمة إذ تقول التوراة : «وأثناء هذه الفترة الطويلة مات ملك مصر» (سفر الخروج ٢ :٢٣) .

ويأمر الله موسى أن يذهب للقاء فرعون ليُخرج بنى إسرائيل من مصر كما تؤكد ذلك رواية حادثة «شوك النار» ويساعد هارون أخاه فى إنجاز هذه المهمة (الهدف من رجوع موسى إلى مصر مع أخيه هارون أكبر – وفقا لرواية القرآن الكريم –من أن تكون مجرد إخراج بنى إسرائيل من مصر . كان من أهداف سيدنا موسى –عليه السلام –من رجوعه إلى مصر دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله والكف عن ادعاء الألوهية ، وقد سجل القرآن الكريم فى هذا الصدد كثيرا من الجدل والحوار الفكرى بين إيمان سيدنا موسى بالله وبين كُفْر فرعون وادعائه الألوهية واستعانته بالسحرة للتغلب على سيدنا موسى وقهره فى مجال السحر الذى ظن فرعون خطأ أنه هو السبب فى معجزات سيدنا موسى عليه السلام . هذا الجدل وذلك الحوار الفكرى كما أشرنا إليه هو الهدف الجوهرى الأساسى لعودة سيدنا موسى ، وبعده يأتى الفراق بين الإيمان والكفر على صورة خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر . وما بين القوسين هنا ، إضافة للمترجم لتدارك ما يلزم تداركه) . وما أن يصل موسى وأخوه هارون إلى أرض مصر حتى يذهبا إلى فرعون الذى ورث مُلْك ذلك الفرعون الذى كان موسى قد وُلِد فى عهده .

ويرفض فرعون طلب خروج بنى إسرائيل من مصر . وَيُظْهِرُ اللهُ لموسى من جديد ، ويأمره أن يكرر الطلب مرة أخرى . وكان عمر موسى آنذاك قد بلغ ثمانين عاما حسب رواية التوراة . ويثبت موسى لفرعون بالسحر[2] أن له قُوًى خارقة للطبيعة . ولكن هذا لا يكفى لإقناع فرعون بالموافقة على طلب موسى وعندئذ يُنزِلُ اللهُ على مصر الضربات المعروفة : مياه النهر تتحول إلى دم ، وغزو الضفادع ، والناموس ، والنَّعْرة ، وموت القطعان ، وظهور الأورام على جلود البشر والحيوانات ،

(١) لم يكن انتقال سيدنا موسى شابا إلى أرض مدين مجرد سفر عادى أو انتقال اختيارى . يذكر القرآن الكريم أن سيدنا موسى كان قد قتل رجلا مصريا انتصارا لرجل من بنى إسرائيل ، وشاع خبر هذا الحادث وأصبح سيدنا موسى مطلوبا للقصاص منه ، فخرج منها خائفا يترقب كما يقول القرآن الكريم ضمن تفاصيل كثيرة أخرى يتجلى فيها بوضوح التدابير الإلهية وعناية الله ورعايته وتسيير الأمور والأحداث بحيث تصل الأمور من خلال الأحداث إلى غايات معينة محددة أرادها الله سبحانه وتعالى . (المترجم) .

(٢)لم تكن معجزات سيدنا موسى – عليه السلام– التى أظهرها الله بقدرته على يدى سيدنا موسى تعتمد على السحر وفقا لرواية القرآن الكريم . وعندما ظن فرعون خطأ أن معجزات سيدنا موسى تعتمد على السحر ، جمع السحرة ليتغلب سحرهم على سحر موسى ، وفشل السحرة فى التغلب على سيدنا موسى ، ولكن فرعون لم يقتنع بذلك وتهافت على القول بأن السحرة أنفسهم آمنوا بدين سيدنا موسى دون أن يأذن لهم . (المترجم) .

وسقوط البرد ، والجراد والظلمات ، وموت المولود البكر ، وبرغم ذلك يرفض فرعون الموافقة على خروج العبريين[١] ، بنى إسرائيل من مصر .

وتقول التوراة إنه إزاء رفض فرعون الموافقة على خروجهم من مصر عمد الإسرائيليون القدامى إلى مغادرة مصر خلسة وكان عددهم ٦٠٠,٠٠٠ رجل وفقا لرواية التوراة (سفر الخروج ١٢ :٣٧) . وعندئذ أسرج فرعون عربته الحربية وقاد جيشه مستخدما ٦٠٠ من أحسن مركباته الحربية ، يقودها ضباطه وجنوده ... وانطلق ملك مصر مطاردا الإسرائيليين الخارجين مرفوعى الأيدى (سفر الخروج ١٤ :٦-٨) . ويلحق المصريون بموسى وقومه قرب شاطئ البحر . وعندئذ رفع موسى عصاه «فانفتح البحر أمامه ، ودخل رجاله[٢] إليه دون أن تبتل أقدامهم» . وطاردهم المصريون ، «ودخلت جياد فرعون ومركباته وفرسانه كلهم إلى البحر» . (سفر الخروج ١٤ :٢٣) . وارتد ماء البحر كما كان «وغطى مركبات وفرسان كل جيش فرعون الذى دخل البحر وراءهم ولم يبق منهم رجل واحد» . (سفر الخروج ١٤ :٢٨-٢٩) .

إن نَصَّ سِفْرِ الخروج واضح تماما ،كان فرعون على رأس المطاردين ، وقد هَلَكَ فرعون وجنوده لأن سفر الخروج يحدد أنه «لم يبق منهم أحد» وتؤكد المزامير هذه الحقيقة فى أكثر من موضع (مزمور ٦ :١١) وأيضا (مزمور ١٣٦ :١٣-١٥) . الحمد «لله الذى شَقَّ بحر البوص شقين وجعل إسرائيل تمر فى الوسط ، وألقى بفرعون وجيشه فى بحر البوص» وفقا لنص التوراة ، لا شك فى أن فرعون الخروج قد مات فى البحر ، ولا تقول التوراة كلمة واحدة عن مصير[٣] جثة هذا الفرعون .

الخروج كما يرويه القرآن الكريم

The Exodus According To The Qur'an

يشبه الخروج فى خطوطه الرئيسية فى القرآن الكريم رواية الخروج فى التوراة. ورواية الخروج فى القرآن الكريم تحتاج منا إلى محاولة تجميع أجزائها المتناثرة فى آيات كثيرة فى مواضع شتى من القرآن الكريم . والقرآن الكريم لم يذكر لنا، كما لم تذكر التوراة اسم الفرعون الذى كان يحكم

---

(١) لم تكن المسألة مسألة خروجهم أو عدم خروجهم من مصر فحسب ، كما تصور التوراة هذا الموضوع . كانت هناك أسباب كثيرة للصراع الشامل ولرفض فرعون مبدأ خروجهم . كان هناك الخلاف الدينى المتمثل فى تأليه فرعون نفسه ودعوة موسى إلى توحيد الله، وكانت هناك العوامل الاقتصادية وإجبار المصريين لبنى إسرائيل على العمل فى أشق الأعمال كعبيد دون أجور تذكر ، وكان هناك العامل الأمنى العسكرى المتمثل فى أن فرعون مصر لم يكن ليوافق على هجرة وانتقال بنى إسرائيل إلى تخوم مصر الشرقية ليناوئوا منها الدولة المصرية . (المترجم) .

(٢) هكذا تتسم رواية التوراة بعدم الدقة فى استخدام الألفاظ والكلمات للتعبير عن المعانى . دخل «رجال» موسى إلى البحر دون أن تبتل أقدامهم . هكذا تقول التوراة ! هل الرجال وحدهم هم الذين دخلوا إلى البحر ؟ ألم يكن معهم نساؤهم وأطفالهم ؟ (المترجم) .

(٣) يذكر القرآن الكريم أن البحر قد نبذ جثة فرعون بعد غرقه إلى الساحل الشرقى للبحر حتى يراها بنو إسرائيل وليكون فى ذلك عبرة لبنى إسرائيل وللمصريين على حد سواء ، وذلك فى قول الله تعالى ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ [يونس : ٩٢] . هكذا يحدد القرآن الكريم مصير جثة فرعون الخروج . (المترجم) .

مصر عند حدوث الخروج . وكل ما يمكن أن نعرفه فى هذا الصدد من القرآن الكريم أن أحد الأشخاص ذوى الأهمية والحيثية فى بلاطه كان يُدْعَى «هامان» ورد ذكره ست مرات فى القرآن (سورة القصص :٦-٨) . (وسورة غافر ٢٤، ٣٦) ، (وسورة العنكبوت : ٣٩) .

فرعون مضطهد اليهود

The Pharoah is the Jews opressor

يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم :﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ [**إبراهيم** : ٦] .

وتكرر الآية (١٤١) من سورة الأعراف ذكر اضطهاد فرعون وقومه لبنى إسرائيل فى مصر بألفاظ مشابهة . هذا ، ولم يشر القرآن الكريم فى هذا الصدد إلى ذِكْرِ اسم المدينتين اللتين بناهما اليهود بمصر فى ظل نظام السخرة كما ذكرتهما التوراة .

أما حادثة وَضْع موسى على حافة النهر[١] فهى موجودة فى سورة طه (٣٩-٤٠) وفى سورة القصص (٧-١٣) .

ويخبرنا القرآن الكريم أن عائلة[٢] فرعون هى التى التقطت موسى ، ويقول القرآن الكريم : ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [**القصص** : ٨، ٩] .

---

(١) تعبير المؤلف عن «حادثة» وَضْع موسى على حافة النهر ... The episode where Moses is left by the river side كما ورد بالترجمة الإنجليزية لكتابه ص٢٢٢ التى ننقل عنها بغير دقيق بالمرة ، والمؤلف متأثر فيه كل التأثر برواية التوراة عن قصة الخروج . القرآن الكريم لا يشير إلى الحادثة باعتبار أنها حادثة وضع موسى «على حافة النهر» بل باعتبار أنها حادثة «إلقاء موسى فى النهر» ، ولم يكن ذلك كقرار نابع من أم موسى من تلقاء نفسها ولكنه كان وحيا إلهيا لها أن تفعل ذلك ضمن ترتيب إلهى اقتضته مشيئة الله لتبليغ الأحداث غاياتٍ معينة . ويقول القرآن الكريم فى ذلك : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ [**طه** : ٣٨، ٣٩] وجدير بالذكر هنا أن كلمة «اليَمّ» إنما هى كلمة من الكلمات القليلة غير العربية التى استخدمها القرآن الكريم فى قصة سيدنا موسى عليه السلام ، وهى تعنى : البحر ، وكلمة البحر تطلق على المجرى المائى الكبير الاتساع سواء كان ماؤه مالحا أو عذبا . وكلمة اليم كلمة هيروغليفية اتضح بعد الدراسات الحديثة فى علم الآثار بعد أن اكتشف شامبليون من علماء الحملة الفرنسية على مصر حجر رشيد وتوصل إلى معرفة حروف الأبجدية الهيروغليفية أن كلمة اليمّ هذه كلمة هيروغليفية بالفعل تعنى :البحر . ولم يكن سيدنا محمد ﷺ يعرف اللغة الهيروغليفية ، فهل علّمه مصرىٌ هذه اللغة أم أن القرآن الكريم هو وحى إلهى حقا وصدقا ؟ إن هذا لدليل على مصداقية القرآن . (المترجم) .

(٢) «عائلة» اسم من أسماء الجموع ، وقد استخدم القرآن الكريم كما سنرى تعبير «آل» وهو أيضا من أسماء الجموع ، ويجوز أن يكون اسم الجمع مشيراً إلى فرد أو كل الأفراد ويجوز أن نقول : «ألقت الشرطة القبض على المجرم» حتى ولو كان الذى ألقى القبض على المجرم شخص واحد من أفراد الشرطة ، وهو ما يحدث بالفعل فى كثير من الأحيان ، وعلى كل حال لم يحدد القرآن الكريم الشخص الذى التقط سيدنا موسى من النهر ، ولكن القرآن يؤكد أن إمرأة فرعون هى التى قالت عن سيدنا موسى : «قرة عين لى ولك لا تقتلوه ... » (المترجم) .

ويقول التراث الإسلامى إن زوجة فرعون التى رعت موسى هى «آسيا Asiya" ، ولا يقول القرآن بالتحديد إنها هى التى كانت قد التقطته من النهر كما سبق أن أشرنا .

وشباب موسى وإقامته بأرض مدين وزواجه قد وصفه لنا القرآن الكريم فى سورة القصص فى الآيات (١٣-٢٨) .

أما مسألة مناداة الله لسيدنا موسى واختياره لحمل رسالة الله ، وهى التى تسميها التوراة حادثة «نار الشوك» فقد أشار إليها القرآن الكريم فى الجزء الأول من سورة[١] طه ، وفى سورة القصص (٣٠-٣٥) .

هذا ، ولا يذكر القرآن الكريم الضربات العشر التى ضُرب بها شعب مصر ، ولكن القرآن الكريم يذكر خمس ضربات منها فحسب دون أى تفاصيل فى الآية الثالثة والثلاثين بعد المئة من سورة الأعراف ، وهى على وجه التحديد[٢] بالقرآن الكريم كما يلى : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والقرآن الكريم يروى لنا قصة خروج موسى ومعه بنو إسرائيل من مصر دون تحديد لعدد بنى إسرائيل ، مما يجعل القرآن الكريم يتفادى أى مجال لنقد أو نقض أى عدد يذكره لمن خرج مع سيدنا موسى من بنى إسرائيل سواء بتقليل العدد أو زيادته . وماذا يفيد تحديد العدد فى هذا الصدد، وذلك على العكس مما عمدت إليه الرواية التوراتية للخروج فى التوراة إذ حددت العدد بأنه كان ستمائة ألف رجل بالإضافة إلى أسرهم ، وهو ما يصعب تصديقه ، ويستحيل تصور إعاشة مثل هذا العدد الكبير فى الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين .

ويصف القرآن هلاك فرعون الخروج فى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** ﴾ [طه : ٧٨] . وتفيد هذه الآية أن فرعون قد تبع بنى إسرائيل مع جنوده وحاولوا عبور البحر فى أثر بنى إسرائيل فحدث لهم فى البحر ما حدث مما يزيده تفصيلا وتحديدا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ** .

---

(١) جاء فى القرآن الكريم فى هذا الصدد قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ [طه : ٩ - ١٤] .هكذا كان إعلان الله سيدنا موسى باختيار الله له لسماع ما يوحيه الله إليه.... (المترجم) .

(٢) قال الله سبحانه وتعالى :﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ [**الأعراف** : ١٣٣] . والطوفان هو المياه الغزيرة المعوقة للحياة ، الضارة بالزرع . والدم هو تحول ماء الشرب إلى دم كلما أرادوا أن يشربوا . ويقول المفسرون إن فرعون وقومه كانوا يصابون بكل ضربة من هذه الضربات الواحدة فى إثر الأخرى وفى كل مرة كانوا يطلبون من سيدنا موسى أن يطلب من الله أن يرفع عنهم الرجز فلما يستجيب الله لدعاء سيدنا موسى كانوا يصرون على الكفر ، وتلك الأمثال يضربها الله للناس لبيان عناد الكافرين ، ويبدو أن التوراة قد أضاف البشر إليها ضربات من خيالهم لتكون كالوصايا العشر . (المترجم) .

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢] .

ومما رواه القرآن الكريم لنا بشأن الخروج يتضح لنا :

(أ) ركّز القرآن الكريم على إصرار الكافرين على كفرهم وتمسكهم بفاسد معتقداتهم الدينية بدءا من ملوكهم الذين ألهوا أنفسهم لتدعيم صولجان حكمهم اعتمادا على «الجنود» الذين يساعدونهم فى تسلطهم على الناس وفرض المعتقدات الفاسدة عليهم بالقوة الغاشمة .

(ب) ذكر القرآن الكريم أن إنقاذ فرعون إنما كان ببدنه جثة هامدة بعد أن كان قد مات غرقا فى البحر ، وهو ما لم تذكره التوراة ونَصَّ عليه القرآن الكريم لأهميته ومغزاه المهم ، وهو المغزى الذى عَبَّرَ عنه القرآن الكريم بقول الله سبحانه وتعالى : «لتكون لمن خلفك آية» وتعبير «لِمَنْ خلفك» يعنى : المصريين خصوصا الفرعون الذى يلى عرش مصر بعد غرق فرعون الخروج وكذلك بنى إسرائيل عندما تكون جثة فرعون وقد لفظها البحر أمامهم ليكونوا هم خلف الجثة ، وكأن البحر يقول لهم : ها هو ذا فرعون الكافر المعاند ليزداد إيمانهم وقد كانوا لا يقنعون إلا بالمعجزات الحسية . وطرح البحر لجثة فرعون الخروج إلى الشاطئ فيه معان وعِبر مهمة دون ريب .

وتختلف رواية القرآن الكريم لقصة الخروج عن رواية التوراة لقصة الخروج فى خطوط رئيسية أهمها ما يلى :

– لا يذكر القرآن الكريم أسماء محددة سواء بالنسبة للمدن التى بناها العبريون من بنى إسرائيل كما هو شأن التوراة ، أو بالنسبة لخط مسير الخروج ، أو بالنسبة لفرعون مصر قبل وأثناء وبعد الخروج .

– لا يذكر القرآن الكريم موت أحد الفراعنة أثناء إقامة سيدنا موسى بأرض مدين .

– لا يحتوى القرآن الكريم على تحديد عدد قوم سيدنا موسى الذين خرجوا أو عدد المصريين ، أو عدد جنود فرعون أو مركباته الحربية كما فعلت التوراة فى مواضع كثيرة من قصة الخروج ، إذ حددت التوراة عدد بنى إسرائيل فى خروجهم مع سيدنا موسى تحديدا غير معقول يستحيل القبول به إذ وصلت به إلى ٦٠٠,٠٠٠ رجل مع أسرهم مما يجعل عدد بنى إسرائيل عند الخروج أكثر من مليونين فى رقعة من الصحراء بين مصر وفلسطين[١] .

– لا تحتوى التوراة على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد غرقه .

هذا ، وتوجد نقاط وخطوط وأخبار مشتركة بين رواية التوراة ورواية القرآن الكريم فى قصة

(١) سبق أن ذكرنا أن مثل هذه التفاصيل فضلا عن عدم أهميتها فى مضمون ومغزى ومعانى القصة عرضة للمناقشة والنقد والنقض أحيانا كما هو حاصل بشأن كل ما أشارت التوراة إلى عدده فى هذا الصدد ، وهكذا فتحت التوراة مجالات النقد والنقض لروايتها وأغلق القرآن الكريم تماما هذه المجالات . (المترجم) .

الخروج مثل :

- تأكيد القرآن الكريم لاضطهاد الفرعون بمصر لبنى إسرائيل ، قوم سيدنا موسى .
- عدم احتواء الروايتين على اسم فرعون مصر قبل الخروج من مصر وبعد الخروج .
- تأكيد القرآن الكريم لموت فرعون عند خروج بنى إسرائيل من مصر وأثناء مطاردته لهم حتى البحر .

القرآن الكريم والأحاديث النبوية والعلم الحديث

The Qur'an, Hadiths And Modern Science

لا يشكل القرآن الكريم المصدر الوحيد للعقيدة والشريعة[١] فى الإسلام . وأثناء حياة محمد ﷺ وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كانت السُّنَّة النبوية الشريفة المتمثلة فى أفعاله وأقواله هى المصدر الثانى الذى يجرى البحث عنه ليجد فيه العلماء والمفسرون إكمالا للمصدر الأول .

وعلى الرغم من أن قدرا من هذه السُّنَّة كان قد تم تسجيله كتابة نجد أن قسطا[٢] كبيرا منه قد تواتر تواترا شفهيا . ولذلك فإن الذين اشتغلوا بجمع هذه الأحاديث النبوية الشريفة قد احتاجوا إلى بذل جهود وعمل تحقيقات تتسم دائما بالصعوبة كما هو الشأن عادة فى حكاية وتمحيص الأحداث بعد زمن طويل من حدوثها . ولقد كان هَمُّ علماءِ الحديث الذين عملوا فى مجالات جمع الأحاديث النبوية وتمحيصها ينصَبُّ أولا وقبل كلِ شىء على التدقيق فى ضَبْط هذه المعلومات الكثيرة الخاصة بكل حديث ، أو حادثة فى حياة محمد ﷺ ، وكذلك التدليل على صحة الأحاديث التى تقوم الأدلة على صحة نسبتها إلى النبى ﷺ . ولقد كانوا يتتبعون أسماء الأشخاص الذين نقلوا أقوال النبى ﷺ وأفعاله ليصلوا بها إلى الإسناد الأول لها إلى شخص من آل بيت النبى ﷺ أو إلى الرعيل الأول من صحابته ممن يجوز ولا يستحيل أن يكونوا قد سمعوا أو شاهدوا هذه الأحاديث والمعلومات مباشرة من محمد ﷺ نفسه ، وكذلك كانوا يدققون كل

---

(١) يقول فضيلة الإمام الأكبر الأسبق المغفور له الشيخ محمود شلتوت فى كتابه المعنون بعنوان «الإسلام عقيدة وشريعة» مايلى : «المصدر الأول للعقيدة والشريعة فى الإسلام هو القرآن الكريم . والمصدر الثانى هو السُّنَّة النبوية الشريفة الصحيحة . والمصدر الثالث هو الرأى والقياس . «وترتيب هذه المصادر إنما هو على نحو ما أوردناه ، فما وجد فى القرآن أخذ منه ولا يطلب من مصدر سواه . وما لم يوجد فى القرآن بحث عنه فيما صحت روايته وثبت وروده عن الرسول ﷺ ، فإذا وجد فيه أخذ منه ولم يطلب من مصدر سواه ، وإذا لم يوجد له مصدر من كتاب ولا سنة صريحين كان مصدره البحث والنظر من أهل العلم بالقرآن والسُّنة ، وبروح التشريع وقواعده العامة ، وهم المعروفون باسم «المجتهدين» والمعروف عنهم بحثهم ونظرهم باسم «الاجتهاد» وقد تقررت فى الإسلام مصدرية المصادر الثلاثة للشريعة على هذا الترتيب من عهد النبى ﷺ إلى يوم الدين .» انظر : محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ـ ص٤٦٨ ـ ط ١٠ ـ دار الشروق بالقاهرة .

(٢) من المعروف أن النبى ﷺ قد نهى المسلمين عن تدوين الأحاديث النبوية كتابة ، وأمَر ألا يكتب عنه أحد إلا القرآن الكريم ، وذلك لحكمة بالغة : حتى لا تختلط نصوص القرآن الكريم بنصوص الأحاديث النبوية الشريفة . وأمر النبى ﷺ أتباعه بمحو ما قد كانوا قد كتبوه من أحاديثه للإبقاء على نصوص القرآن الكريم وحده حتى لا يختلط بها شىء ولوكان حديثا نبويا شريفا. (المترجم).

التدقيق فى بحث حالة من تُسْنَدُ إليه رواية الحديث من حيث جدارته بالثقة ، أو عدم جدارته بالثقة لأى سبب من الأسباب . وكانوا يستخدمون هذا المنهج فى كل سلسلة الأفراد الذين ينسب إلى أى واحد منهم رواية الحديث فى أجيال متتالية ، وكانوا يسقطون وينبهون إلى ضرورة صرف النظر عن أى حديث تُسْنَدُ روايته إلى أى شخص غير مشهود له بحُسْنِ السيرة وصِدْقِ الرواية ، وكانوا يصرفون النظر عن أى شخص يؤثر عنه الكذب ، أو ضَعْفُ الرأى مما يشكك فى روايته لوجود أى سبب من أسباب الشك فى روايته. وهذه خاصية انفرد بها علماء الإسلام فيما يتعلق بأحاديث نبيهم ﷺ .

وهكذا ظهرت إلى الوجود مجموعات من أقوال النبى ﷺ وأفعاله وأصبحت تعرف الآن فى العلوم الإسلامية باسم محدد هو :«علم الحديث» "Hadiths" ومعناه : «الكلام الذى نطق به النبى ﷺ utterances" ولكن معناه أيضا يتضمن كل ما يحكى عن أفعاله وتصرفاته فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات .

ولقد ظهرت إلى الوجود هذه الأحاديث النبوية بعد عشرات السنين من وفاة محمد ﷺ . وكانت كمية الأحاديث التى جُمِعَتْ فى القرن الأول الهجرى بعد وفاته محدودة بالنسبة إلى كمية الأحاديث الضخمة المنقولة عنه فيما بعد القرن الأول الهجرى . وأكبر مجموعات من الأحاديث لم تظهر إلا بعد مُضِىّ قرنين من الزمان على وفاته ، حوت هذه المجموعات أوسع المعلومات وأوثقها . ويعتبر صحيح البخارى بصورة عامة هو أكثر كتب الحديث صحة بعد القرآن الكريم . ولقد قام هوداس Houdas ومارسى Marcais فيما بين عامى ١٩٠٣ و ١٩١٤م بترجمة صحيح البخارى إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان «الأحاديث الإسلامية Les Trdition Islamiques" ولقد تم نشر طبعة عربية حديثة مع ترجمة إنجليزية لكتاب صحيح البخارى للدكتور محمد حسن خان من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . وبناء على ذلك أصبح فى استطاعة من لا يعرف اللغة العربية أن يطلع على الأحاديث النبوية لو كان يجيد اللغة الفرنسية أو الإنجيليزية ولا يجيد اللغة العربية ، غير أنه لابد من التنبيه إلى أن الحيطة لازمة والحذر واجب إزاء قيمة ودقة الترجمة التى أنجزها الغربيون على وجه الخصوص كما هو الحال بوجه خاص فيما يتعلق بالترجمة الفرنسية لأحاديث البخارى ، إذ يستطيع القارئ لها أن يكتشف أحيانا أشياء غير صحيحة أو مناقضة للحقائق لا بسبب أن الحديث يقدم معلومات غير صحيحة أو مناقضة للحقائق ولكن لأن الترجمة غير موفقة أو غير دقيقة يشوبها أخطاء مقصودة أو غير مقصودة ، بل إننا نجد تحريفات كبيرة للمعنى الحقيقى للحديث لدرجة أنه يجعل الحديث يقول ما لا يعنيه الحديث بأى حال من الأحوال .

وفى هذا المقام نجد أنه من الممكن إجراء المقارنة بين عملية تدوين وترجمة الأحاديث النبوية

وبين عملية تدوين وترجمة الأناجيل من حيث أصول النصوص فيها origins . إن نصوص مجموعات الأناجيل قد قام بكتابتها كُتّاب لم يكونوا شهود العيان للأقوال والأفعال التى كتبوا عنها . وما كتبوه لم يظهر إلى الوجود إلا بعد انقضاء مدة على صدور الأقوال عن شخص قائلها أو الأحداث كما حدثت فى حين حدوثها . ولهذا لم تعتبر الأناجيل كلها صحيحة ثابتة موثوقا بصحة نصوصها ، وكذلك الشأن بالنسبة للأحاديث النبوية إذ أن علماء الحديث لم يقبلوا كل الأحاديث المنسوبة[1] إلى النبى ﷺ كلها ، ويمكن أن يوجد فى أى مجموعة من المجموعات التى تحويها كتب الحديث أحاديث مرفوضة رفضا قطعيا أو مشكوك فيها أو ضعيفة أو ضعيفة جدا ، وذلك إلى جانب أحاديث تعتبر صحيحة .

وفيما عدا الأناجيل الأبوكريفا التى تم استبعادها ولا تعترف الكنيسة بكل منها بِرُمَّته ، نجد نصوص الأناجيل المعترف بها من جانب الكنيسة[2] لم يتناولها الاعتراض والنقد ، بينما تخضع الأحاديث للنقد الشديد والتمحيص المستمر الذى قام به أساتذة الفكر الإسلامى لتحديد درجة القبول ومدى لزوم أو عدم لزوم العمل بها فى الأحكام الشرعية ، ويظل القرآن الكريم هو الكتاب الأساسى الوحيد فى الإسلام الذى يعتبر وحده هو كلام الله ، وليس كلام أى بشر من الناس ، وهو ليس محلا للجدل بخصوص صحة نصوصه بأى حال من الأحوال ، لأنه كلام الله الذى أوحاه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين وتم تسجيله كتابةً فور نزول أى قدر منه أولا بأول فى حياة النبى ﷺ بأقلام كتاب موثوق بهم كانوا شهود عيان لما سجلوه من نصوص القرآن الكريم ، وتمت مراجعة كتابة ما سجلوه من جانب النبى ﷺ وهو أول متلق للوحى الإلهى ، ومن جانب جمهور المسلمين المعاصرين الذين كانوا يحفظون عن ظهر قلب أى قدر من القرآن الكريم فور نزوله وتلاوته من جانب النبى ، إذ كانوا يرددونه مرات كثيرة حتى تحتفظ ذاكرتهم بكل دقة بكل ما قد ينزله الله من القرآن الكريم أولا بأول على مدار ثلاثة وعشرين عاما .

ولقد قمت – أنا – مؤلف هذا الكتاب عن القرآن الكريم والتوراة والأناجيل فى ضوء العلم الحديث – بالمقارنة بين الملاحظات التى تتصل بدراستى لهذه الأحاديث وبين الملاحظات التى عرضتها من قبل فيما يتصل بالقرآن الكريم فى ضوء معطيات العلم الحديث ، وكانت نتيجة هذه

(١) الفرق شاسع وهام ودقيق الدلالة وخطير فى هذه المقارنة . لا يزعم أحد من المسلمين أن الأحاديث النبوية هى كلام الله كما يزعم أصحاب الأناجيل أنها كلام الله . كلام الله فى الإسلام هو القرآن الكريم . أما الأحاديث فهى كلام النبى ﷺ . وأى خطأ يتعلق بأى حديث من الأحاديث النبوية ليس سببه هو خطأ من النبى ﷺ ولكنه خطأ فى النقل عن النبى ﷺ ويسقطه المسلمون من حسابهم عند ثبوت الخطأ فيه . وتعتمد العقيدة على القرآن وحده فى الإسلام . وتتعمق الأحاديث بالشريعة فى الغالب الأعم وبشرط أن يدعم القرآن ما يتصل منها بالعقيدة .

(٢) **الأناجيل المعترف بها من جانب الكنيسة شأنها عجيب حقا . إن بها كثيرا من الأخطاء وكثيرا من التناقض ، ولا يجرؤ القائمون على شئون الكنيسة على المجاهرة بنقدها أو نقضها** بشكل علنى ، بل يحاولون تبريرها أى تبرير أو ينقدونها فى دوائر ضيقة خاصة بعلماء الدين المسيحى بعيدا عن جماهير الكنائس ، ولكنهم لا يجرؤ منهم أحد على تغيير هذه النصوص ، ولذلك يتركونها على حالها لتظل الأخطاء فى مكانها من النص مع الاكتفاء بملاحظات هامشية مثل : يقول النص العبرى كذا ، أو: هذا النص غير موجود فى النصوص القديمة ، أو نهاية هذا الإنجيل مفقودة من الأصول ... وهكذا . أما علماء الحديث فقد تصدوا للموضوعات وما اشتهر على ألسنة الناس ووضعوا القواعد للصحة والضعف وقالوا كلمتهم . (المترجم) .

المقارنة هامة جدا لأن الفرق قد بدا واضحا جدا ومدهشا بين دقة المعلومات القرآنية ومدى صحتها إلى حد الكمال عند مقارنتها بمعطيات حقائق العلم الحديث ، فى مجالات وموضوعات العلوم الكونية ، ولكن معطيات الأحاديث قابلة للنقد فى بعض المعلومات التى تتضمنها الأحاديث وتدخل فى نطاق[1] موضوعات العلم الحديث .

وهذه المقارنة بين صحة نصوص القرآن الكريم إلى حد الكمال ، وبين تذبذب محتوى الأحاديث النبوية بين الصواب والخطأ قد أثار عندى سؤالا هو : كيف أمكن لمحمد ﷺ أن يتناول فى القرآن الكريم التصريح بحقائق علمية صحيحة قبل أربعة عشر قرنا من الزمان ، لم تصل إليها العلوم الوضعية إلا فى العصر الحديث لو لم يكن القرآن الكريم وَحْيًا إلهيًا مُنْزَلاً من عند الله لا شك فيه ولا ريب فى صحة محتواه ولا ريب فى صحة نسبته إلى الله سبحانه وتعالى؟... وهذا على خلاف ، وعلى النقيض من بعض الأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبى ﷺ ككلام صادر عنه وليس صادرا عن الله سبحانه وتعالى وكانت قابلة للنقد[2] وللشك فى صحة محتواها ... إننى حينما سأشير إلى بعض هذه الأحاديث لن أتناول بالدراسة إلا الأحاديث التى انتخبها واختارها علماء الحديث المسلمون باعتبار أنها أحاديث صحيحة كتلك الأحاديث الموجودة فى صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، ولا يفوتنى هنا بطبيعة الحال أن العلماء المختصين بدراسة علم الحديث قد صنفوا الأحاديث القابلة للنقد فى جملة الأحاديث «الظنية الثبوت» وميزوا بينها وبين الأحاديث المتواترة المتفق على صحتها completely authentic وعلماء الحديث بطبيعة الحال قد ميزوا بين أنواع الحديث ودرجة القبول بها باعتبار أنهم قد اعتمدوا فى جمعها على التراث الشفهى للأحاديث النبوية بعد زمان طويل من انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتقل الدقة والصواب فى نقلها نتيجة أخطاء الرواة الذين نقلوا هذه الأحاديث خصوصا عندما تكون مأثورة عن شخص واحد ، وهو ما أطلقوا عليه اسم أحاديث الآحاد . ومن أسباب تضعيف بعض الأحاديث أيضا ومن أسباب الشك فى مصداقيتها وصحة نسبتها إلى النبى ﷺ عدم توافر الكمال والمصداقية فى أى شخص من الأشخاص الذين ينسب إليهم رواية الحديث كمصدر من مصادر رواية هذا الحديث من الأحاديث التى يفترض أنها منسوبة إلى النبى ﷺ. ويتم النظر أيضا فى صحة الظروف التى تمكن أولئك الرواة

---

(١) هذا هو رأى ووجهة نظر مؤلف الكتاب . وفى رأينا ومن وجهة نظرنا ، يستحيل ـ أيضا فى نطاق الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة ـ أن يوجد بها أى خطأ علمى إلا فى حالة عدم صحة نسبة الحديث إلى النبى ﷺ أو فى حالة سوء فهمه أو فى حالة الخطأ فى ترجمة معناه عند نقله إلى لغة أخرى ، ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتوخون كل الحذر فى القبول بصحة نسبة حديث من الأحاديث فى مجال المعاملات أو إقامة الحدود . ومن ذلك أن الجدة جاءت إلى سيدنا أبى بكر الصديق تلتمس أن تأخذ نصيبها من ميراث ابن ابنها الذى توفى فى حياتها فقال لها سيدنا أبو بكر : «ما أجد لك فى كتاب الله شيئا ، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئا» ثم سأل الناس ، فقال المغيرة : «كان رسول الله يعطيها السدس» فقال له سيدنا أبو بكر : «هل معك أحد؟» . فشهد محمد بن مسلمة بذلك فأنفذه لها سيدنا أبو بكر . ليس كل كلام مسبوق بعبارة : قال رسول الله ﷺ بحديث نبوى صحيح . (المترجم) .

(٢) يرجع ذلك من وجهة نظرنا إلى أن الفرق واضح بين كلام الله سبحانه وتعالى الذى لاخطأ ولا ريب فيه وبين كلام البشر حتى لوكانوا رسلا وأنبياء . كلام الله كما هو شأنه فى القرآن الكريم يستحيل فيه الخطأ . وكلام البشر يجوز فيه الخطأ ، ومسألة تأبير النخل التى قال نبى الإسلام ﷺ بشأنها : « أنتم أعلم بأمور دنياكم» مثل واضح الدلالة فى هذا الصدد .(المترجم) .

من أن يسمعوا الحديث أو يشهدوا الواقعة التى يتعلق بها الحديث ، أو لاتمكنهم من ذلك ، وهكذا درس ومحّص علماء الحديث صحة نسبة الأحاديث إلى النبى ﷺ من عدم صحة نسبتها إليه ، وصنفوا درجات للأحاديث على هذه الأسس .

وهكذا يمكن أن يتأكد لدينا مرة أخرى ونحن نبحث مصداقية الأحاديث النبوية أن الحقائق العلمية التى تضمنها واحتوى عليها القرآن الكريم كما أشرنا إليها بالتفصيل فيما سبق من هذا الكتاب أنها نصوص إلهية لا دَخْلَ لصياغة البشر وأقوالهم فيها بأى حال من الأحوال ، وأنها كلام الله حقا وصدقا ، وأنها نزلت إلى النبى ﷺ عن طريق الوحى الإلهى فعلا دون أى مبرر للشك فى هذه الحقيقة . وذلك خلافا لشأن نصوص الأحاديث النبوية الظنية أو أحاديث الآحاد التى لا يمكن أن ترتفع من حيث درجة صدقها وصحة محتواها إلى درجة الوحى الإلهى المنزل المتواتر المكتوب فور إنزال الله له وعدم مصداقية واحتمال الخطأ فى محتوى هذه الأحاديث غير المتواترة أو أحاديث الآحاد قد يتسبب فيها أخطاء الرواة أو وجود أغراض دنيوية لبعضهم دفعتهم إلى نسبة أحاديث لم يقلها رسول الله ﷺ إليه دون وجه حق لأغراض عند بعض الرواة دينية أو سياسية . وفضلا عن ذلك فقد يكون الحديث صادرا فعلا عن رسول الله ﷺ ولكنه يتعلق بأمر من أمور الدنيا مما لا علاقة له بالدين عقيدة وشريعة من قريب أو من بعيد ، وعندئذ لا يوجد فرق بين النبى ﷺ فيما يقول ويرى وبين أى كائن بشرى آخر فيما يقول ويرى . وقد نَبّهَ النبى ﷺ بنفسه إلى هذه الحقيقة وإلى هذا الاعتبار فيما أورده صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال :**«إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»** . ورواه السرخسى بألفاظ أخرى تحمل نفس المغزى والمعنى عند ما ذكر فى أصوله أن النبى ﷺ قال :**«إذا أتيتكم بشيء فى أمر دينكم فاعملوا به ، وإذا أتيكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم»**... وبذلك يكون النبى ﷺ قد دَعَمَ بنفسه ملاحظتنا بشكل عام ، وأقر بنفسه أيضا الفوارق فيما بين الحقائق العلمية التى يتضمنها القرآن الكريم وبين محتوى بعض الأحاديث التى لا وحى فيها ، بل هى كلام بشر يتكلمون فى موضوعات ليست هى من موضوعات الدين ، بل هى من موضوعات الحياة الدنيا ومما يدخل فى صميم مجالات العلوم الطبيعية لتكون مثل هذه الأحاديث البشرية عرضة للصواب أو للخطأ حسب ما تكشفه لنا حقائق العلوم الطبيعية . ولا يضر هذا بطبيعة الحال بمكانة الرسول من ناحية صدق نبوته ، ولا يضر بمكانة الرسول البشرية بأى حال من الأحوال ، ولكنه على العكس من ذلك يفيد كل الإفادة لأنه يعطينا صورة صحيحة عن بعض المفاهيم التى كانت سائدة شائعة كأخطاء شائعة فى عصر معين ، بعيدا عن مجالات الوحى الإلهى، حيث تتصل هذه الآراء الخاطئة أو الأخطاء الشائعة ببعض الموضوعات ذات الطابع العلمى.

ومن أبرز هذه الأحاديث الظنية الدنيوية التى لا علاقة لها بالدين عقيدة أو شريعة عدد من الأحاديث المتعلقة بالطب . وجدير بالذكر هاهنا أن القرآن الكريم لا تحتوى نصوصه على أية تفاصيل لمعلومات طبية يمكن أن تتعرض لاحتمال الخطأ أبدا ، وذلك باستثناء حالة واحدة هى تلك التى أشار فيها بإمكانية أن يشفى عسل النحل من المرض وهى الإشارة التى وردت فى الآية ٦٩ من سورة النحل ، ولا يزيد مؤداه على وجود عامل علاجى يساعد فى الشفاء فى عسل النحل دون ذكر أى تفاصيل فى هذا الصدد بحيث يمكن أن تكون إحدى هذه التفاصيل خاطئة بحال من الأحوال ، هذا فيما يخص القرآن الكريم، أما فيما يتصل بالأحاديث فإننا نجد أنها تخصص بابا واسعا لموضوعات طبية مثل الباب رقم ٧٦ من صحيح البخارى الذى أفرده للطب ، ويحتل هذا الباب الصفحات من ٦٢ إلى ٩١ من الجزء الرابع من ترجمة «هوداس» و«مارسى» ، أما فى الترجمة الإنجليزية للدكتور محمد حسن خان فهو يحتل الصفحات من (٣٦٢) إلى (٤٥٢) من الجزء السابع . ويضاف إلى ذلك أحاديث أخرى ذات طابع علاجى أيضا وقد أدمجت فى أبواب أخرى من صحيح البخارى . وليس هنالك أدنى شك فى أن هذه الصفحات تحتوى على كثير من الأحاديث الضعيفة الظنية ، وهى تتعلق بأمور دنيوية ولا تتعلق بأمور دينية ، ولقد قال النبى ﷺ بشأن موضوعها كما سبق أن أشرنا :«**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» . ومجمل هذه الأحاديث المتعلقة بموضوعات طبية هام جدا لا باعتبار أنه أحاديث نبوية شريفة صحيحة النسبة إلى النبى ﷺ ولكن باعتباره تسجيلا للكثير من الآراء الطبية الشعبية الشائعة وبعضها صحيح من الناحية الطبية البحتة لأنه قد يكون نابعا من التجربة ووليدا لدقة الملاحظة لدى بعض الأفراد على مدار الزمان وتوالى السنين . وينسب بعض الناس النصيحة الطبية بعلاج معين إلى النبى ﷺ كما لو كان النبى هو الذى أوصى بها لمزيد من الإقناع بجدواها. وهكذا نكتشف فى هذه الأحاديث أفكارا وآراء شعبية عن الأذى والحسد والسحر وكيفية التخلص من السحر الضار باستخدام آيات معينة من القرآن الكريم على الرغم من وجود نهى عن التكسب بالقرآن من هذه الأغراض . ويوجد حديث يشير إلى أن بعض أنواع من التمر يقى من آثار ومضار السحر ، وبعض أنواع أخرى من التمر يمكن استخدامها ضد اللدغات السامة .

ولا ينبغى أن ندهش لوجود هذا الكم الهائل من الأحاديث المتضمنة لوصفات طبية شعبية إذ كانت إمكانات العصر حتى تقدم علوم الطب فى العصر الحديث محدودة ، وكانت إمكانات الصيدلة أكثر من محدودة ، وكانت الوصفات الطبية الشعبية هى السائدة والمتاحة لعلاج الأمراض. ولا ينبغى أن نندهش عندما نجد توصيات باللجوء إلى إجراءات بسيطة لعلاج بعض الأمراض مثل الفَصْد blood-letting أو الحجامة Cupping أو الكى Cauterization أو مجرد حلاقة الشعر للتخلص من القمل head - shairng أو شرب لبن الناقة she-camel's milk أو استخدام حبوب بعض النباتات

seeds وخصوصا حبوب الحبة السوداء black cumin أو القسطل الهندى Indian-qust ورماد الحصير لوقف نزف الدم . وتحت ضغط آلام المرض لابد من استخدام أى علاج متاح أو معروف يرجى منه الشفاء أو إيقاف الآلام ، وبعض الوصفات الشعبية مفيدة فى علاج بعض الأمراض استقراء للتجربة والملاحظة فى أحيان كثيرة ، إلا أن بعضها يوغل فى الغرابة أو الخطأ مثل الوصفة الشعبية التى توصى بشرب «بول البعير» . ومن العسير أن نقبل بعض الآراء المتصلة بعلم الأمراض وأسبابها كما يتضح من الأمثلة الآتية :

(أ) النصوص المتعلقة بأصل الحُمّى إذ نجد أربعة نصوص فحواها أن «الحمى من فيح جهنم» (كتاب الطب – الفصل ٢٨ ،ص٤١٦) .

(ب) وجود علاج لكل مرض إذ توجد نصوص مؤداها أن «**لكل داء دواء**» ، وأنه :«**لم ينزل الله مرضا إلا وأنزل له علاجا**» . (كتاب الطب – الفصل أ ، ص٣٩٥) ويدعم هذا المفهوم حديث الذبابة المشهور ومؤداه: «**إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ، ثم ليطرحه ، فإن فى أحد جناحيه داء ، وفى الآخر شفاء**» . (كتاب الطب – الفصل ٥٨–ص٤٥٢ ، وكتاب بدء الخلق – الباب ٥٤ الفصلان ١٥ ، ١٦ – ص٣٣٥) .

(ج) القول بحدوث الإجهاض عند رؤية ثعبان معين وأنه يسبب العمى . وتوجد نصوص على ذلك فى كتاب «بدء الخلق – الفصلين ١٣ ، ١٤ ، ص٣٣٠–٣٣٥ .

(د) نصوص تتعلق بالنزيف خارج العادة الشهرية مثل النصوص الموجودة فى كتاب الحيض . ويوجد فى الباب السادس من البخارى حديثان عن النزيف خارج العادة الشهرية بالفصل ٢١ والفصل ٢٨) ويؤكد الحديث أن النزيف ناشئ عن «عِرق» بدون ذكْر للأعراض . وقد يكون هذا التعليل صحيحا فى بعض الحالات ، ولكن توجد حالات أخرى للنزيف وأسباب أخرى ، وليست كل حالات النزيف ناشئة عن «عِرق» .

(هـ) نصوص تؤكد عدم العدوى بالنسبة لبعض الأمراض فى مواضع كثيرة مثل كتاب الطب بالبخارى – الباب ٧٦ بالفصول ١٩ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٥٤ – وذلك فى بعض الأمراض مثل : الجذام ، الطاعون ، جرب الجمال ، وفى بعض الأحيان يتم نفى احتمال العدوى عموما . وذلك مع وجود نصوص أخرى مناقضة إذ توجد أحاديث توصى بعدم الذهاب إلى أراض يوجد بها الطاعون وبعدم الخروج منها ، كما توجد نصوص توصى بالفرار من لقاء المجذوم .

وبالإضافة إلى هذه الأمثلة من الأحاديث التى لا تعتبر مقبولة من الناحية العلمية من ناحية علوم الطب المختلفة وعلوم تشخيص الأمراض وعلاجها ، وهى موضوعات تتعلق بالطب بطبيعة الحال ولا تتصل بالدين عقيدة أو شريعة ، نجد أيضا بعض نصوص لأحاديث آحاد ضعيفة الإسناد

تحاول تفسير بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالكون مثل مدار الشمس ومراحل تكوين الجنين يستحيل أن تكون مقبولة فى عصرنا ، كتفسير صحيح لبعض آيات القرآن الكريم التى لا اعتراض على مفهومها الحقيقى . نص آية القرآن صحيح ، ولكننا نجد حديثا ضعيف الإسناد يحاول تقديم تفسير غير صحيح لآية قرآنية لها معنى آخر وتفسير آخر صحيح غير التفسير الذى يقدمه نص الحديث الضعيف .

ولقد سبق لنا أن عرضنا على سبيل المثال فى هذا الكتاب بعض آيات القرآن الكريم ذات المحتوى العلمي فيما يتعلق بالشمس مثل قول القرآن الكريم : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [**يس** : ٣٨] .

وأوضحنا معانيها الدقيقة بالاعتماد على حقائق علم الفلك التى لم تكتشف إلا فى العصر الحديث ، ومن العجيب –على الرغم من ذلك– أن نجد حديثا منسوبا إلى النبى ﷺ ، ونشك فى صحة إسناده إلى النبى ﷺ يقول فى مجال التفسير الخاطئ لهذه العبارة من القرآن الكريم أن النبى ﷺ قد قال :«**عندما تغرب الشمس فإنها تسجد تحت عرش الله وتطلب إليه الإذن بأن تعيد طريقها وتسجد من جديد**» . ولقد وَرَدَ النص الأصلى لهذا الحديث فى كتاب «بدء الخلق» من صحيح البخارى – الجزء الرابع ، الباب ٥٤ ، ص٢٨٣ . وعلى الرغم من أن هذا الحديث غامض لا يمكن التحقق من مدى صحته ، وهو عسير الترجمة ، فهو يتضمن كلاما يستحيل التحقق من صحته ويتضمن معلومات متعلقة بالشمس من شأنها أن تفترض أن الشمس هى التى تتحرك وأن الأرض ثابتة ، وهو مفهوم أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالا للشك بطلانه وخطأه . وهذا الحديث من الأحاديث الضعيفة الإسناد وهو حديث آحاد كما قرر ذلك علماء الحديث المسلمون، والحديث المصنف على هذا النحو لا يفيد العلم القطعى .

وكذلك أيضا هو الشأن فيما يتعلق بموضوع مراحل تكوين الجنين إذ يوجد حديث يحدد على نحو غريب وخاطئ المدة اللازمة زمنيا لكل مرحلة من مراحل تطور ونمو الجنين كما جاء فى كتاب «بدء الخلق» أيضا بصحيح البخارى – الباب ٥٤ – الفصل السادس – رقم ٤٣٠ ص٢٩٠ . ويحدد هذا الحديث مرحلة أولى محددة بأربعين يوما تجتمع فيها العناصر المكوِّنة للكائن البشرى ، ثم مرحلة أخرى مساوية للأولى يصبح فيها الجنين «علقة» ، ثم مرحلة ثالثة أيضا مساوية زمنيا لكل من المرحلتين السابقتين يصبح فيها الجنين كاللحم الممضوغ أى «مضغة» وبعد ذلك تتدخل الملائكة لتحديد ما سيكون عليه مستقبل هذا الكائن ، ثم تنفخ فيه الروح .

إن وصف تطوُّر الجنين فى هذا الحديث ، مع إعطاء تفصيلات وتحديد مدة زمنية تحديدا جزافيا غير دقيق ، وغير صحيح لا يتفق مع المعلومات العلمية الحديثة . إن القرآن الكريم قد أشار إلى مراحل نمو الجنين دون تحديد ودون تفصيلات ، ولذلك يستحيل وصف المعلومات التى

يقدمها القرآن الكريم بالخطأ حيث إن القرآن الكريم قد اكتفى بذكر المراحل الصحيحة لتكوين الجنين ولم يعط أى تفاصيل ولم يعط أى تحديدات زمنية ولذلك يستحيل وصف معلومات القرآن الكريم بأن فيها أى خطأ ، وذلك بعكس مضمون هذا الحديث الذى أعطى بعض التفاصيل التى أثبت العلم الحديث أنها خطأ بكل تأكيد !

ونخلص من ذلك إلى أنه يجب على القارئ الكريم أن يتذكر أن تعاليم نبى الإسلام ﷺ قد انقسمت بعد موته إلى مجموعتين :

أ- كان هنالك عدد كبير من المؤمنين الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وكانوا يتلونه بعد وفاة النبى بالضبط كما كانوا يتلونه فى حياة النبى ﷺ . ويضاف إلى ذلك - ومنذ اللحظة الأولى لنزول القرآن أن قدراً من نصوص القرآن الكريم تمت كتابته كتابة تحريرية فورية لكل نص من نصوص القرآن الكريم . وكانت هذه التسجيلات الكتابية تتم فى حضرة النبى ﷺ إبان حياته وبأمر منه وبمراجعته وتحت إشرافه قبل الهجرة وبعدها .

ب - وكان هنالك من ناحية أخرى أحاديث تروى عن النبى تضمنت بعض أقواله فى مناسبات شتى ووَصْفاً لبعض تصرفات النبى فى مناسبات مختلفة كان يرويها من سمعوا الأحاديث أو شهدوا تصرفات النبى فى المناسبات المختلفة من الصحابة والتابعين وأهل بيت النبى ﷺ ، حفظوها فى ذاكرتهم واعتمدوا عليها بالإضافة إلى نصوص القرآن الكريم فى التعرف والتعريف بالعقيدة والشريعة فى الإسلام .

هذه النصوص القرآنية ، وتلك الأحاديث النبوية الشريفة ثم تدوين كل منهما بعد وفاة النبى ﷺ بطريقة استقصائية منظمة . وتم هذا التدوين الكتابى على مرحلتين . فى المرحلة الأولى تم تدوين نصوص القرآن الكريم كاملا وذلك بطريقة رسمية بأمر خليفة المسلمين وتحت إشرافه المباشر فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق ، ثم فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، الذى اهتم بأن يكون النص الكامل للقرآن الكريم واحدا فى الأقطار والأمصار الإسلامية ، فأرسل من عاصمة الخلافة نسخة من النص الكامل للقرآن[1] الكريم.

وتم ذلك فيما بين العام الثانى عشر ، والعام الرابع والعشرين بعد وفاة النبى ﷺ ، وكان ذلك بمعرفة رجال موثوق بهم كانوا من حفاظ القرآن الكريم ومن شهود العيان لما سمعوا وحفظوا وسجلوا كتابيا من نصوص القرآن الكريم .

أما فيما يتصل بشأن الحديث النبوى الشريف فإن أول مجموعة منه قد ظهرت بعد حوالى أربعين عاما من الهجرة .

(١) كانت هذه الحصوة من جانب سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه تحرزا من أن يغير أهل أى قطر أو مصر فى نصوص القرآن الكريم لاختلاف لهجة أهل كل مصر من الأمصار . (المترجم) .

ونرى أنه من الضرورى فى هذا المقام تأكيد عدم التشابه[1] بين عملية تسجيل نصوص القرآن الكريم وعملية تسجيل نصوص الأحاديث النبوية الشريفة. وبناء على ذلك لا يوجد وجه للمقارنة بين أسلوب ومدى مصداقية القرآن الكريم وأسلوب ومدى مصداقية الأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبى ﷺ إذ يجوز أن تكون نسبة بعض هذه الأحاديث غير صحيحة . وتتضح هذه الحقيقة تماما عندما نقارن بين دقة وصواب وسلامة نصوص القرآن الكريم عند مقارنتها بمعطيات العلم الحديث، بينما نجد أن بعض نصوص الأحاديث يتفق محتواها مع معطيات العلم الحديث أحيانا ولا يتفق مع معطيات العلم الحديث فى أحيان أخرى . وستذهلنا حقا الفروق فى هذا الصدد ، وهى الفروق التى آمل أن أكون قد نجحت فى إيضاحها وإبرازها ، ويمكن لى إجمالها فيما يلى :

أولا : فى محتوى بعض نصوص آيات القرآن الكريم حقائق علمية ، ربما لم تكن مفهومة أو مقبولة فى الماضى ، ولكن عند دراستها اليوم فى ضوء حقائق العلوم الحديثة ظهر أنها تنطوى على حقائق علمية صحيحة استطاع العلم فى العصر الحديث فقط أن يثبت كامل صحتها وصوابها .

ثانيا : ولقد احتوت بعض نصوص الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ كما سبق أن أشرنا على آراء ونظريات لها طابع المعلومات الدنيوية وليس لها طابع المعلومات الدينية المتصلة بالعقيدة أو بالشريعة وأصبح الخطأ فيها ظاهرا فى ضوء العلوم الحديثة لوجود تعارض بين محتوى هذه الأحاديث وبين حقائق العلم الحديث ، ولكن مثل هذه الآراء يدل دلالة صادقة على الأخطاء العلمية الشائعة الموجودة فى العالم عند ذيوع هذه الأحاديث ، ومن الواضح أن مثل هذه الأحاديث ذات المحتوى العلمى الخاطئ قد تم إقحامها على الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة لأسباب دنيوية متعددة .

ونجد أخيرا أن ما توصلنا إليه فى الكشف عن الفروق بين نصوص القرآن ونصوص الأحاديث فيما يتصل ببعض الأمور العلمية الدنيوية قد دعمه محمد ﷺ بنفسه حين قال : كما سبق أن أشرنا : «**إذا أمرتكم بشىء من أمور دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر**» وفى رواية أخرى قال ﷺ فى الشطر الثانى من الحديث : «**وإذا أتيتكم بشىء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم**» .

ويمكن لنا أن نختم هذه المقارنة بين نصوص القرآن الكريم وبين نصوص السنة النبوية الشريفة بالتأكيد على أن الفرق بينهما إنما يثبت بصورة مذهلة أن القرآن الكريم هو الوحى الإلهى المكتوب الذى لا شك ولا ريب فيه أبدا ، ولذلك كانت كل نصوص القرآن الكريم «معصومة»

---

(١) إن أهم ما يلاحظ فى هذا الصدد هو الفصل التام الحاسم بين كلام الله فى القرآن الكريم وكلام النبى فى الأحاديث الشريفة المنسوبة إلى النبى ﷺ، ولقد كان النبى ﷺ هو الذى أوصى بنفسه ألا يكتب أحد عنه إلا نصوص القرآن الكريم حتى لا يختلط كلام الله بكلام بشر كما هو حاصل فى كتب أخرى . (المترجم) .

من كل الأخطاء العلمية، وأما نصوص الأحاديث النبوية المنسوبة إلى محمد ﷺ فى تلك الأمور الدنيوية التى لا وحى فيها من الله ، حتى وإن صحت نسبتها إلى محمد ﷺ نفسه أو لم تصح كما هو ثابت بشأن كثير من هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة والمدسوسة فهى كلام بشر وقد يخطئ البشر ، وقد يصيب البشر فيما قالوه ، وذلك عملا بقول محمد ﷺ نفسه كما سبق لنا أن أشرنا إليه أكثر من مرة . وبناء على ذلك يصبح التمييز على هذا الأساس بين نصوص القرآن الكريم ونصوص الأحاديث المنسوبة إلى محمد ﷺ تمييزا ضروريا ، وهذا التمييز فيه قوة للقرآن ، وتأكيد على مصداقيته ، وتدليلا على أنه وحى إلهى صادق لا شك ولا ريب فيه، كما أن فيه قوة ودليل على صدق محمد ﷺ نفسه حيث إنه لم يخلط كلامه هو شخصيا بكلام الله ، ولم يزعم محمد ﷺ لكلامه هو شخصيا كبشر أى قداسة ، ولم يزعم محمد ﷺ أن كلامه هو شخصيا حتى لو صحت نسبته إليه منزه عن الخطأ فى أمور الدنيا وموضوعات الكلام فى شئون الدنيا مما لا علاقة له بالعقيدة أو الشريعة ، وذلك مصداقا لقول محمد ﷺ بنفسه : **«فإذا أتيتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بَشَرٌ»**

النتائج العامة

General Conclusions

فى هذا المقام من نهاية هذه الدراسة تظهر لنا حقيقة هامة وتبرز أمام أنظارنا بوضوح تام، وتتمثل هذه الحقيقة الهامة فى أن الرأى السائد فى الغرب ، وهو الرأى الموجود مُسبَقًا فى الأذهان قبل أى دراسة فيما يتعلق بنصوص الكتب المقدَّسة Holy Scriptures لا يكاد يكون رأيًا صحيحا يتسق مع الحقائق . ولقد رأينا فى هذه الدراسة الظروف وزمان وطرائق صياغة وجَمْع وكتابة موضوعات العهد القديم The old Testament والأناجيل The Gospels والقرآن الكريم ، ولما كانت الظروف الملازمة لبدء كتابة كل من هذه الكتب السماوية الثلاثة قد اختلفت اختلافا كبيرًا فَقَدْ نَتَجَتْ عن ذلك نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بمصداقية النصوص authenticity of the texts وفيما يتعلق أيضا ببعض جوانب مضمونها certain aspects of their contents .

إن العهد القديم (التوراة) يتكون من حَشْد من الكتابات التى صاغها أفراد من البشر مَثَلُهُمْ مَثَلُ الأفراد الذين يصوغون أىَّ كتابات أدبية وِفْقًا لقُدْرَاتهم على الصياغة والإنشاء اللغوى والكتابة فى شتى الموضوعات الأدبية literary works وذلك على مدار حوالى تسعمائة سنة . إن أجزاء وأسفارَ العهد القديم تشْبِهُ قطَعًا من أحجار الفسيفساء كثيرا ما قام البشر على توالى القرون بالتغيير فيها وتبديلها It forms a highly disparate mosaic whose pieces have in course of centuries